شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الرابع

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

* * *

ومنها[1] فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ ٱلْأُضْحِيَةِ ٱسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا ، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا ، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى ٱلْمَنْسَكِ .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

والمَنْسَكُ هاهنا : المَذْبَحُ .

الشّرح :

الأضحية : مايذبح يوم النحر ، ومايجرى مجراه أيام التشريق من النَّعم . واستشراف أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أذن شَرْفاء أى منتصبة .

والعضباء : المكسورة القرن . والتى تجرّ رجلها إلى المنْسَك ، كناية عن العَرْجاء ، ويجوز المنسِك ، بفتح السين وكسرها .

* * *

[اختلاف الفقهاء فى حكم الأضحية]

واختلف الفقهاء فى وجُوب الأضحية ، فقال أبو حنيفة : هى واجبة على المقيمين من أهل

(١) تتمة الخطبة الثانية والخمسين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر فى وُجُوبها النصاب ، وبه قال مالك والثورىّ ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعىّ : الأضحيَة سُنَّة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا فى العَمْياء ؛ هل تجزئ أم لا ؟ فأكثر الفقهاء على أنّها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يقتضى ذلك ؛ لأنه قال : إذا سَلِمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضى أنّه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحيَة . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكى عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تُجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضى الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة فى كتابه المعروف "بالمقنعة" : إنّ الصادق عليه السلام سُئِل عن الرّجل يُهْدِى الهدْىَ أو الأضحية وهى سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفقأ عينُها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهى حية ، أتجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ إلا أنه مكروه .

وأما العضْباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِى ذلك ، وكذلك الحكم فى الجَلْحاء ، وهى التى لم يخلق لها قَرْن ، والقَصْماء : وهى التى انكسر غلاف قَرْنها ، والشرقاء : وهى التى انثقبتْ أذنها من الكىّ ، والخرقاء : وهى التى شُقّت أذنها طولا .

وقال مالك : إن كانت العَضْباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنّخعىّ : لا تجوز التضحية بالعَضْباء .

فأما العرجاء التى كنى عنها بقوله : « تجرّ رجلَها إلى المنسَك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزئ . وقد نقل أصحاب الشافعىّ عنه فى أحد قوليه أنّ الأضحية إذا كانت مريضة مرضا يسيرا أجزأت .

وقال الماوردىّ من الشافعيّة فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلْقةً أجزأت ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزئ .

(٥٣)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر البيعة :

الأَصْلُ :

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِها ، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا ، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ . وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ .

الشَّرْحُ :

تداكُّوا : ازدحموا . والهِيم : العِطاش . ويوم وِرْدها : يوم شربها الماء . والمثانى : الحِبال ، جمع مَثناة ومِثناة بالفتح والكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصارا، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ، واستحقّ العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعنى إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم » ؛ فكيف يكون تارك الواجِب جاحداً لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله !

قيل : إنه فى حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا فى أنّ تارك الواجب يخلَّد فى النار وإن لم يجحد النبوة .

[بيعة علىّ وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس فى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثرُ الناس وجمهورُ أربابِ السِّيَر أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعين غيرمكرهين ، ثم تغيّرت عزائمهما ، وفسدت نيّاتهما ، وغدرَا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبدُ الله بن مصعب ، والزبير بن بكّار وشيعتهم ومَنْ وافق قولَهم من بنى تَيم بن مرة ، أرباب العصبيّة لطلحة : إنهما بايعاَ مكرهيْن ، وإنّ الزبير كان يقول : بايعتُ واللُّجّ على قَفَىّ ، واللُّجّ سيف الأشتر ، وقفىّ لغة هُذَلية ؛ إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين فى الأخرى ؛ فيقولون : قدوافق ذلك هوىّ ، أى هَوَاىَ ، وهذه عصىّ ، أى عصاىَ .

***

وذكر صاحبُ(١) كتاب " الأوائل " أنّ الأشتر جاء إلى علىّ عليه السلام حين قتل عثمان، فقال : قم فبايع الناس، فقداجتمعوا لك، ورغِبُوا فيك؛ والله لئن نَكَلْتَ عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئرسكن، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزُّبَيْرُ، لا يشكّان أنّ الأمر شورى ، فقال الأشتر : أتنتظرون أحداً ! قم ياطلحة فبايع ، فتقاعس، فقال : قم يابن الصَّعْبة ــ وسلّ سيفه ــ فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع، فقال قائل :أولُ مَنْ بايعه أشلّ ! لايتم أمره ، ثم لا يتمّ ، قال : قم يازبير ، والله لاينازع أحد إلاوضربت قُرْطَه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انثال الناسُ عليه فبايعوا .

وقيل : أوّلُ مَنْ بايعه الأشتر ، ألقى خَمِيصَةً كانت عليه، واخترطَ سيفه ، وجذَب يد علىّ عليه السلام فبايعه وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما يعثران فى ثيابهما لايرجوان نجاةً ، حتى صَفَقَا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدهما البصريّون ؛

(١) هو أبو هلال العسكرى .

وأولهم عبد الرحمن بن عدَيْس البَلوىّ ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إليكَ واعْلَمَنْ أبا حَسَنْ　　أنَا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ

وقد ذكرنا نحن فى شرح الفصل[1] الذى فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أوّلهم طلحة والزبير ، وذكرنا فى ذلك ما يبطل رواية الزبير .

وذكر أبو مِخْنف فى كتاب " الجمل " أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لينظروا مَنْ يولّونه أمرَهم ، حتى غَصّ المسجدُ بأهله ، فاتفق رأىُ عمار وأبى الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبى أيوب خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام فى الخلافة ، وكان أشدّهم تهالكا عليه عمّار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأنتم على شَرَف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإنّ عليا أوْلَى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيّها الناس ، إنا لن نألوَكم خيرا وأنفسَنا إن شاء الله ، وإن عليًّا مَنْ قد علمتم ، وما نعرف مكانَ أحد أحمل لهذا الأمر منه ، ولا أوْلَى به . فقال الناس بأجمعهم : قد رضِينا ، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل . وقاموا كلّهم ، فأتوْا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بَسْط يده ، فقَبَضها فتداكّوا عليه تداكّ الإبل الهِيم على وِرْدها ، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم ما رأى ، سألهم أن تكونَ بيعتُه فى المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فكان أوّل من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدىّ : تخوفت ألّا يتم له أمرُه ، لأنّ أوّل يد بايعته شَلّاء ، ثم بايعه الزبير ،

---

(١) الجزء الأول ص ٢٣٠ ، الوليجة : الأمر يسر ويكتم .

وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبي وقاص ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، وعبدالله بن سَلَام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايعَ جميعُ الناس ، فقال له عليه السلام : فأعطني حَمِيلا ألّا تبرح ، قال : ولا أعطيك حَمِيلا ، فقال الأشتر : ياأمير المؤمنين ؟ إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك ، فدعْني أضرب عنقَه ؛ فقال : لست أريد ذلك منه على كُرْه ، خلُّوا سبيله ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق ، وهو في كِبَره أسوأ خُلُقا .

ثم أتى بسعد بن أبي وقّاص ، فقال له بايع ، فقال : ياأبا الحسن خَلّني ، فإذا لم يبق غيري بايعتك ، فوالله لا يأتيك مِنَ قِبَلِي أمر تكرهه أبدا ، فقال : صدق ، خلُّوا سبيلَه. ثم بعث إلى محمد بن مسلمة ، فلما أتاه قال له : بايع ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرَني إذا اختلف الناسُ وصاروا هكذا — وشبّك بين أصابعه — أن أخرج بسيفي فأضرب به عُرض أحد فإذا تقطّع أتيتُ منزلي ، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيَني يد خاطية ، أو منّية قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذاً ، فكن كما أُمِرْت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : بايع ، فقال : إني مولاك ولا خلافَ مني عليك ، وستأتيك بيعتى إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لا حاجةَ لنا فيمن لا حاجةَ له فينا .

فأما أصحابُنا فإنهم يذكرون في كُتُبهم أنّ هؤلاء الرّهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به.

لما ندبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البَيْعة ، وإنما تخلّفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب " الغرر " أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كلّ مفتون يعاتَب ، أعندكم شكّ فى بيعتى ؟ قالوا : لا ، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويتم أنه قال : إن كَرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر ، ثم رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدى عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، وإذا ثبتت لم يجزْ له تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل علىّ عليه السلام المسجدَ ، وجاء الناس ليبايعوه خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشنآن لعلىّ عليه السلام ممن قتل أباه أو أخاه ، أو ذا قرابته فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فيزهد علىّ فى الأمر ويتركه ، فكنت أرصُد ذلك وأتخوّفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين .

* * *

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلّف عبد الله بن عمر ، وكلّمه علىّ عليه السلام فى البيعة فامتنع عليه ، أتاه فى اليوم الثانى ، فقال : إنى لك ناصح ، إنّ بيعتَك لم يرض بها كلهم ، فلو نظرت لدينك ورَدَدْت الأمر شورى بين المسلمين ! فقال علىّ عليه السلام : ويحك ! وهل ما كان عن طلب منى له ! ألم يبلغك صَنِيعُهم ؟ قم عَنّى يا أحمق ، ما أنت وهذا الكلام !

فلما خرج أتى عليا فى اليوم الثالث آتٍ ، فقال: إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبَعْث فى أثره ، فجاءت أمّ كلثوم ابنته ، فسألته وضرِعت إليه فيه، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولاهو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعَتَها فى أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفّ عن البَعثة إليه ، وقال : دعوه وما أراده .

(٥٤)

ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين.

الأصل :

أَمَّا قَوْلُكُمْ : أَ كُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ ! فَوَاللهِ مَا أُبَالِى ؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَىَّ . وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِى أَهْلِ الشَّامِ ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِى طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِىَ بِى ، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِى ، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا ؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا .

* * *

الشرح :

من رواه : « أ كُلَّ ذلك » بالنصب فمفعول فعل مقدر ، أى تفعل كلّ ذلك ، وكراهية منصوب لأنه مفعول له ومن رواه « أ كُلُّ ذلك » بالرفع أجاز فى « كراهية » الرفع والنصب ، أما الرفع فإنه يجعل « كلّ » مبتدأ ، وكراهية خبره ؛ وأما النصب فيجعلها مفعولا له كما قلنا فى الرواية الأولى ، ويجعل خبر المبتدأ محذوفا ، وتقديره : أ كلّ هذا مفعول ! أو تفعله كراهية للموت ! ثم أقسم أنه لا يبالى أتعرّض هو للموت حتى يموت ، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرّض له .

وعشا إلى النار يَعْشُو : استدلّ عليها ببصر ضعيف ، قال :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[1]

(١) للحطيئة ، ديوانه ٢٥

وهذا الكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلا إلى النار ؛ وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشُو ببصرٍ ضعيف إلى النار فى الليل ، قال : ذاك أحبّ إلىّ من أن أقتلهم على ضلالهم، وإن كنتُ لو قتلتهم على هذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أى رجعوا ، قال سبحانه: ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾[1] أى ترجع .

***

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستمالةً لقلوبهم وإظهارا للمعدلة وحسن السيرة فيهم، مكث أياما لا يُرسِل إلى معاوية ، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال، وقالوا : ياأميرَ المؤمنين ، خَلَّفْنا ذرارِيَّنا ونساءنا بالكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطنا ، ائذن لنا فى القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام: ماقالوا ؟ فقال منهم قائل : إنّ الناس يظنون أنك تكرهُ الحرب كراهيةً للموت، وإن من الناس من يظن أنك فى شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام . فقال عليه السلام : ومَتَى كنتُ كارها للحرب قطّ ! إنّ من العجب حُبِّى لها غلاما ويَفَعا ، وكراهيتى لها شيخا بعد نفادِ العمر وقرب الوقت ! وأما شكِّى فى القوم فلو شككت فيهم لشككتُ فى أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً ، فما وجدت يسعُنى إلا القتال أو أن أعصىَ الله ورسوله ، ولكنى أستأنى بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة، فإن

---

(١) سورة المائدة ٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى يوم خيبر : لأنْ يهدىَ الله بك رجلاواحداً خيرلك مِمّا طلعت عليه الشمس .

* * *

قال نصربن مزاحم: حدثنا[١] محمد بن عبيدالله عن الجرجانىّ ، قال : فبعث علىّعليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارىّ، وسعيد بن قَيْس الهَمْدانِىّوشَبَث ابن الرِّبْعىّ التميمىّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و][٢] إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شَبَث : ياأمير المؤمنين ، ألا تطمِعُه فى سلطان تولّيه إياه ، ومنزلةٍ يكون له بها أثْرَة عندك إن هو بايعك ؟ فقال :ائتوهالآن والقَوْه واحتجّوا عليه ، وانظروا مارأيُه فى هذا[٣] .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمِد أبوعمرو بن مِحْصَن الله وأثنى عليه، وقال:أمّابعد يامعاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله مجازِيك بعملِك ومحاسبُك بما قدّمت يداك ، وإنّى أنشدُك الله ألّا تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وألّا تسفِك دماءها بينها . فقطع معاويةُ عليه الكلامَ وقال : فهلّا أوصيتَ صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إنّ صاحبى لايوصَى ، إنّ صاحبى ليس مِثْلَك ، صاحبى أحقّ الناس بهذا الأمر فى الفضلِ والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول . قالمعاوية: فتقول ماذا ؟ قال : أدعوكَ إلى تقوى ربّك ، وإجابة ابنِ عمك إلى مايدعُوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك . قال : ويُطَلّ دم عثمان ! لا والرحمنِ لا أفعل ذلك أبدا .

---

(١) صفين ٢٠٩ ومابعدها

(٢) تكملة من صفين .

(٣) صفين : « وانظروا مارأيه — وهذا فى شهر ربيع الآخر — فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلّم ، فبدره شَبَث بن الرِّبعىّ ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: يامعاوية ، قد فهمتُ ماردَدْت على ابن محْصَن ؛ إنه لا يخفى علينا ماتقرّ وما تطلب ، إنك لا تجدُ شيئا تستغوِى به الناس، ولا شيْئا تستميل به أهواءهم ؛ وتستخلِص به طاعتهم إلا أن قُلْتَ لهم : قُتِل إمامُكم مظلوما ، فهلمُّوا نطلب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَغام رُذَال ، وقد علمنا أنّك أبطأتَ عنه بالنّصر ، وأحببت له القتل ؛ لهذه المنزلة التى تطلب ؛ وربّ مبتغٍ أمراً ، وطالبٍ[1] له يحولُ الله دونه ، وربّما أوتى المتمنِّى أمنيّته، وربما لم يؤْتها ، ووالله مَالكَ فى واحدة منهما خير ؛ والله لئن أخطأك ماترجُو إنك لَشرُّ العرب حالا ، ولئن أصبت ماتتمناه لا تصيبهُ حتّى تستحقّ صَلَى النار ؛ فاتق الله يامعاية ، ودَعْ ما أنتَ عليه ، ولا تنازِع الأمر أهلَه .

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد فإنّ أولَ ماعرفتُ به سفهك وخفّة حِلْمك قطعُك على هذا الحسيب الشريف سيِّد قومه منطقه . ثم عقبتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، ولقد كذَبت ولَوُمت[2] أيها الأعرابىّ الجلف الجافى فى كلّ ماوصفت [وذكرت][3] . انصرفوا من عندى فإنّه ليس بينى وبينكم إلا السيف .

وغضب .فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تهوّل بالسيف! أما والله لنعجلّنه إليك ، [فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذى كان من قوله ، وذلك فى شهر ربيع الآخر][3] .

قال نصر : وخَرَجَ قراء أهلِ العِراق ، وقراء أهل الشام فعسكروا ناحيــة صِفّين ثلاثين ألفا .

---

(١) صفين : « وطالبه » .
(٢) صفين : « ولويت » .
(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر علىّ عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقَه على الماء أيضا ، ومشت القُرّاء فيما بين علىّ عليه السلام ومعاوية ، منهم عَبيدة السّلمانىّ ، وعلقمة بن قَيْس النَّخَعِىّ ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس — وقد كان فى بعض تلك السواحل — فانصرف إلى عسكر علىّ عليه السلام ؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يامعاوية ، ما الذى تطلب؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : ممّن تطلب بدم عثمان ؟ قال : أطلبه من علىّ ، قالوا : وعلىّ قتله ؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قَتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علىّ عليه السلام ؛ فقالوا : إن معاوية يزعُمُ أنك قتلت عثمان ، قال : اللهمّ لكَذَب فيما قال ، لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قَتَله بيده فقد أمر ومالأ ، فرجعوا إلى علىّ فقالوا : إن معاوية يزعم أنّك إن لم تكنْ قتلتَ بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قَتْل عثمان ، فقال : اللهم لكَذَب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إنّ عليا يزعم أنّه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادِقا فليُقِدْنا[1] من قَتَلةِ عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعَضُده . فرجعوا إلى علىّ عليه السلام ، فقالوا : إنّ معاويةَ يقول لك : إنْ كنتَ صادقا فادفع إلينا قَتَلة عثمان أو مكِّنّا منهم ، فقال لهم : إنّ القوم تأوّلوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه فى سلطانه ، وليس على ضَرْبهم قَوَد ؛ فخصمَ[2] علىّ معاوية .

***

— قلت : على ضَرْبهم هاهنا ، على مثلهم ؛ يقال : زيدٌ ضَرْب عمرو ومِنْ ضَرْبه ، أى مِثله ومِنْ صِنْفه ، ولا أدرى لِمَ عَدَل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام ؛ وهو أنْ يقول : إنّ الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قُتيرة بن وهب وسُودان ابن حُمران ، وكلاهما قُتل يوم الدار ، قتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندِى وعَضُدى

(١) صفين : « فليمكنا »

(٢) خصمه ، أى غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرَوْا به ، وحصروه وأجْلَبُوا عليه، وهَجَمُوا على داره ، كمحمد بن أبى بكر والأشتر وعمرو بن الحمِق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قَوَد ـ

قال نصر : فقال لهم معاوية: إنْ كان الأمرُ كما تزعمون ؛ فلِمَ ابتزَّ الأمْرَ [1] دوننا على غير مشورة مِنّا ولا ممن هاهنا معنا ؟ فقال علىّ عليه السلام : إنّ الناس تَبَع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين فى البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم ، فرضُوا بى وبايعونى، ولست أستحِلّ أن أدع ضَرْب [2] معاوية يحكُم بيده على الأمة ويركبهم ويشُقّ عصاهم .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بالُ مَنْ هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر ويؤامَرُوا فيه [3] !

فانصرفوا إلى علىّ عليه السلام،فأخبروه بقوله ، فقال : وَيْحكم ! هذا للبدريّين دون الصحابة ، ليس فى الأرض بَدْرِىّ إلا وقَدْ بايعنى وهو معى ، أو قد قام ورَضِىَ ، فلا يغرّنّـكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجُمادَيَيْن ؛ وهم مع ذلك يَفْزَعون الفَزْعة فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القرّاء بينهم .

قال : فزعوا فى ثلاثة أشهر خمساوثمانين فَزْعة ؛ كلُّ فزعة يزْحَفُ بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرَج أبو أمامة الباهلىّ وأبو الدرداء ، فدخلا على معاوية ـ وكانا معه ـ فقالا : يامعاوية ، علامَ تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لهو أقْدَمُ منك إسلاما [4]، وأحقّ بهذا

---

(١) صفين : « فاله امر الأمر دوننا » ؟

(٢) صرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفى صفين : « ويؤامروه » .

(٤) صفين : « سلما » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ؟ فقال : أقاتله على دَمِ عثمان، وأنه آوى قَتَلته ، فقولوا له : فَلْيُقِدْنا مِنْ قتلته وأنا أوّل من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى علىّ عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين تَرَوْن، فخرج عشرون ألفا أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لايُرى منهم إلا الحَدَق ، فقالوا : كُلّنا قتله؛ فإن شاءوا فَلْيَرُوموا ذلك منّا. فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهَدا شيئًا من القتال.

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِى معاوية أن يتابع القرّاء عليًّا عليه السلام ، أخذ فى المكْر ، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفّوا حتى ينظروا .

قال : فكتب فى سهم : مِنْ عبد الله الناصح ؛ إنى أخبركم أنّ معاوية يريد أن يُفَجِّر عليكم الفرات فيغرِقَكم ، فخذوا حذركم . ثم رمى بالسهم فى عسكر علىّ عليه السلام، فوقع السهم فى يَدِ رجل فقرأه ثم أقرأه صاحبَه، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أقبل وأدبر، قالوا: هذا أخ لنَا ناصح ؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية ؛ فلم يزل السَّهْم يُقرأ ويرتفع حتى رُفع إلى علىّ عليه السلام ؛ وقد بعث معاوية مائتى رجل من العَمَلة إلى عاقول[1] من النهر، بأيديهم المرور والزُّبُل[2] يحفرون فيها بحيال عسكر علىّ عليه السلام. فقال علىّ عليه السلام : ويحكم ! إن الذى يعالج معاوية لايستقيم له،ولا يقوى عليه ؛ إنما يريد أن يُزيلكم عن مكانكم ؛ فانتهوا عن ذلك، فقالوا له : لا نَدَعهم والله يحفِرون، فقال علىّ عليه السلام: لاتكونوا ضَعْفى ، ويحكم ! لاتغلبونى على رأيى. فقالوا : والله لنرتحلنّ، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم ؛ فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم مليًّا ، وارتحل علىّ عليه السلام فى أخريات الناس ، وهو يقول :

---

(١) عاقول النهر : ماإعوج منه

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المسحاة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أنى أُطِعْتُ عصمتُ قومى إلى ركن اليمامة أو شَمَامِ[1]
ولكنّى مَتَى أبْرَمْتُ أمراً مُنِيتُ بخُلْف آراء الطَّغَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علىّ عليه السلام الذى كان فيه، فدعا علىّ عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبنى على رأيى[2] أنت والأشعث ! فدونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوى ما أفسدتُ اليوم من ذلك، فجمع كِنْدة فقال لهم: يا معشر كِنْدة ، لا تفضحونى اليوم ولا تُخزونى ؛ فإنى إنما أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجّالة يمشون، وبيده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول : امشوا قِيد رمحى هذا، فيمشون، فلم يزل يَقِيس لهم الأرض برمحه ، ويمشون معه رَجّالة حتى لَقِىَ معاويةَ وسط بنى سُلَيْم واقفا على الماء ، وقد جاءه أدانى عسكره، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأشتر فى خَيْل من أهل العراق ، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب فى ناحية أخرى؛ فانحاز معاوية فى بنى سُلَيم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم ، والأشعث يهدِرُ ويقول : أرضيتك يا أمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طَرَفة بن العبد :

ففداء لبَنِى سَعْد عَلَى ما أصاب الناس من خَيْرٍ وَشَرْ[3]
ما أقلّت قدماى إنّهم نِعمَ الساعون فى الحَىّ الشُّطُرْ[4]
وَلَقَدْ كُنْتُ عليكم عاتباً فعقَبْتُم بذَنوب غَيْر مُرْ[5]

---

(١) صفين : « عصبت قومى » . وشمام : جبل لباهلة .

(٢) صفين : « على رائى » ، والرائى والرأى بمعنى .

(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبنى قيس ... من سر وضر »

(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد

(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أى جدتم عقب ذلك . ومر : نقيض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أى عقبتم عتبى عليكم بعطاء حلو » .

كنت فيكم كالمغطِّى رأسَه فانجلَى اليوم قِناعى وَخُمُرْ[1]
سادراً أحسب غيِّ رَشَداً فتناهيتُ وقد صابت بِقُرْ[2]

وقال الأشتر : ياأمير المؤمنين؛ قد غلب الله لك على الماء،فقال علىّ عليه السلام : أنما كما قال الشاعر :

تلاقِينَ قَيْساً وأشياعَـــهُ فيُوقد لِلحَـــرْب نَاراً فنَارَا
أخُو الحرب إن لَقِحَتْ بازِلًا سَمَا للعلا وأجَـــلّ الخطارا[3]

قال نصر : فـكان كلّ واحدٍ من علىّ ومعاوية يُخرِج الرجلَ الشريفَ فى جماعة ، فيقاتل مثله؛وكانوا يكرهون أن يتزاحفُوا بجميع الفَيْلق مخافة الاستئصال والهلاك،فاقتتل الناسُ ذَا الحِجّة كلّه ، فلما انقضَى تداعوْا إلى أن يكفّ بعضُهم عن بعض إلى أن ينقضىَ المحرّم ؛ لعلّ الله أن يُجرِى صلحا أو إجماعا ، فـكفّ الناس فى المحرّم بعضُهم عن بعض .

* * *

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن أبى المجاهد عن المحلّ بن خليفة ، قال[4] : لما توادَعُوا فى المحرّم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصُّلح ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية عدىّ بن حاتم الطائىّ وشَبَث بن رِبعىّ التّميمىّ ويزيد بن قَيْس وزياد ابن خَصَفة ، فلما دخلوا عليه ، حَمِد الله تعالَى عدىّ بن حاتم الطائىّ وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّا أتيناك لندعوَك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمّتنا ، ويحقِن به دماء

---

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية . وانجلى : انكشف . وخمر : جمع خمار .
(٢) السادر : الذى لايهتم ولا يبالى ماصنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهى .
(٣) البعير البازل : الذى طعن فى التاسعة ، والخطار : المخاطرة .
(٤) صفين ٢٢١ ، تاريخ الطبرى ٥ : ٥

المسلمين . ندعُوكَ إلى أفضلِ الناس سابقة ، وأحسنِهم فى الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه[1] الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رَأوْا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرُكَ وغيرُ مَنْ معك ؛ فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنّك إنما جئت مُهَدّدا ، ولم تأت مصلحا ! هيهات يا عدىّ ! إنى لابنُ حرب ! ما يُقَعْقَعُ لى بالشِّنان[2] . أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنّك لَمِنْ قَتَلَته ؛ وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتُله الله .

فقال له شَبَث بن رِبعىّ وزياد بن خَصَفة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلِحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبْنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه .

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبىّ ، فقال : إنا لم نأتِك إلا لنبلِّغك ما بعثنا به إليك ، ولنُؤَدِّى عنك ما سمعنا منك ؛ ولم نَدَعْ أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبَنا مَنْ قد عرَفْتَ وعرف المسلمون فضلَه ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إنّ أهلَ الدين والفضل لا يعدِلُونك بعلىّ ، ولا يميّلون[3] بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإنا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلِّها منه .

فحمِد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأمّا الجماعة التى دعوتُم إليها فنِعِمّا هى ! وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ؛ إنّ صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقَتَلتنا ؛ وصاحبكم يزعُم أنه لم يقتُله ؛ فنحن

---

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبرى : « استجمع له الناس » .

(٢) الشنان : جمع شن ؛ وهو القربة الخلق ؛ كانوا يحركونها للإبل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) التمثيل : الترجيح بين الشيئين .

لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ! ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؛ فليدفعْهم إلينا فلْنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث بن رِبْعىّ : أيسرّك بالله يا معاوية أنْ أمكَنْت من عمار بن ياسر فقتلته ! قال : وما يمنعُنى من ذلك ! والله لو أمكننى صاحبُكم من ابن سُمَيّة ما قتلته بعثمان ؛ ولكنى كنت أقتلُه بنائل مولى عثمان !

فقال شَبث : وإله السماء ما عَدَلْتَ معدِلا ، ولا والذى لا إله إلا هو : لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنْدَرَ الهامُ عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرضُ الفضاء عليك برُحْبها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيَق .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خَصَفة من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أخا ربيعة ، فإن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلةَ صاحبنا ، وإنى أسألك النُّصرة بأسرتك وعشيرتك ، ولك علىّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليّك أىّ المصرين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خصفة يحدّث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حَمِدت الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعدُ ، فإنى لَعَلَى بيّنةٍ من ربى وبما أنعم عَلَىّ ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، ثم قمت .

فقال معاوية لعمرو بن العاص — وكان إلى جانبه — : مالهم عَضَبهم[1] الله ! ماقلبهم إلا قلب رجل واحد !

* * *

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبى راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكَنُود ،

(١) العضب : القطع ؛ وهو دعاء عند العرب .

قال[١] : بعث معاوية حبيب بن مَسْلمة الفِهْرِىّ إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وبعث معه شُرَحْبيل بن السِّمط ومعن بن يزيد بن الأخْنس السُّلَمِىّ ، فدخلوا على علىّ عليه السلام فتكلّم حبيب بن مسلمة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًّا ، يعمل بكتاب الله ويُنيب إلى أمر الله ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوْتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلَة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنك لم تقتله ، فاعتزل أمرَ الناس ، فيكونَ أمرُهم هذا شورى بينهم ، يولِّى الناس أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم .

فقال له علىّ : وما أنت لا أمّ لك والولايةَ والعزل والدخول فى هذا الأمر ! اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذاك ! فقام حبيب بن مسلمة وقال : أما والله لترينّى حيثُ تكره . فقال له عليه السلام : وما أنتَ ! ولو أجْلَبْت بخيْلك ورَجِلك . اذهب فصوّب وصعِّد ما بدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرَحْبيل بن السِّمط : إنْ كلمتك ، فلعَمْرِى ما كلامى لك إلا نحو كلام صاحبى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبتَه به ؟ [٢] فقال : نعم ، قال : فقله[٢] ؛ فحمد الله علىّ عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإنّ الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضّلالة ، ونَعَش[٣] به من الهلَكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قَبَضه الله إليه ؛ وقد أدّى ما عليه ؛ فاستخلف النّاس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحْسَنا السيرة ، وعَدَلا فى الأمّة ؛ ووجَدْنا

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٧

(٢–٢) وقعة صفين : « فقال على عليه السلام : عندى جواب غير الذى أجبته به ، لك ولصاحبك » . وفى الطبرى : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به » .

(٣) الطبرى : « وانتاش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا ، ونحن آلُ الرسول ، وأحقُّ بالأمر ؛ فغفرنا ذلك لهما ، ثم وَلِيَ أمرَ الناس عثمان ، فعمِل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناسٌ فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمرَهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيْتُ عليهم ، فقالوا لى : بايع ، فإنّ الأمة لاترضَى إلا بك ، وإنا نخاف إنْ لم تفعلْ أن يفترِق الناس ؛ فبايعتُهم فلم يرُعْنى إلّا شقاق رجلين قد بايعا[1] ، وخلاف معاوية إياى الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلفَ صِدْق فى الإسلام ، طَليق ابن طليق ، وحزب من الأحزاب ؛ لم يزَل لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين مكرهين ، فيا عجبا[2] لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ؛ وتدعون آل بيت نبيّكم الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ؛ ولاتعدِلوا بهم أحدا من الناس ؛ إنى أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة.

فقال له شُرَحْبِيل ومَعْن بن يزيد : أتشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلوما ؟ فقال لهما : إنّى لاأقول ذلك ؛ قالا : فمَنْ لم يشهد أنّ عثمان قتل مظلوما ، فنحن برآء منه ؛ ثم قاما فانصرفا.

فقال على عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[3].

ثم أقبل على أصحابه ، فقال : لا يكن هؤلاء فى ضلالتهم بأوْلَى بالجدّ منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . ثم مكث النّاسُ متوادعين إلى انسلاخ المحرّم ، فلما انسلخ المحرّم واستقبل الناس صَفَراً من سنة سبع وثلاثين ، بعث علىّ عليه السلام نفَراً من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا

---

(١) صفين : « قد بايعانى »

(٢) صفين : « فعجبنا لكم » . وفى الطبرى : « فلا غرو إلا خلافكم معه » .

(٣) سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مَرْثَد بن الحارث الُجشَمِيّ ، فنادى عند غروب الشمس : ياأهلَ الشام إنّ أميرَ المؤمنين عليا وأصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم : إنّا لم نَكُفّ عَنْكم شَكّاً فى أمركم ؛ ولا إبقاء عليكم ؛ وإنما كَفَفْنا عنكم لخروج المحرّم ، وقد انسلخ ؛ وإنا قد نَبَذْنا إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فتحاجز الناس وثارُوا إلى أمرائهم .

* * *

قال نصر : فأما[1] رواية عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبى الزبير أنّ نداء مَرْثَد بن الحارث الُجشَمىّ ، كانت صورته : ياأهلَ الشام ، ألَا إنّ أميرَ المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمْتُكم واستأنَيْتُ بكم ، لتراجِعوا الحقّ ، وتنُوبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حَقّ ، وإنى قد نبذتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب ، ويُعبّيَان العساكر ، وأوقدُوا النيران ، وجاءوا بالشموع ، وباتَ علىٌّ عليه السلام تلك الليلة كلّها ، يعبّى الناس ، ويُكتّبُ الكتائب ، ويدور فى الناس ويحرّضهم .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، بإسناده عن عبد الله بن جُندب ، عن أبيه أن[2] عليًّا عليه السلام كان يأمرنا فى كل موطن لقينا معه عدوّه ؛ فيقول :

(١) صفين ٢٢٨ (٢) وقعة صفين ٢٢٩ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٠ ، ١١

لاتقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهىَ حُجّة أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبِراً ، ولا تُجهزوا على جَريح ، ولا تكشفوا عوْرة ، ولا تُمثّلوا بقتيل ؛ فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِترا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ؛ ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ماوجدتم فى عسكرهم ، ولا تَهيجوا امرأةً ، وإنْ شتَمْنَ أعراضكم ، وتناوَلْنَ أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهنّ ضِعاف القوى والأنفس والعقول ؛ولقد كُنّا وإنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهن مشركات ، وإن كان الرجلُ ليتناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعيَّر بها عَقِبه من بعده .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد – يعنى ابن أبى خالد – عن أبى صادق ، أنّ عليا[1] عليه السلام حَرّض الناس فى حروبه ، فقال :

عبادَ الله، اتقوا اللهوغُضُّوا أبصاركم، واخفضُوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا أنفسكم عَلَى المنازلةوالمجاولة والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[3]. اللهم ألهِمْهم الصبر ، وأنزِل عليهم النصر ، وأعظِم لهم الأجر .

* * *

قال نصر : وكان[4] ترتيب عسكرعلىّ عليه السلام ، بموجب مارواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب : أنه جَعَلَ عَلَى الخيل عَمّار بن ياسر ، وعلى الرجّالة عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ ، ودفع اللواء

(١) وقعة صفين ٢٣٠ .
(٢) سورة الأنفال آية ٤٥ .
(٣) سورة الأنفال آية ٤٦
(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص الزّهرىّ ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعَلَى الميسرة عبدَ الله بن العباس ، وجعل عَلَى رَجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الخزاعىّ ، وعَلَى رَجّالة الميسرة الحارث بن مرة العبدىّ ، وجعل القَلْبَ مُضَر الكوفة والبصرة ، وجعل عَلَى مَيمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد ألوية القبائل ، فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم؛ وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم ، وجعل عَلَى قريش وأسد وكنانة عبدَ الله بن عباس ، وعَلَى كِنْدة حُجْر بن عدىّ الكندىّ ، وعَلَى بَكْر البصرة الحُصين بن المنذر الرقاشىّ ، وعَلَى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعَلَى خُزاعة عمرو بن الحَمِق ، وعَلَى بَكْر الكوفة نُعَيْم بن هُبيرة ، وعَلَى سَعْد البصرة ورِبابها جارية بن قُدامة السعدىّ ، وعَلَى بَجِيلة رفاعة ابن شدّاد ، وعلى ذُهْل الكوفة رُوَيْماً الشيبانىّ – أو يزيد بن رُوَيم – وعلى عمرو البصرة وحَنْظَلَتِها أعْيَن بن ضُبَيْعَة ، وعلى قُضاعة وطيئ عدىّ بن حاتم الطائىّ ، وعلى لهازم الكوفة عبدالله بن حَجَل العجلىّ ، وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطارد ، وعلى الأزْد واليمن جُندَب بن زهير ، وعلى ذُهْل البصرة خالد بن المعمَّر السّدوسىّ ، وعلى عَمْرو الكوفة وحَنْظلتها شَبَث بن رِبْعِىّ ، وعلى هَمْدان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حُرَيث ابن جابر الجُعفىّ[1] ، وعلى سعد الكوفة ورِبابها الطُّفيل أبا صُرَيمة ، وعَلَى مَذْحِج الأشتر ابن الحارث النَّخَعِىّ ، وعَلَى عبدالقيس الكوفة صَعْصعة بن صُوحان ، وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعَلَى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل البَكّائىّ ، [وعَلَى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمىّ][2] وعَلَى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلالىّ ، وعَلَى اللفيف من القواصى القاسم بن حَنْظلة الجُهَنىّ .

وأما معاوية فاستعمل عَلَى الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعَلَى الرجّالة مسلم ابن عقبة المرّىّ ، وجعل عَلَى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعَلَى الميسرة حبيب

(١) صفين : « الحنفى » .
(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهرىّ ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل عَلَى أهل دمشق — وهم القلب — الضحاك بن قيس الفِهرىّ ، وعلى أهل حِمْص — وهم الميمنة — ذا الكَلاع الحميرىّ ، وعلى أهل قِنّسرين — وهم فى الميمنة أيضاً — زُفَر بن الحارث الكِلابىّ ، وعلى أهل الأردنّ — وهم الميسرة — سفيان بن عمرو أبا الأعور السُّلَمىّ ، وعلى أهل فلسطين — وهم فى الميسرة أيضا — مسلمة بن مَخْلد ، وعلى رجّالة أهل دمشق بُسْر بن أبى أرطاة العامرىّ بن لؤىّ بن غالب ، وعلى رجّالة أهل حِمْص حَوْشبا ذا ظُلَيم ، وعلى رَجّالة قيس طريف بن حابس الألهانىّ ، وعلى رَجّالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القَيْنىّ ، وعلى رجّالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدىّ ، وعلى رجّالة قيس دمشق همام بن قَبيصة ؛ وعلى قضاعة حِمْص وإيادها بلال بن أبى هُبيرة الأزدىّ ، [وحاتم بن المعتمر الباهلىّ][1] ، وعلى رجّالة الميمنة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى قُضاعة دمشق حسّان بن بَحْدل الكلبىّ ، وعلى قُضاعة عباد بن يزيد الكلبىّ ، وعلى كِنْدة دمشق حسان بن حوىّ السَّكسكىّ ، وعلى كِندة حِمْص يزيد بن هبيرة السَّكونىّ ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَلىّ ، وعلى حِمْيَر وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قضاعة الأردنّ حبيش بن دُلجة القَيْنىّ ، وعلى كنانة فلسطين شريكا الكنانىّ ، وعلى مذحِج الأردنّ المخارق بن الحارث الزُّبيدىّ ، وعلى جُذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامىّ ، وعلى هَمْدان الأردنّ حمزة بن مالك الهمدانىّ ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعمىّ ، وعلى غسان الأردنّ يزيد بن الحارث ، وعلى جميع القواصى القعقاع بن أبرهة الكَلاعِىّ ؛ أصيب فى المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان .

***

قال نصر : فأما رواية الشعبىّ التى رواها عنه إسماعيل بن أبى عُمَيرة[2] ؛ فإنّ عليا

---

(١) من صفين . (٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام بعث على ميمنته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء الخزاعيّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلى خيل الكوفة الأشتر ، وعلى البصرة سهل بن حُنيف ، وعلى رجّالة الكوفة عمّار بن ياسر ، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد ـ كان قد أقبل من مصر إلى صِفّين ـ وجعل معه هاشم بن عُتبة ، وجعل مسعود بن فدكى التميميّ على قراء أهل البصرة ؛ وأما قرّاء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيل ، وعمار بن ياسر .

* * *

قال نصر : وأما[1] ترتيب عسكر الشام ـ فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية ـ فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكَلَاع ، وعلى ميسرته حبيبَ بن مَسْلَمَة الفِهريّ ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السُّلَميّ ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقْبة المُرّيّ على رجالة دمشق ، والضحاك بن قيس على سائر الرجّالة بعد .

* * *

قال نصر : [2] وتبَايَع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعَقَلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا صُفوفا خمسة [معقّلين][3] ، كانوا يخرجون فيصطفّون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفُّون أحدَ عشر صفا أيضا .

قال نصر : فخرجوا أولَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا ، وعَلى مَنْ خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة

---

(١) صفين ٢٣٩ .

(٢) صفين ٢٣٩ .

(٣) من صفين .

فاقتتلوا قِتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضُهم من بعض . ثم خرج في اليوم الثانى هاشم بن عُتْبة فى خَيْل ورجال حَسَنٍ عددها وعُدَّتها ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَمىّ ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمِلُ الخيل على الخيل والرجال على الرجال. ثم انصرفوا وقد صَبَرَ القومُ بعضُهم لبعض ؛ وخرج فى اليوم الثالث عَمّار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص ؛ فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان ، وجعل عمّار يقول : ياأهل الشام ، أترِيدون أنْ تنظُروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهـدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أنْ يُظهِر دِينَه ، وينصر رسوله أتى إلى النبىّ صلى الله عليه وآله فأسلم ، وهو والله فيما يرى راهبٌ غير راغب . ثم قبض الله رسولَهُ ، وإنا واللهِ لنعرفه بعداوة المسلم ، ومودّة المجرم ! ألا وإنه معاوية ، فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممّن يطفئْ نور الله ، ويظاهر أعداء الله .

قال : وكان مع عَمّار زيادُ بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل فى الخيل ، فحمل فصبروا[1] له، وشدّ عمار فى الرَّجّالة، فأزال عمرو بن العاص عن مَوْقفه ؛ وبارز يومئذ زياد بن النضر أخا له[2] من بنى عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العُقيلىّ ؛ وأمهما هند الزبيديّة؛ فانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك ؛

* * *

قال نصر : وحدثنى[3] أبو عبد الرحمن المسعودىّ قال : حدثنى يونس بن الأرقم ؛ عمّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل ؛ قال : كنا مع علىّ عليه السلام بصِفّين؛ فرفع عمرو ابن العاص شُقّة خميصةٍ سوداء فى رأس رُمْح ؛ فقال ناس : هذا لواء عَقَده له رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فلم يزالُوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى علىّ عليه السلام ؛ فقال:

(١) فى الأصول : « نصبر » ، والصواب ما أثبته من صفين .
(٢) فى الطبرى : « لأمه » .
(٣) صفين ٢٤١ .

أتدرُون ما أمرُ هذا اللواء ! إنّ عدوّ الله عَمْراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الشُّقّة ، فقال : مَنْ يأخذها بما فيها ؟ فقال عمرو : وما فيها يارسول الله ؟ قال : فيها ألّا تقاتل بها مسلما ، ولا تقرّبها من كافر ؛ فأخذها ؛ فقد والله قرّبها من المشركين ، وقاتل بها اليوم المسلمين ؛ والّذِى فَلَقَ الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسرّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا أظهروه .

***

وروى نصر ، عن أبى عبد الرحمن المسعودىّ ، عن يونس بن الأرقم ، عن عوف ابن عبد الله ، عن عمرو بن هند البَجَلِىّ ، عن أبيه ، قال [1] : لما نظر علىّ عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام ، قال : والذى فَلَقَ الحبّة ، وبرأ النسمة ؛ ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسرُّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا ، رجعوا إلى عَدَاوتهم لنا؛ إلا أنّهم لم يتركوا الصلاة .

***

وروى نصر ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبى ثابت،قال : [1] لما كان قتال صِفّين،قال رجل لعمّار: يا أبا اليقظان ؛ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « قاتلوا الناس حتى يُسلموا ؛ فإذا أسلموا عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم » ؟ قال: بلى ، ولكن والله ما أسلموا ؛ ولكن استسلموا ، وأسرّوا الكفر حتى وَجَدُوا عليه أعوانا .

***

وروى نصر ، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبى ثابت ، عن منذر الثورىّ ، قال : قال محمد بن الحنفيّة: لما [1] أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أعلى الوادى ومن أسفله،

---

(١) صفين ٢٤١ ، ٢٤٢

وملأ الأودية كتائب ـ يعنى يوم فتح مكة ـ استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل،عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبى النجود ، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبى سفيان يخطب على منبرى فاضربوا عنقه » ، فقال الحسن : فوالله مافعلوا ولا أفلحوا [1] .

---

(١) صفين ٢٤٣

(٥٥)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصلُ :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلّم ؛ نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنَا وَأَعْمامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ ، وَجِدًّا[1] فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ .وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ ،يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا ؛ أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتّى اسْتَقَرَّ الإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ . وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا ، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَمًا !

***

الشّرحُ :

لَقَمُ الطريق : الجادّة الواضحة منها . والمَضَض : لذع الألم وبرحاؤه . والتّصاول : أن يحمل كلُّ واحدٍ من القِرنين على صاحبه . والتخالس : التسالُب والانتهاب . والكبت : الإذلال . وجِران البعير : مقدّم عنقه . وتبوّأت المنزل : نزلته . ويقال لمن أسرف فى الأمر : لتحتلِبنّ دما ، وأصله الناقة يُفرَّط فى حَلْبها فيحلب الحالب الدم .

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله : «استقرّ الإسلامُ ملقيا جِرانه» ، أى ثابتا متمكّنا ، كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوِّئًا أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ماقام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العُمُد .

وقوله : « ولا اخضرّ للإيمان عود » ، جعله كالشّجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله فكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجمّ الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بَدْر وأُحُد ؛ وهم عشيرته وبنو عمّه ، وقتَل عمرُ ابن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبةَ ابن ربيعة يوم بَدْر ، وهو ابنُ عمه ؛ لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة .

وأما كَوْنُ الرجل منهم وقِرْنِه يتصاولان ويتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليدَ بن عُتْبة ، وبارز طلحةَ بن أبى طلحة ، وبارز عمرو بن عبدوَدّ ؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ، وبارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقتَلهم ؛ وبارز جماعةٌ من شُجْعان الصحابة جماعةً من المشركين ؛ فمنهم مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ قتَل ، وكتب المغازى تتضمّن تفصيل ذلك .

***

[فتنة عبد الله بن الحضرمىّ بالبصرة]

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرمىّ حيث قدم البَصْرة من قِبَل معاوية ، واستنهض أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى فى كتاب ''الغارات'' :

حدّثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا الحسن بن على الزّعفرانىّ ، عن محمد بن عبد الله ابن عثمان ، عن ابن أبى سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدىّ ، عن عمرو بن محصن ، أن معاوية لما أصابَ محمد بن أبى بكر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فقال له : سرْ إلى البصرة ؛ فإن جلّ أهلها يروْن رأينا فى عثمان ، ويعظّمون قتلَه ، وقد قُتِلوا فى الطلب بدمِه ، فهم موتورون حَنِقون لما أصابهم ؛ ودُّوا لو يجدون مَنْ يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم فى الطلب بدم عثمان ؛ واحذرْ ربيعة ، وانزل فى مُضَر ، وتوددِ الأزْد ؛ فإنّ الأزْدَ كلَّها معك إلا قليلًا منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غيرُ مخالفيك .

فقال عبد الله بن الحضرمىّ له : أنا سهمٌ فى كنانتك ، وأنا مَنْ قد جرَّبت ، وعدوّ أهل حربك ، وظهيرك على قتلة عثمان ؛ فوجِّهْنِى إليهم متى شئت . فقال : اخْرُج غدا إن شاء الله . فودّعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جَلس معاوية وأصحابه يتحدّثون ، فقال لهم معاوية: فى أىّ منزل ينزل القمر الليلة ؟ فقالوا : بسعد الذّابح ؛ فكرِه معاوية ذلك ،وأرسل إليه ألّا تبرح حتى يأتيك أمرى . فأقام .

* * *

ورأى معاوية أن يكتبَ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عاملُه عليها ، يستطلع رأيه فى ذلك ، فكتب إليه ؛وقد كان تَسمَّى بإمْرةالمؤمنين بعد يوم صِفِّين ،وبعد تحكيم الحكمين :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى قد رأيتُ رأيًا هممتُ بإمضائه ، ولم يخذُلنى عنه

إلّا استطلاع رأيك ؛ فإن توافقنى أحمد الله وأمضه ؛ وإن تخالفنى فإنى أستخير الله وأستهديه . إنى نظرتُ فى أمر أهل البصرة فوجدتُ معظم أهلها لنا وليًّا ولعلىّ وشيعته عدوًّا؛ وقد أوقع بهم علىّ الوقعة التى علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة فى صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتَ أنّ قتلنا ابن أبى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد أطفأتْ نيران أصحاب علىّ فى الآفاق ، ورفعت رءوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلغ من كان بالبصرة على مثل رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد ممن يرى رأينا أكثرَ عددا ، ولا أضرّ خلافًا على علىّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فينزل فى مُضَر ويتودّد الأزد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكّرهم وقعة علىّ بهم؛ التى أهلكتْ صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم . فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفْسِدَ على علىّ وشيعته ذلك الفَرْج من الأرض ؛ ومتى يُؤْتَوْا من خَلْفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدُهم . فهذا رأيى . فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولى إلا قَدْر مضىّ الساعة التى ينتظرُ فيها جواب كتابى هذا . أرشدنا الله وإياك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغنى رسولُك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيَك الذى رأيتَه ، فعجبت له ، وقلت : إنّ الذى ألقاه فى روعِك ، وجعله فى نفسك هو الثائر بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يك منك ولا مِنَّا منذ نهضنا فى هذه الحروب وبادينا أهلها[1] ، ولا رأى الناس رأيا أضرّ على عدوك ، ولا أسرّ لوليّك مِنْ هذا الأمر الذى ألهمتَه ، فامضِ رأيَك مسدّدا ؛ فقد وَجَّهْتَ الصّليب الأريب الناصح غير الظَّنِين والسلام .

***

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « ونادينا »

فلما جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحضرمىّ ـ وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمرُه بالشخوص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه ـ فقال: يابنَ الحضرمىّ، سرْ على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل فى مُضَر، واحذَرْ ربيعة، وتوَدّد الأزْد، وانْعَ ابن عفان، وذكّرهم الوَقْعة التى أهلكتهم، ومَنِّ لمن سمع وأطاع دُنْيا لاتفنى، وأثَرَةً[1] لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده.

فودعه ثم خرج من عنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قدم أن يقرأه على النّاس.

قال عمرو بن محصن: فكنتُ معه حين خرج، فلما خرجْنا سرنا ماشاء الله أن نَسِير، فسنَحَ لنا ظبى أعْضب[2] عن شمائلنا، فنظرت إليه؛ فوالله لرأيتُ الكراهيَة فى وجهه؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة فى بنى تميم، فسمعَ بقُدُومنا أهلُ البصرة؛ فجاءنا كلّ مَنْ يرى رأى عثمان، فاجتمع إلينا رءوس أهلها؛ فحمد الله ابنُ الحضرمىّ وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ أيها الناس؛ فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفّان، قتله علىّ بن أبى طالب ظلماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قتَله، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيرا؛ وقد أصيبَ منكم الملأُ الأخيار؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم؛ لهم بأسٌ يُتّقى، وعدد لا يُحصى؛ فلقوا عدوّكم الذين قتلوكم؛ فبلغوا الغاية التى أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ماطلبوا، فمالئوهم وساعدوهم، وتذكروا ثأرَكم لتَشفوا صدورَكم من عدوّكم.

فقام إليه الضحاك بن عبدالله الهلالىّ، فقال: قَبّح الله ماجئتنا به، وما دعوتنا إليه! جئتنا والله بمثل ماجاء به صاحباك طلحة والزبير؛ أتيانا وقد بايعْنا عليا، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوَانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزُخرف القول؛ حتى ضربْنا بعضَنا ببعض عُدواناً وظُلما؛ فاقتتلنا على ذلك، وايمُ الله، ما سلِمْنا من عظيم وبال

---

(١) فى اللسان: «فلان أثير عند فلان، وذو أثرة، إذا كان خاصا».

(٢) الأعضب: مكسور أحد القرنين؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمعون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذى أقال العَثْرة ، وعفا عن المسىء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاويةُ أميرا ، وتكون له وزيرا، ونعدِل بهذا الأمر عن علىّ ! والله لَيومٌ من أيام علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا فى الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن خازم السُّلَمِىّ ، فقال للضحاك : اسكت ؛ فلست بأهلٍ أنْ تتكلم فى أمرِ العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمىّ ، فقال : نحن يدُكَ وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضّحاك لابن خازم : يابن السوداء ؛ والله لايعزّ من نصرت ، ولا يذِلّ بخذلانك مَنْ خذلت ؛ فتشاتما .

* * *

قال صاحب كتاب الغارات : والضحاك هذا هو الذى يقول :

يـٰأيّهذَا السائِلى عن نَسَبِى بين ثقيفٍ وهلال منصبِى

* أُمّىَ أسماء وضَحّاكٌ أبى *

قال : وهو القائل فى بنى العباس :

مَا وَلَدَتْ من ناقة لفحلِ فى جَبَلٍ نعلمُه وَسَهْلِ

كستة مِنْ بَطْن أم الفضلِ أكْرِمْ بهامن كَهْلَةٍ وكَهْلِ

عمّ النبىّ المصطفى ذى الفضلِ وخاتم الأنبياء بعد الرُّسْلِ

قال : فقام عبدُ الرحمن بن عمير بن عثمان القرشىّ ثم التيمىّ ، فقال : عباد الله ؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفُرْقة ، ولا نريد أنْ تقتتلوا ولاتتنابزوا ؛ ولكنا إنّما ندعوكم إلى أنْ تجمَعُوا كلمتكم ، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأنْ تلمُّوا شعَثكم

وتُصلِحوا ذاتَ بينكم ؛ فمهلا مهلا ! رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب، وأطيعوا الذى يقرأ عليكم .

ففضوا كتابَ معاوية وإذا فيه : مِنْ عبدالله معاوية أمير المؤمنين ، إلى من قرئ كتاب هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم . أما بعدُ، فإنّ سَفْكَ الدماء بغيرِ حلّها، وقتل النفوس التى حَرّم الله قتلها هلاكٌ موبق ، وخسران مبين ؛ لا يقبل الله مِمّن سَفَكها صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وقد رأيتُم رحمكم الله آثار ابن عفّان وسيرتَه ، وحُبّه للعافية ، ومَعْدَلته ،وسَدّه للثغور، وإعطاءه فى الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحُبّه الضعيف ؛ حتى توثّب عليه المتوثبون ؛ وتظاهر عليه الظالمون ، فقتلوه مسلماً محرما ، ظمآن صائما ، لم يسفِكْ فيهم دما ، ولم يقتُلْ منهم أحدا ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتال مَنْ قتله ؛ فإنا وإياكم على أمرِ هُدًى واضح ، وسبيل مستقيم . إنكم إن جامعتمونا طفئت النائرة، واجتمعت الكلمة ، واستقام أمرُ هذه الأمة ، وأقرّ الظالمون المتوثبون الذين قَتَلوا إمامهم بغير حق ، فأخِذُوا بجرائرهم وما قدّمت أيديهم . إنّ لكم أنْ أعمَل فيكم بالكتاب ، وأنْ أعطيَكم فى السَّنَة عطاءيْن ، ولا أحتمل فضلًا من فيئكم عنكم أبدًا . فسارعوا إلى ما تُدْعون إليه رحمكم الله ! وقد بعثتُ إليكم رجلًا من الصالحين؛ كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ؛ جعلنا الله وإياكم ممّن يجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنكِر الباطل ويجْحَده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قُرِئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علىّ ، عن أبى زهير ، عن أبى مِنْقر الشيبانىّ ، قال :قال الأحنف لما قرئ عليهم كتاب معاوية : أمّا أنا فلا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمَل . واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرجوم ، من عبدالقيس : أيّها الناس ، الزموا طاعتَكم ، ولاتنكثُوا بيعتَكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقيّة ؛ ألَا إنّى قد نصحتُ لكم ؛ ولكن لا تحبون الناصحين .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف ، عن الأسود بن قيس، عن ثعلبة بن عبّاد ، أن الذى كان سَدَّدَ لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرمىّ كتاب كتبه إليه عبّاس بن ضحّاك العبدىّ ، وهو ممن كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومَه فى حبهم عليًّا عليه السلام ونصرتِهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد، فقد بلغنا وقعتُك بأهلِ مصر؛ الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتَهم طَمَعاً وبَغْيا ، فقرّت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ وبردت أفئدة أقوامٍ كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوّه مفارقين ؛ ولكم موالين ، وبك راضين ؛ فإن رَأيتَ أن تبعثَ إلينا أميراً طيبا ذكيا ذَا عَفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت ؛ فإنى لاأخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وإن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمتُ رأياً سوى ما كتب به إلىّ هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابَك ، فعرفت نصيحتَك ، وقَبِلت مشورتك ، رحمك الله وسددك ، اثبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاك، وكأنّك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحبيت ؛ والسلام .

* * *

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، قال: حدثنى على بن أبى سيف عن أبى زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمىّ فى بنى تميم أرسل إلى الرءوس فأتوه ، فقال لهم : أجيبونى إلى الحقّ ، وانصرونى على هذا الأمر .

قال : وإنّ الأميرَ بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علىّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبى بكر ، قال : فقام إليه ابن ضَحّاك ، فقال : إى والذى له أسعى ، وإياه أخشى ، لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا .

وقام المثنّى بن مخرمة العبدىّ فقال : لا والذى لا إله إلا هو ، لئن لم ترجع إلى مكانك الذى أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا ، ونبالنا وأسنّة رماحنا . نحن نَدَع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل فى طاعة حزب من الأحزاب طاغ ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسيّر كتيبة ، ونفلّق السيوف بالهام .

فأقبل ابنُ الحضرمىّ على صَبْرة بن شَيْمان[1] الأزدىّ فقال : ياصَبْرة ، أنت رأسُ قومك ، وعظيمٌ من عظماء العرب ، وأحد الطَّلَبة بدم عثمان ، رأينا رأيُك ، ورأيُك رأيُنا ، وبلاء القوم عندك فى نفسك وعشيرتك ماقد ذقت ورأيت ، فانصرنى وكُنْ من دونى . فقال له : إن أنت أتيتَنى فنزلت فى دارى نصرتُك ومنعتك . فقال : إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرَنى أنْ أنزل فى قومه من مُضر ، فقال : اتّبع ماأمرَك به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناسُ إلى ابن الحضْرمىّ ، وكثر تَبَعُهُ ، ففزع لذلك زياد وهَالَهُ وهو فى دار الإمارة ، فبعث إلى الحُضَين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع ، فدعاهما ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصارُ أمير المؤمنين وشيعتُه وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيرونى حتى يأتيَنى أمْرُ أمير المؤمنين ورأيُه .

فأما مالك بن مسمع ، فقال : هذا أمر فيه نَظَر ، أرجع إلى مَنْ ورائى ، وأنظر وأستشير فى ذلك .

وأمّا الحضين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذُلَك ولن نُسلِمك .

---

(١) ب : « سليمان » ، تحريف .

فلم يرَ زياد من القوم مايطمئنّ إليه ، فبعث إلى صَبْرة بن شَيْمان الأزدىّ ، فقال : يابن شَيمان ، أنت سيدُ قومك ، وأحد عظماء هذا المِصْر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم أهله فأنت ذاك ؛ أفلا تجيرنى وتمنعُنى ، وتمنع بيتَ مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه . فقال : بَلى ، إن تحمّلت حتى تنزِل فى دارى منعتُك ، فقال : إنى فاعل .

فارتحل ليلا حتى نزل دار صَبْرة بن شَيْمان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس — ولم يكن معاوية ادّعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة علىّ عليه السلام :

للأمير[1] عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمىّ أقبل مِنْ قِبَل معاوية حتى نزل فى بنى تميم ، ونَعى ابنَ عفّان ، ودعا إلى حرب ، فبايَعه جُلُّ أهلِ البصرة ، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزْد ، بصَبْرَة بن شَيْمان وقومِه لنفسى ولبيت مال المسلمين ، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإنّ الأزْد معى ، وشيعة أمير المؤمنين مِن فُرسان القبائل تختلف إلىّ وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمىّ ؛ والقصر خالٍ منّا ومنهم ، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، لِيَرَى فيه رأيه ، وأعجِل إلىّ بالذى تَرى أن يكون منه فيه . والسلام عليك وَرحمة الله وبركاته .

قال : فرفع ذلك ابنُ عباس إلى علىّ عليه السلام ، وشاع فى الناس بالكوفة ما كان من ذلك ، وكانتْ بنو تميم وقيس ، ومَنْ يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابن الحضرمىّ أن يسير إلى قصر الإمارة حين خَلّاه زياد ، فلما تهيّأ لذلك ودعا أصحابَه ، ركبت الأزد ، وبعثت إليه وإليهم : إنا والله لا نَدَعكم تأتونَ القصر فتُنزلون فيه مَنْ لا نَرْضَى ، ومَنْ نحن له كارهون ؛ حتى يأتى رَجل لنا ولكم رضا ، فأبى أصحابُ ابن الحضرمىّ إلا أنْ يسيروا إلى القصر ، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم . فركب الأحنف ، فقال لأصحاب ابنِ الحضرمىّ : إنكم والله

(١) ب : « للأمين » .

ما أنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمّروا عليهم مَنْ يكرهونه ، فانصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزد ، فقال : إنه لم يكن ما تكرهون ، ولا يُؤتَى إلّا ما تحبّون ؛ فانصرفوا رحمكم الله ، ففعلوا .

***

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبى سيف ، عن الكلبىّ ، أنّ ابن الحضرمىّ لما أتى البصرة ، ودخلها نزل فى بنى تميم فى دار سنبيل[1] ، ودعا بنى تميم وأخلاط مُضَر ، فقال زياد لأبى الأسود الدؤلىّ : أما ترى ما صَغَى[2] أهلُ البصرة إلى معاوية ؟ وما فى الأزْد لى مطمع ؛ فقال : إن كنتَ تركتهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زيادٌ من ليلته ، فأتى صَبْرة بن شَيْمان الحُدانىّ الأزدىّ ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : يا زياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعدّ له منبرا وسريرا فى مسجد الحُدّان ، وجعل له شُرَطاً ، وصلى بهم الجمعة فى مسجد الحُدّان .

وغلب ابنُ الحضرمىّ على ما يليه من البصرة وجَباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأزد ، إنكم كنتم أعدائِى فأصبحتم أوليائِى ، وأوْلى الناس بى . وإنى لو كنت فى بنى تميم وابنُ الحضرمىّ فيكم لم أطمعْ فيه أبدا وأنتم دونه ، فلا يطمع ابنُ الحضرمىّ فىّ وأنتم دونى ، وليس ابنُ آكلةِ الأكباد فى بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدْنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين فى المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤدّاة ، وقد رأينا وقْعتَكم يوم الجمل ، فاصبِروا مع الحقّ صبرَكم مع الباطل ؛ فإنكم لا تُحْمَدون إلا على النجدة ، ولا تُعْذَرون على الجبن .

فقام شَيْمان أبو صبرة — ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا — فقال : يامعشرَ الأزد ،

(١) فى الأصول : « سبيل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى ٥ : ١١٢ .

(٢) ب : « صغو أهل البصرة » .

ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علىّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ ، وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حىٌّ مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ؛ فإن سار القوم بصاحبهم فسيرُوا بصاحبكم ، وإن استمدُّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وَادَعُوكم فوادِعُوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يا معشر الأزْد ، إنا قلنا يومَ الجمل : نمنع مِصْرنا ، ونطيع أمّنا ، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجدّدْنا فى القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِل منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من علىّ ما نخاف من معاوية ، فهَبُوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلِغوه مأمنه .

فقالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجيروه . فضحك زياد ، وقال : ياصبرة ، أتخشون ألاّ تقوموا لبنى تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبى صَبْرة ، [1] وإن جاءونا بالحباب جئت أنا ؛ وإن كان فيهم شباب كثير [1] . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزدَ قد قامت دون زياد بعثتْ إليهم : أخرجوا صاحبَكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأىّ الأميرين غَلَب ـ علىّ أو معاوية ـ دخلنا فى طاعته ، ولا نهلِك عامّتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنما كان هذا يُرْجى عندنا قبل أن نجيره ، ولعمرى ما قَتْل زياد وإخراجه إلا سواء ؛ وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجِرْه إلا كرما ، فالهوا عن هذا .

***

قال : وروى أبو الكنود أنّ شَبث بن رِبعىّ قال لعلىّ عليه السلام : ياأميرالمؤمنين ، ابعث إلى هذا الحىّ من تميم ، فادْعُهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلّط عليهم أزْدَعُمان البُعداء البُغضاء ؛ فإن واحدا من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم .

(١ ـ ١) كذا فى الأصول ، وفى العبارة غموض .

فقـال له مِخْنَف بن سليم الأزدىّ : إن البعيـد البغيض ، من عَصَى الله وخالف أمير المؤمنين ، وهم قومك ، وإن الحبيب القريب مَنْ أطاع الله ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومى ، واحدُهم خيرٌ لأمير المؤمنين من عشرة من قومك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه ! تناهوْا أيها الناس، وليردَعْـكم الإسلام ووقارُه عن التباغى والتّهاذى ، ولتجتمِـعْ كلمتكم ، والزَموا دينَ الله الذى لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجـة الله على الـكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرّقين ، فألّف بينكم بالإسلام فـكثُرتم ، واجتمعتم وتحاببتم . فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النّائرة[1] وقد تداعَوا إلى العشائر والقبائل؛ فاقصِدوا لهامهم ووجوههم بالسّيف حتى يفزَعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيّه ؛ فأمّا تلك الحميّة من خَطَرات الشياطين فانتهوا عنها ، لا أبا لـكم تفلحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أعْيَن بن ضُبَيعة المجاشعىّ ، وقال : يا أعْيَن ، ألم يبلغك أن قومَك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمىّ بالبصرة ، يَدْعُون إلى فراق وشقاق ويساعدون الضُّلاّل القاسطين علىّ !

فقال : لا تُسَأْ يا أمير المؤمنين ، ولا يكن ماتـكره . ابعثنى إليهم ؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ، ونَفْىِ ابن الحضرمىّ من البصرة أو قتله .

قال : فاخرج الساعة .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

---

(١) النائرة : الفتنة .

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

* * *

وروى الواقدى أن عليا عليه السلام،استنفرَ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصْرة مَنْ يكفيه أمرَ ابن الحضرمىّ ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بهـا ، فلم يُجِبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العجَب أن ينصرَنى الأزد ، وتخذُلَنى مضر ا وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الكوفة بى ، وخلاف تميم البَصْرة علىّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت وإلّا فالمنابذة والحرب . فـكأنى أخاطبُ صُماً بُـكماً لايفقهون حِواراً ، ولايجيبون نداء ؛ كلُّ هذا جبناً عن البأس،وحُبًّا للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صـلى الله عليـه وآله نقتُل آباءنا وأبنـاءنا . . . . . . الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن ضُبَيْعة المجاشعىّ ، فقال : أنا ـ إنْ شاء الله ـ أ كفيك ياأمير المؤمنين هذا الخطْب، وأتـكفَّلُ لك بقتل ابن الحضرمىّ ، أو إخراجه عن البصرة. فأمره بالتّهَيُّؤِ للشخوص ؛ فشَخَص حتى قدم البصرة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخلَ على زياد وهو بالأزْد مقيم،فرحّب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له علىّ عليه السلام ، وما رَدّ عليه ، وما الذى عليه رأيه ؛ فإنه إذ يكلّمه جاءه كتاب من علىّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد :

سلام عليك ، أما بعـد ؛ فإنى قد بعثت أعْين بن ضُبيعة ، ليفرّق قومَه عن ابن الحضرمىّ ، فارقُبْ ما يكون منه ؛ فإن فعل وبلغ من ذلك مايظنّ به ، وكان فى ذلك تفريق تلك الأوباش فهو مانحبّ ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فانبذْ بمن[1] أطاعك إلى مَنْ عصاك ؛ فجاهدْهم ، فإن ظهرتَ فهو ماظننت ، وإلّا فطاوِلْهم وماطِلْهم ؛ فكأنْ كتائب المسلمين قد أطلّت عليك ، فقتَل الله المفسدين الظالمين ؛ ونصر المؤمنين المحقّين ، والسلام .

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضُبَيعة ، فقال له : إنى لأرجو أن يُكفَى هذا الأمر إن شاء الله . ثم خرج من عنده ؛ فأتى رَحْله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ياقوم ،على ماذا تقتلون أنفسكم ، وتُهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ! وإنى والله ماجئتُكم حتّى عَبّيْت إليكم الجنود ؛ فإن تُنيبوا إلى الحقّ يقبل منكم ، ويكفّ عنكم ؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبَوَارُكم .

فقالوا : بل نسمع ونطيع . فقال : انهضوا الآن على بركة الله عزّ وجل . فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمىّ ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمىّ فصافّوه وواقفهم[2] عامة يومه يُناشدهم الله ، ويقول : ياقوم لا تنكثُوا بَيْعتكم ، ولا تخالفوا إمامَكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ؛ فقد رأيتم وجرّبتم كيفَ صنع الله بكم عند نَكْثكم بيعتكم وخلافِكم . . فكفّوا عنه ، ولم يكن بينه و بينهم قتال ؛ وهم فى ذلك يشتمونه وينالون منه ، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف . فلما أوى إلى رحله تَبعه عشرة نفر يظنّ الناس أنّهم خوارج ، فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه ، ولا يظن أنّ الذى كان يكون ، فخرج يشتدّ عُريانا ، فلحقوه فى الطريق فقتلوه ، فأراد زياد أن يناهضَ ابنَ الحضرمى حين قتل أعين بجماعة مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة علىّ عليه السلام ، فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله ماعرضْنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا لمالٍ هُوَ لَهُ ، ولا لأحدٍ ليس على رأينا ؛ فما تريدون

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « من » .

(٢) صافوه ؛ أى وقفوا صفوفا ويقال : واقفه فى الحرب ؛ أى وقف كل منهما مع الآخر .

إلى حَرْبنا وإلى جارنا ! فـكأنّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم .

فـكتب زياد إلى علىّ عليه السلام : أما بعد ياأميرَ المؤمنين ، فإن أعْيَن بن ضُبيعـة قدِم علينا مِنْ قِبَلك بجدّ ومناصحة وصدق ويقين ، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته ، فحثهم على الطاعة والجماعة، وحذّرهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمَنْ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه ، فواقفهم عامّة النهار ، فهالَ أهلَ الخلاف تقدُّمُه ، وتصدّع عن ابن الحضرمىّ كثير ممَّنْ كان يريد نُصرته ، فـكان كذلك حتى أمسى ، فأتى فى رَحْله فبيَّتته نفر من هذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردتُ أنْ أناهضَ ابنَ الحضرمى عند ذلك، فحدث أمرٌ ، قد أمرتُ صاحب كتابى هذا أن يذكره لأمير المؤمنين، وقد رأيتُ إنْ رأى أميرُ المؤمنين مارأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قُدامـة ، فإنه نافذ البصيرة ، ومطاع فى العشيرة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنْ يقدُم يفرِّق بينهم بإذن الله . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما جاء الـكتاب ، دعا جارية بن قُدامة ، فقال له : بابنَ قدامة ، تمنع الأزد عاملى وبيت مالى ، وتشاقّنى مضر وتنابذنى ! وبنا ابتدأها الله تعالى بالـكرامة ، وعرّفها الهدى ، وتداعَوْا إلى المعشر الذينَ حادّوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علَتْ كلمة الله ، وهلك الـكافرون .

فقال : ياأمير المؤمنين ، ابعثنى إليهم ، واستَعِنْ بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم ، واستعنت بالله عليهم .

***

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثنى ابنُ أبى السيف ، عن سليمان ابن أبى راشد ، عن كعب بن قُعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الـكوفة إلى البَصْرة

فى خمسين رجلا من بنى تميم ، ما كان فيهم يمانىٌّ غيرى ، وكنتُ شديدَ التشيُّع ، فقلت لجارية : إن شئتَ كنتُ معك ، وإن شئتَ ملتُ إلى قومى ! فقال : بل معى ؛ فوالله لوَدِدْت أنّ الطير والبهائم تنصرُنى عليهم ، فضلا عن الإنس .

***

قال : وروى كعب بن قعين أنّ عليًّا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه عَلَى أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلمادخلْنا البصرة ، بدأ بزياد ، فرحّب به وأجلَسه إلى جانبه ، وناجاه ساعة وساءلَهُ ، ثم خرج فكان أفضل ماأوصاه به أنْ قال : احذَرْ على نفسك ، واتَّقِ أن تَلْقَى مالقِيَ صاحبُكَ القادمُ قَبْلَك .

وخرج جارية من عنده ، فقام فى الأزد ، فقال : جزاكم الله من حَىّ خيرا ! ماأعظَم غَناءكم ، وأحسنَ بلاءكم ، وأطوَعكم لأميركم ! لقد عرفتم الحقّ إذ ضَيّعه مَنْ أنكره ، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه . ثم قرأ عليهم وعلى مَنْ كان معه من شيعة علىٍّ عليه السلام وغيرهم — كتابَ على عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى مَنْ قرئ عليه كتابى هذا من ساكِنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإنّ الله حَليم ذو أناةٍ ، لايَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى بالإنابة ؛ ليكون أعظمَ للحجّة ، وأبلغ فى المعذرة ؛ وقد كان من شقاق جُلّكم أيها الناس مااستحققتم أنْ تعاقَبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم ، ورفعت السَّيْف عن مُدْبركم ، وقبلت من مُقْبلكم ، وأخذت بيعتكم ، فإن تَفُوا ببيْعتى ، وتقبلُوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعملْ

فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق ، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى ، فو الله ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلمُ بذلك منِّى ، ولا أعمل بقولى . أقول قولى هذا صادقاً ، غيرَ ذامّ لمن مضى ، ولا منتقصاً لأعمالهم ، وإن خَبَطَتْ[1] بكم الأهواء المُرْدِية ، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى ، تريدون خِلافى ! فها أنا ذا قرّبْتُ جيادى ، ورَحَلْت ركابى ، وايمُ الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأُوقِعَنّ بكم وَقْعَةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلَعْقَة لاعق ، وإنى لظانّ ألّا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سبيلا . وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتابا ، إن أنتم استغششتم نصيحتى ، ونابذْتُم رسولى ، حتى أكونَ أنا الشّاخص نحوكم ، إن شاء الله تعالى . والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحن لمنْ حارب أمير المؤمنين حَرْب ، ولمن سالم سِلْم ؛ إن كَفَيْتَ ياجارية قومَك بقومك فذاك ، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك .

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

فقام زياد فى الأزد ، فقال :

يا معشر الأزْد ، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلما ، فأصبحوا اليوم حربا ، وإنكم كنتم حَرْبا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتمونى، حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شُرَطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة ، فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم ، لا أجْبيه اليوم ، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غدا إن شاء الله . واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليًّا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله علىّ

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « خطت » .

ليصدَع أمرَ قومه،والله ماهو بالأمير المطاع،ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لـكان لى تبعاً ، وأنتم الهامةُ العظمى ، والجرة [١] الحامية ، فقدِّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة شَيْمان فقـال : يازياد ، إنى والله لو شهدتُ قومى يومَ الجمل ، رجوتُ ألّا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمرُ بما فيـه . وهو يوم بيوم ، وأمْر بأمر ، واللهُ إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيِّء ، والتوبة مع الحقّ ، والعفْو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعوْنا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولـكنها جماعة دماؤها حرام ، وجرُوحها قصاص ، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ .

فعجب زياد من كلامه ، وقال : ما أظنُّ فى الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أُصِبْنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أُصِبْنا أمس يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأمّا أنْتَ يازياد ، فوالله ما أدركت أمَلك فينا ، ولا أدركْنا أملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك ، ونحن رادّوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أوْلَى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت مايشبهك [٢] ، وإنا والله نخاف من حرب علىّ فى الآخرة ، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا ، فقدّم هواك وأخِّر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنقُر [٣] الحمانىّ ، فقال:أيُّها الأمير،إنّك لو رضيتَ مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا،سِرْ بنا إلى القوم إن شئت،وايمُ الله مالقينا قوماً [٤] قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا ؛ إلا ما كان أمس .

---

(١) الجرة : كل جماعة انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم .

(٢) ج : « تشبهه » .

(٣) كذا فى ب ، وفى ج : « حيقن » .

(٤) ب : « يوما » .

قال إبراهيم : فأمّا جارية، فإنّه كلّم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباشٌ[١] فناوشوه بعد أنْ شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزْد ، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزْد بزياد ، وخرج إليهم ابنُ الحضرميّ ، وعلى خيله عبد الله بن خازم السُّلميّ ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثيّ — وكان من شيعة علىّ عليــه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة — فقال : ألا أقاتل معك عدوّك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدى ؛ فحصروا ابنَ الحضرميّ وحدّوه ، فأتى رجل من بنى تميم ، ومعه عبد الله بن خازم السلميّ ، فجاءت أمه وهى سوداء حبشية اسمها عجلى ، فنادته ، فأشرف عليها ، فقالت : يا بُنىّ ، انزل إلىّ ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها ، وسألته النزول فأبى ، فقالت : والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ ، وأهوت بيدها إلى ثيابها[٢] ، فلما رأى ذلك نزَل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدّار ، وقال جارية : علىّ بالنار ، فقالت الأزد : لسنا من الحريق بالنار فى شىء ؛ وهم قومُك وأنت أعلم ، فحرّق جارية الدّار عليهم ، فهلك ابنُ الحضرميّ فى سبعين رجلا ؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التّيمىّ ؛ وسُمِّىَ جارية منــذ ذلك اليوم محرِّقا ؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال ، وقالت له : هل بقى علينا مِنْ جوارك شىء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرّئنا منــه ؟ فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنــه . وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك ، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن نصره وأعانه من الأزد ، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه ، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من أُلقِى عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتِل بالسيف ، وسلم

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة من الناس .
(٢) ا ، ب : « ساقها » .

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصفح عنهم ، وبعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه علىّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيان بن عُمارة ، فسرّ على عليه السلام بذلك وسُرّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزد ، وذمّ البصرة فقال : إنها أول القُرى خرابا ؛ إما غرقا وإما حرقا ؛ حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة . ثم قال لظَبْيان : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزدىّ يذكر تحريق ابن الحضرمىّ ، ويعيِّر تميما بذلك :

رَدَدْنا زيــاداً إلى دَارِهِ ... وجار تميم ينادى الشَّجَبْ [1]

لحا الله قوماً شَوَوْا جــارهم ... لَعَمْرِى لبئس الشُّواء الشُّصُبْ [2]

ينادى الخناق وأبنــــاءها ... وقد شَيَّطُوا رأسَها باللَّهَبْ

والخناق لقب قوم بنى تميم .

---

(١) الشجب : الهـلاك

(٢) الشصب : الشاة المسلوخة .

ومن كلام له عليه السلام لأصحابه :

الأصْلُ :

أما إنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى رَجلٌ رَحْبُ البُلْعُوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يأكُلُ مَا يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مَالَا يَجِدُ ، فَاقْتُلُوه ـ وَلَنْ تَقْتُلُوه . أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بسبِّى والبَرَاءةِ مِنِّى ؛ فأمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِى ؛ فإنَّهُ لِى زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجاةٌ ، وَأَمَّا البَرَاءَةُ فَلَا تَتَبرَّءُوا مِنِّى ؛ فإنِى وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إِلى الْإِيمانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّرْحُ :

مُنْدَحِق البطن : بارزها ، والدَّحُوق من النوق : التى يخرج رَحِمها عند[1] الولادة . وسيظهر : سيغلب . ورحْب البُلعوم : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنَى زيادا ، وكثير منهم يقول : إنّه عَنَى الحجّاج . وقال قوم : إنه عَنَى المغيرة بن شعبة ؛ والأشبه عندى أنه عَنَى معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنَّهَم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعُد بطنُه إذا جلس على فَخِذَيه ، وكان معاوية جواداً بالمال والصِّلات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيًّا على طعامه ، وقد قُدِّم بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابىّ فى أكله ، فقال له : ماذنبه إليك ، أنطحك أبوه ؟ فقال الأعرابىّ : وما حُنُوُّك عليه ؟ أأرضعتْك أمه !

وقال لأعرابىّ يأكلُ بين يديه ، وقد استعظم أكله : ألا أبغيك سِكّينا ؟ فقال :

---

(١) ج : « بعد » .

كلّ امرىء سِكِّينُه في رَأْسِه ، فقال : ما اسْمُك ؟ قال : لُقيم ، قال : منها أُتيت .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفعوا ، فوالله ما شبعت ولكن مَلِلْت وتعبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله دَعَا عَلَى معاوية لَمّا بعث إليه يستدعيه ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لا تُشْبِع بطنه » ، قال الشاعر :

وَصَاحِبٍ لِي بَطْنُهُ كَالْهَاوِيَهْ   كَأَنَّ فِي أَحْشَائِهِ مُعَاوِيَهْ

* * *

وفى هذا الفصل مسائل :

الأولى : فى تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافيَ بين الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أنّ أبا لَهب لايؤمن وأمَره بالإيمان ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾[2] ، وأكثر التكليفات على هذا المِنْهاج .

* * *

[مسألة كلامية فى الأمر بالشيء مع العلم بأنه لا يقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا فى أنه تعالى قَدْ يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصحّ أن يريدَ مايعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع؟ فقال أصحابنا: يصحّ ذلك ، وقال المجبرة : لا يصحّ ؛ لأنّ إرادة مايعلم المريد أنه لايقع قضية متناقضة ، لأن تحت قولنا: «أراد» مفهوم أنّ ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأنّ إرادة المحال ممتنعة . وتحت قولنا : «إنه يعلم أنه لايقع» مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله ، لأنا قد

(١) سورة البقرة ٩٥ .   (٢) سورة الجمعة ٧ .

فرضنا أنه لا يقع وما لايقع لا يمكن حصولُه مع فرض كونه لايقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم فى الأمر ؛ لأنكم قد أجزتم أنْ يأمرَ بما يعلم أنّه لا يقع ، فقالوا فى الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ، كان ذلك الأمر أمراً عاريا عن الإرادة ، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع ، وها هنا لا إرادة .

فقيل لهم : هب أنكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يَعْرَى من الإرادة مع كونه أمرا ، ألستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شىء آخر غير الإرادة ! وتقولون: إن ذلك الطلب قائم بذات البارئ ، فنحن نُلزِمكم فى الطلب القائم بذات البارئ ، الذى لا يجوز أن يَعْرَى[1] الأمر منه ما ألزمتمونا فى الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب مايعلم أنّه لايقع ! أليس تحت قولنا: طلب مفهوم؛ أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال فى الطلب كالحال فى الإرادة ، حَذْو النّعل بالنعل . ولنا فى هذا الموضع أبحاث دقيقة ذكرناها فى كتبنا الكلامية .

***

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلىّ]

المسألة الثانية : فى قوله عليه السلام : «يأمركم بسبّى والبراءة منى» ، فنقول : إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ علىّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أمية إلى أنْ قام عمر ابن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبة الجمعة : اللهم إنّ أبا تراب ألْحَد فى دينك ، وصدّ عن سبيلك

---

(١) ا : « يتعرى » .

فالعنه لعنا وبيلا ، وعذبه عذابا أليما . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشاربها على المنابر ؛ إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، فقام إليه إنسان ، فقال: ياأمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبى تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد فى ‹‹ الكامل ›› أن خالد بن عبد الله القسرىّ لمّا كان أمير العراق فى خلافة هشام ، كان يلعن عليّا عليه السلام على المِنْبر ، فيقول : اللهمّ الْعن علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول هل كَنَّيت[1] !

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بنى أميّة قالوا لمعاوية : ياأمير المؤمنين ، إنك قد بلغتَ ماأمّلت ، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربوَ عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلا !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك — مع فَضْله وأناته وسَدَاده ورُجْحانه — ممن يخفى عليه فضلُ علىّ عليه السلام ، وأنّ لعنه على رءوس الأشهاد ، وفى أعطاف الخطب ، وعلى صَهَوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، ويرجع إليه وهنه ؛ لأنهما جميعا من بنى عبد مناف ؛ والأصل واحد ، والجرثومة منبت لهما ، وشرف علىّ عليه السلام وفضله عائد عليه ، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر فى أنفُس الناس أنّ بنى هاشم لا حَظّ لهم فى هذا الأمر ، وأنّ سيّدَهم الذى به يصولون ، وبفخره يفخرون ،

---

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوروبا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمي إليه ويُدْلِي به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشْحَط وأنزَحَ .

وروى أهل السِّيرة أن الوليد بن عبد الملك فى خلافته ذكر عليا عليه السلام ،فقال : لعنه « اللهِ ـ بالجر ـ كان لص ابن لص » .

فعجب النـاس من لَحْنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومِنْ نسبته عليـا عليه السلام إلى اللصوصّية وقالوا : ماندرى أيّهما أعجب ! وكان الوليد لحّانا .

وأمر المغيرة بن شعبة ـ وهو يومئذ أمير الـكوفة مِنْ قِبَل معاوية ـ حُجْر بن عدىّ أن يقوم فى الناس ، فليلعنَ عليا عليه السلام ، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال : أيّهـا الناس ، إن أميركم أمرنى أن ألعن عليا فالعنوه فقال أهل الـكوفة : لعنه الله ، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يَعْرِض أهلَ الـكوفة أجمعين على البراءة من علىّ عليه السلام ولعنه وأن يقتُلَ كلّ من امتنع من ذلك ، ويُخرِّب منزله ، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام ، وذلك فى خلافة معاوية .

وكان الحجاج ـ لعنه اللهـ يلعنُ عليًّا عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرّض به يوماوهو راكب : أيها الأمير ، إن أهلِي عَقّونى فسمّونى عليا ، فغيِّر اسمى ، وصِلْنى بماأتبلّغ به فإنى فقير . فقال : لِلُطف ماتوصلت به قد سمّيتُك كذا ، ووليتك العمل الفلانىّ فاشْخَصْ إليه .

***

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود ، فمرّ بى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعنُ عليًّـا ،

فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردى ، فلما رآنى قام فصلّى وأطالَ فى الصلاة ـ شِبْه المعرِض عَنّى ـ حتى أحسست منه بذلك ، فلما انفتل من صلاته كَلَح فى وجْهى ، فقلت له : مابال الشيخ ؟ فقال لى : يابنىّ ، أنت اللاعن عَليًّا منذ اليوم ؟ قلت : نعم ، قال: فمتى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر بعد أن رَضِىَ عنهم! فقلت : يا أبت ، وهل كان علىّ من أهل بدر ! فقال : ويحك ! وهل كانت بدر كلُّها إلا له ! فقلت: لا أعود ، فقال : اللهَ أنك لاتعود ! قلت : نعم فلم ألعنه بعدها . ثم كنتُ أحضر تحت منبر المدينة ، وأبى يخطب يوم الجمعة ـ وهو حينئذ أمير المدينة ـ فكنت أسمع أبى يمر فى خُطَبِه تهدِر شقاشقه، حتى يأتىَ إلى لعن علىّ عليه السلام فيجمْجِمُ، ويعرِض له من الفهاهة والحصَر ماالله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوما : ياأبتِ ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم ، فما بالِى أراك أفصحَ خطيب يوم حَفْلك ، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل، صِرْتَ ألكن عَيِيًّا ! فقال : يابنىّ ، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم ، لو علموا من فضل هذا الرجل مايعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمتُه فى صدرى ؛ مع ما كان قاله لى معلمى أيام صِغَرى ، فأعطيت الله عهدا ؛ لئن كان لى فى هذا الأمر نصيب لأغيِّرنه ، فلما منّ الله علىّ بالخلافة أسقطت ذلك ، وجعلت مكانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] ، وكتب به إلى الآفاق فصار سنّة .

وقال كثيّر بن عبد الرحمن يمدح عُمرَ ويذكر قطعه السبَّ :

وَليتَ فلم تشتِم عليًّا ولم تُخِفْ ... بريًّا ولم تقبَلْ إساءةَ مُجرِم [2]

وكفّرت بالعفو الذنوب مع الذى ... أتيتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلِم

---

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغانى ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية .

ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه من الأوَدِ البادى ثِقافُ المقوّمِ
وما زلتَ توّاقا إلى كلّ غايةٍ بلغتَ بها أعلَى العَلاء المُقدَّمِ
فلما أتاكَ الأمر عَفواً ولم يكنْ لطالبِ دنيا بَعْدَهُ مِنْ تكلّمِ
تركتَ الذى يَفْنَى لأنْ كانَ بائدا وآثرتَ ما يَبْقَى برأيٍ مصمّمِ

وقال الرضيّ أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يَابْنَ عَبْدِالْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْـنُ فَتًى مِنْ أُمَيَّـةٍ لَبَكَيْتكْ (١)
غيرَ أنى أقول إنكَ قَدْ طِبْـتَ وإن لم يَطِبْ ولَمْ يَزْكُ بيتكْ
أنتَ نزّهتَنا عن السبّ والقَذْ فِ ؛ فلو أمكنَ الجزاء جَزَيْتكْ
ولو أنّى رأيت قبرك لاستَحـيَيْتُ مِنْ أن أرَى وَمَا حَيَّيْتُكْ
وقليلٌ أنْ لو بَذَلْتُ دِماءَ البُدن صِرْفًا على الذُّرا وَسَقَيْتُكْ
دَيْرَ سَمْعان : فيك مأوىأبى حفـص بودّى لو أننى آويتكْ
دَيْرَ سَمْعَانَ ، لا أغبّك غيثٌ خَيْرُ مَيْتٍ من آل مَرْوَانَ مَيْتُكْ (٢)
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي إنْ تدانيتُ مِنْكَ أو إنْ نأيتكْ
وإذا حرّكَ الحشا خاطرٌ منـكَ توهّمْتُ أنّنِي قد رأيتكْ
وعجيب أنى قَلَيْتُ بَنِي مَرْ وانَ طُرًّا وأنّنِي ما قليتكْ
قرّب العدلُ منك لما نأى الجوْ رُ بهم فاجتويتُهمْ واجْتَبيتكْ
فَلَوَ أنّى ملكتُ دفعـا لمانا بك من طارقِ الردى لَفَدَيْتُكْ

* * *

(١) ديوانه لوحة ١٢٤
(٢) دير سمعان ، بكسر السين وفتحها ؛ دير بنواحي دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزيز. (ياقوت)

وروى ابن الكلبيّ ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوما لعبد الله بن هانىء ، وهو رجل من بنى أَوْد ـ حيّ من قَحْطان ـ وكان شريفا فى قومه ، قد شهد مع الحجاج مشاهده كلّها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأتك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيّد بنى فزارة : أنْ زَوِّجْ عبد الله بن هانئ بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوّجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهَمْدانيّ رئيس اليمانية : زَوِّج ابنتك من عبد الله بن أَوْد ، فقال : ومَنْ أَوْد ! لا والله لا أزوّجه ولا كرامة ! فقال : علىّ بالسيف ، فقال : دَعْنِى حتى أشاور أهلى ، فشاورهم ، فقالوا : زَوِّجْه ولا تعرِّض نفسك لهذا الفاسق ، فزوّجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوّجْتُك بنت سيّد فزارةَ وبنت سَيّد همدان ، وعظيم كهلان وما أَوْدٌ هناك ! فقال : لا تَقُلْ أصلح الله الأمير ذاك ! فإنّ لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هى ؟ قال : ما سُبّ أمير المؤمنين عبد الملك فى نادٍ لنا قطّ ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، ماشهد منا مع أبى تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امْرَأ سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنّا نسوة نَذَرْن : إن قتل الحسين بن على أنْ تنحر كلّ واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شَتْم أبى تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيْه حسنًا وحسينا وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ؛ قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أما هذه يا أبا هانئ فدعها . وكان عبدُ الله دميا شديد الأُدْمة[1] مجدورا ، فى رأسه عَجَر[2] ، مائل الشِّدق ، أحوَل ، قبيح الوجه ؛ شديد الحوَل .

***

وكان عبد الله بن الزبير يُبْغض عليا عليه السلام ؛ وينتقِصه وينال من عِرْضه .

(١) الأدمة : السمرة .

(٢) عجر ؛ أى نتوء .

وروى عمر بن شبّة وابنُ الكلبيّ والواقديّ وغيرهم من رواة السير ، أنه مكث أيامَ ادّعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلِّى فيها على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يمنعنى من ذِكْره إلا أن تشمَخَ رجال بآنافها .

وفى رواية محمد بن حبيب وأبى عبيدة معمر بن المثنى : أنّ له أُهَيْلَ سوء يُنغِضون رءوسهم عند ذكره .

وروى سعيد بن جُبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس : ما حديثٌ أسمعه عنك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تأنيبى وذّمى ! فقال : إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس المرء المسلم يَشْبَع ويجوعُ جاره » ، فقال ابن الزبير : إنى لأكتُمُ بغضَكم أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة . وذكر تمام الحديث .

وروى عمر بن شبّة أيضا عن سعيد بن جُبير ، قال: خطب عبدُالله بن الزبير ، فنال من علىّ عليه السلام ، فبلغ ذلك محمد بن الحنفيّة ، فجاء إليه وهو يخطُب ، فوضِع له كرسىّ ، فقطع عليه خطبتَه ، وقال : يامعشرَ العرب ، شاهت الوجوه ! أيُنتقصُ علىّ وأنتم حضورا إنّ عليًّا كان يدَ الله على أعداء الله ، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه ، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه ، وأضمروا له الشّنَف[1] والحسد ، وابن عمه صلى الله عليه وسلّم حىّ بعدُ لم يمت ؛ فلما نقله الله إلى جواره ، وأحبّ له ما عنده ، أظهرتْ له رجال أحقادها ، وشفَتْ أضغانها ، فمنهم مَن ابتزّ حقه ، ومنهم من ائتمر به ليقتله ، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل ؛ فإن يكن لذرّيته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم ، وتحفِر على أجسادهم ؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية ، بعد أن تقتل الأحياء منهم ، وتذلّ رقابهم ، فيكون الله عزّ اسمُه قد عذّبَهُم بأيدينا وأخزاهم ؛ ونصرنا عليهم ، وشفَا صدورَنا منهم ؛ إنّه والله ما يشتم عليا إلا كافر يُسِرّ شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به ،

(١) الشنف : البغض ، وفى ب : « السيف » .

فيكنى بشتم علىّ عليه السلام عنه . أما إنّه قد تخطّت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره ، وسمع قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، فعاد ابنُ الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلّمون ؛ فما بالُ ابن أم حنيفة ! فقال محمد : يابن أمّ رُومان[1] ؛ ومالى لا أتكلم ! وهل فاتنى من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتنى فخرها ؛ لأنّها أمّ أخوىّ . أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم ، جدة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، والقائمة مقام أمّه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركتُ فى بنى أسد بن عبد العزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف.

* * *

[فصل فى ذكر الأحاديث الموضوعة فى ذم على]

وذكر شيخُنا أبو جعفر[2] الإسكافىّ رحمه الله تعالى ـ وكان من المتحققين بموالاة علىّ عليه السلام ، والمبالغين فى تفضيله ؛ وإن كان القولُ بالتّفضيل عاما شائعا فى البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أنّ أباجعفر أشدّهم فى ذلك قولاً ، وأخلصهم فيه اعتقادا ـ أنّ معاويةَ وضعَ قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة فى علىّ عليه السلام ، تقتضى الطعنَ فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جُعلا يُرْغَبُ فى مثله ؛ فاختلقوا ما أرضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهرىّ أن عروة بن الزبير حدّثه ، قال : حدثتنى عائشة ، قالت : كنتُ عند

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى ؛ من متكلمى المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن فى العلم والذكاء والصيانة ونبل الهمة والنزاهة ؛ بلغ فى مقدار عمره مالم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع الكرابيسى وغيره . توفى سنة ٢٤٠ ، لسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعلىّ ، فقال : ياعائشة ، إن هذين يموتان على غير ملّتى — أو قال دينى .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عند الزهرىّ حديثان عن عُروة عن عائشة فى علىّ عليه السلام ؛ فسألتُه عنهما يوما ، فقال : ماتصنع بهما وبحديثهما ! الله أعلم بهما ؛ إنّى لأتهمهما فى بنى هاشم .

قال : فأمّا الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثانى فهو أن عُروة زعم أن عائشة حدثّته ، قالت : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلّم إذ أقبل العباس وعلىّ ، فقال : « ياعائشة ؛ إن سَرّكِ أن تنظرى إلى رجلين من أهل النار فانظرى إلى هذين قد طلعا » ، فنظرت ، فإذا العباس وعلىّ بن أبى طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما مسنداً متصلا بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء إنّما ولِيِّىَ الله وصالح المؤمنين » .

وأمّا أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذى معناه أن عليا عليه السلام خطبَ ابنة أبى جهل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال : لاها الله ! لا تجتمع ابنة ولىّ الله وابنة عدو الله أبى جهل ! إنّ فاطمة بَضعة[1] منى يؤذينى مايؤذيها ؛ فإن كان علىّ يريد ابنةَ أبى جهل فليفارق ابنتى ، وليفعل مايريد » ، أو كلاما هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرابيسىّ .

قلت : هذا الحديث أيضا مخرج فى صحيحى مسلم والبخارى عن المِسْوَر بن مخرَمة الزهرىّ ؛ وقد ذكره المرتضى فى كتابه « المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة » ، وذكر أنه رواية

(١) بضعة ، أى قطعة .

حسين الكرابيسى[1] ، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم والمناصبة لهم ، فلا تقبل روايتُه .

ولشياع هذا الخبر وانتشارِه ذكره مروان بن أبى حفصة فى قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنْحِى عليهم ، ويذمّهم ، وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه السلام ونال منه ، وأولها :

سَلَامٌ على جُمْلٍ ، وهَيْهَاتَ مِنْ جملِ ... ويا حبّذا جملٌ وإن صَرَمَتْ حَبْلِى

يقول فيها :

علىٌّ أبو كُمْ كان أفضلَ منكُمُ ... أباه ذوُو الشورى وكانوا ذَوِى الفَضْلِ

وساء رسولَ الله إذ ساء بنتَه ... بخِطْبته بنتَ اللعين أبى جهلِ

فذمّ رسول الله صهر أبيكُمُ ... على مِنْبَرٍ بالنطق الصادع المُضْلِ

وحكّم فيهـا حاكمين أبو كُمُ ... هما خلعاه خَلْعَ ذِى النَّعْلِ للنعلِ

وقد باعهـا من بعده الحسنُ ابنُه ... فقد أُبطلت دعوا كُمُ الرثّةُ الحبْلِ

وخَلّيتُموها وهى فى غيرِ أهلها ... وطالبتُموها حين صارتْ إلى أهلِ

وقد رُوِى هذا الخبر على وجوه مختلفة ، وفيه زيادات متفاوتة ؛ فمن الناس من يروى فيه : « مهما ذممنا من صهرٍ فإنا لم نذمّ صهر أبى العاص بن الربيع » ، ومن الناس من يروى فيه : « ألا إن بنى المغيرة أرسلوا إلى علىّ ليزوجوه كريمتهم ... » وغير ذلك .

وعندى أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قَدْح ، لأنّ

---

(١) هو أبو على الحسين بن على بن يزيد الكرابيسى البغدادى ؛ صاحب الإمام الشافعى ، وأشهرهم بارتياد مجلسه وأحفظهم لمذهبه ؛ وله تصانيف كثيرة فى أصول الفقه وفروعه . توفى سنة ٢٤٨ . ابن خلكان ١ : ١٤٥

الأمة مجمعة على أنّه لو نـكح ابنةَ أبى جهل ، مضافا إلى نـكاح فاطمة عليها السلام لجاز ، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع ؛ فابنةُ أبى جهل المشارُ إليهـا كانت مسلمة ، لأنّ هذه القصة كانت بعد فتح مكّة ، وإسلام أهلها طوعا وكرها ، ورواة الخبر موافقون على ذلك ؛ فلم يبق إلا أنه إنْ كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى فاطمة عليها السلام قد غارت ، وأدركها مايدرك النساء ، عاتب عليا عليـه السلام عتابَ الأهل ، وكما يستثبت الوالد رأى الولد ، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته . ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فحرّف وزيد فيه . ولو تأملت أحوال النبىّ صلى الله عليه وآله مع زوجاته ، وما كان يجرى بينه وبينهنّ من الغضب تارة ، والصلح أخرى ، والسخط تارة والرضا أخرى ، حتى بلغ الأمرُ إلى الطلاق مرة ، وإلى الإيلاء مرة ، وإلى الهَجْر والقطيعة مرة ، وتدبرت ماورد فى الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقَيْنَه عليه السلام به ، ويُسْمِعْنه إياه ؛ لعلمت أنّ الذى عاب الحسَدة والشانئون عليًّا عليـه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط ، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تَيْنِك الامرأتين من الأحوال والأقوال ؛ حتى أنزل فيهما قرآن يُتْلَى فى المحاريب ، ويكتَب فى المصاحف ، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا ، منابذاً الرسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1] ، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ . . . ﴾[1] الآيات بتمامها . ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعلَيْهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ؛ وتمام الآية معلوم . فهل ماروى فى الخبر من تعصّب فاطمة على علىّ عليه السلام

---

(١) سورة التحريم ٤ ، ٥

وغَيْرِتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجرى إلّا كنسبة التأفيف[1] إلى حرب البسوس اولكنّ صاحب الهوى والعصبية لا علاج له .

* * *

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبى جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر: وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عامَ الجماعة ، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة مَن استقبله من الناس جَثَا على ركبتيه ، ثم ضرب صَلْعته مراراً، وقال : يا أهل العراق، أتزعمون أنّى أكذب على الله وعلى رسوله ، وأحرق نفسى بالنار! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ لكل نبىّ حَرَماً ، وإنّ حَرَمى بالمدينة ، مابين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها : فلما بلغ معاوية قولُه أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة .

قلت : أمّا قوله: «مابين عَيْر إلى ثور[2] »، فالظاهر أنّه غلط من الراوى، لأن ثوراً بمكة وهو جبل يقال له: ثَوْر أطحل، وفيه الغار الذى دخله النبى صلى الله عليه وآله وأبو بكر؛ وإنما قيل : « أطحل » لأن أطحل بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار ابن عدنان كان يسكنه. وقيل: اسم الجبل أطْحَل، فأضيف «ثور» إليه؛ وهو ثَوْر بن عبد مناف، والصواب : « مابين عَيْر إلى أُحُد »[3].

فأما قول أبى هريرة : «إنّ عليا عليه السلام أحدَث فى المدينة»، فحاش لله ! كان علىّ عليه السلام أتقى لله من ذلك؛ والله لقد نَصَر عثمان نصرا لو كان المحصورُ جعفر بن أبى طالب لم يبذُلْ له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضىّ الرواية ، ضربَه عمر

(١) ج : « التأفف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز .

(٣) معجم البلدان ٦ : ٢٤٦ : « وهما بالمدينة » .

بالدُّرة، وقال : قد أكثرتَ من الرواية وأحْرِ بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه !

وروى سفيان الثوريّ عن منصور ، عن إبراهيم التيميّ، قال : كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلّا ما كانَ من ذِكْر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيمُ صحيحَ الحديث ، فكنتُ إذا سمعت الحديث أتيتهُ فعرضتهُ عليه ، فأتيته يوما بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيرا من حديثه .

وقد روى عن عليّ عليه السلام أنه قال : ألَا إنّ أكذبَ الناس ـ أو قال : أكذب الأحياء ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدَّوْسيّ .

وروى أبو يوسف ، قال: قلت لأبي حنيفة : الخبر يجيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يخالف قياسَنا ماتصنع به؟ قال : إذاجاءت به الرواة الثقاتُ عَمِلْنا به وتركنا الرأى، فقلت : ماتقول فى رواية أبي بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : عليّ وعثمان، قال: كذلك ، فلما رآني أعُدّ الصحابة قال : والصحابةُ كلّهم عدول ماعدَا رجالًا ، ثم عدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سُفيان الثوريّ ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أنّ أبا هريرة لما قدِم الكوفة مع معاوية ، كان يجلس بالعشيّات بباب كِنْدة ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابٌ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشُدُك الله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليّ بن أبي طالب : « اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه ! ثم قام عنه .

وروت الرواة أنّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان فى الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يخطُب وهو أمير المدينة ، فيقول : الحمد لله الذى جعل الدّين قياما ، وأبا هريرة إماما ؛ يُضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة فى السُّوق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعنى نفسه .

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله فى كتاب " المعارف "[1] فى ترجمة أبى هريرة ، وقوله فيه حجّة لأنه غيرُ متّهم عليه .

***

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبة يلعَنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على مِنْبر الكوفة ، وكان بلغه عن علىّ عليه السلام فى أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرجُمَنّه بأحجاره — يعنى واقعة الزنا بالمرأة التى شهد عليه فيها أبو بَكْرة ، ونَكَل زياد عن الشهادة — فكان يُبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت فى نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزّمَع[2] عند ذكر علىّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يغنى أنه لم يخالف إلى ما نُهِى عنه ، وقد أراق مِنْ دماء المسلمين ما أراق !

***

قال : وقد كان فى المحدّثين مَنْ يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديثَ المنكرة ؛ منهم حَرِيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

---

(١) المعارف ص ١٢١

(٢) الزمع : الرعدة .

المحدِّثون أنّ حَرِيزا رُئِىَ فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : كاد يغفر لى لولا بغض علىّ .

قلت : قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " قال : حدثنى أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثنى إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثنى محفوظ ابن المفضل بن عمر ، قال : حدثنى أبو البُهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان ـ وكان مولًى لبنى أمية ، وكان مؤذِّنا عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيرا ـ قال : حضرت حَرِيز بن عثمان ، وذكَر علىّ بن أبى طالب ، فقال : ذاك الذى أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كاد يقع .

قال محفوظ : قلت ليحيى بن صالح الوُحاظىّ : قد رويت عن مشايخ مِنْ نظراء حَرِيز ، فما بالك لم تحمِلْ عن حَرِيز ! قال : إنى أتيته فناولَنى كتابا ، فإذا فيه : حدثنى فلان عن فلان أنّ النبى صلى الله عليه وسلّم لما حضرتْه الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، فرددت الكتاب ، ولم أستحل أنْ أكتب عنه شيئا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر ، قال : حدّثنى إبراهيم ، قال : حدّثنى محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حريز بن عثمان : أنتم يا أهل العراق تحبُّون علىّ بن أبى طالب عليه السلام ونحن نُبغضه ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه قتل أجدادى .

قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيز بن عثمان نازلًا علينا .

***

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغيرة بن شعبة صاحبَ دنيا ، يبيع دينه بالقليل النَّزر منها ويُرضِى معاوية بذكر علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال يوما فى مجلس معاوية : إن عليا لم يُنْكِحْه رسولُ الله ابنته حبًّا ؛ ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبى طالب إليه .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنَهَ على منبر العراق مراتٍ لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنوه ، أقبل رجل راكب ظَلَيما ، فوقف قريبا منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دارٍ من مغـــيرة تعرفُ   عليها زوانى الإنس والجن تَعْزِفُ

انْ كنتَ قد لاقيتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنا   وهامان فاعلم أن ذا العرش منصِفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يَرَوْا أحدا ، فعلموا أنه من الجنّ .

***

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يذكر فى الصحابة الذين قد غمصْناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهرا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبى العاص ؛ وهما الطَّريدان اللعينان ، كان أبوه عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه فى مَشْيه ، ويغمز عليه عينَه ، ويُدْلِع[1] له لسانه ويتهكم به ، ويتهانَف[2] عليه ؛ هذا وهو فى قبضته وتحت يده ، وفى دار دَعْوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله أىّ وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شانىء شديد البِغْضة ، ومستحكم العداوة ؛ حتى أفضى أمرُه إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف !

وأما مَرْوان ابنُه فأخبثُ عقيدةً ، وأعظم إلحادا وكفرا ؛ وهو الذى خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

يا حبّذا بردُك فى اليدَيْنِ   وَحُمْرَةٌ تجرى عَلَى الخدَّيْنِ

* كأنّما بِتّ بمسجدين *

---

(١) يدلع لسانه : يخرجه .

(٢) التهانف : الضحك مع الاستهزاء .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبيّ ، وقال : يا محمد ، يوم بيوم بدر . وهذا القول مشتق من الشعر الذى تمثّل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزِّبَعْرَى يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور[1] .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أنّ مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمَل إليه الرأس ؛ وإنما كتب إليه عُبيد الله بن زياد يبشّره بقتْل الحسين عليه السلام ، فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشد الرجز المذكور ، وأومأ إلى القبر قائلا : يوم بيوم بَدْر ، فأنكر عليه قوله قومٌ من الأنصار . ذكر ذلك أبو عُبيدة فى كتاب " المثالب ".

قال : وروى الواقدىّ أن معاوية لما عادَ من العراق إلى الشام بعد بيْعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لى : « إنك ستلِى الخلافة من بعدى ، فاختر الأرض المقدسة ، فإن فيها الأبدال ، وقد اخترتكم ، فالعنوا أبا تراب . فلعنوه ، فلما كان من الغد كتب كتابا ، ثم جمعهم فقرأه عليهم ، وفيه : هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذى بعثَ محمدا نبيا ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فاصطفى له مِنْ أهله وزيراً كاتبا أمينا ، فكان الوحى ينزلُ على محمد وأنا أكتبه ، وهو لا يعلم ما أكتب ، فلم يكن بينى وبين الله أحدٌ من خَلْقِه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت يا أمير المؤمنين .

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبعرى :

لَيْتَ أشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا　　جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

قَدْ قَتَلْنَا القَرْمَ مِنْ أشْيَاخِهِمْ　　وَعَدَلْنَــاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَلْ

والبيتان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠ .

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بَذل لِسَمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروِى أن هذه الآية نزلت فى علىّ بن أبى طالب: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدنيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]، وأنّ الآية الثانية نزلت فى ابن مُلجم، وهى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[2]، فلم يقبل، فبذل له مائتى ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك .

قال : وقد صحّ أنّ بنى أميّة مَنَعُوا من إظهار فضائل علىّ عليه السلام، وعاقبوا [على] ذلك الراوى له؛ حتى إنّ الرجلَ إذا رَوَى عنه حديثا لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدِّين لا يتجاسرُ على ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبى زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : ودِدْت أن أترَكَ فأحدِّثَ بفضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام يوما إلى الليل ؛ وأنّ عُنُقى هذه ضربت بالسيف.

قال : فالأحاديث الواردة فى فضله لو لم تكن فى الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلُها للخوف والتقيّة من بنى مروان مع طول المدّة، وشدة العداوة؛ ولولا أنّ لله تعالى فى هذا الرجل سرًّا يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرْوَ فى فضله حديث، ولا عُرِفَتْ له منقبة؛ ألا ترى أنّ رئيس قرية لو سخِط على واحد من أهلها، ومنع النّاسَ أن يذكروه بخيرٍ وصلاح لخمل ذكرُه ، ونسى اسمه، وصار وهو موجود معدوما ، وهو حيٌّ ميتا ! هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى فى هذا المعنى فى كتاب التفضيل .

* * *

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل فى ذكر المنحرفين عن علىّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أنّ عدة من الصحابة والتابعين والمحدّثين كانوا منحرفين عن علىّ عليه السلام،قائلين فيه السوء ، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا ، وإيثارا للعاجلة ؛ فمنهم أنس بن مالك ، ناشد علىّ عليه السلام الناسَ فى رَحَبة القصر ـ أو قال رحبة الجامع بالكوفة ـ : أيّكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه » ؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها ، وأنس بن مالك فى القوم لم يقم ، فقال له : يا أنس ، مايمنعك أن تقوم فتشهد ، ولقد حضرتَها ! فقال : ياأمير المؤمنين، كبرتُ ونسيت ، فقال : اللّهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لا تواريها العمامة . قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيتُ الوَضَح به بعد ذلك أبيض بين عينيه .

وروى عثمان بن مُطرِّف أنّ رجلا سأل أنس بن مالك فى آخر عمره عن علىّ بن أبى طالب ، فقال : إنى آليتُ ألا أكتم حديثا سئلت عنه فى علىّ بعد يوم الرّحبة ؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم .

***

وروى أبو إسرائيل عن الحكَم عن أبى سليمان المؤذن،أنّ عليا عليه السلام نَشَد الناس مَنْ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، يقول : « مَنْ كنت مولاه فعلّى مولاه »، فشهد له قوم وأمسك زَيْد بن أرقم ، فلم يَشْهَد ـ وكان يعلمها ـ فدعا علىّ عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمِىَ ، فكان يحدّث الناس بالحديث بعد ما كُفّ بصره .

***

قالوا : وكان الأشعث بن قيس الكندىّ وجرير بن عبد الله البَجَلِىّ يُبغضانه؛ وهدم علىّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله .

قال إسمعيل بن جرير : هدم علىّ دارَنا مرتين .

وروى الحارث بن حصين ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبدالله نَعْلَيْن من نعاله ، وقال : احتفظ بهما ، فإن ذهابَهما ذهاب دينك ؛ فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما ، فلما أرسله علىّ عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى ؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب .

***

وروى أهل السيرة أنّ الأشعث خطب إلى علىٍّ عليه السلام ابنته ، فزَبَرَه ، وقال : يابن الحائك ، أغرك ابنُ أبى قحافة !

وروى أبو بكر الهذلىّ عن الزّهرى ، عن عبيدالله بن عدىّ بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف ، قال : قام الأشعث إلى على عليه السلام ، فقال : إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد إليك عَهْدا لم يعهده إلى غيرك ؛ فقال : إنه عهد إلىّ ما فى قراب سيفى ؛ لم يعهد إلىّ غير ذلك . فقال الأشعث : هذه إن قلتها فهى عليك لا لك ؛ دَعْها ترحل عنك ، فقال له : وما علمك بما علىّ مما لى ! منافق ابن كافر ، حائك ابن حائك ! إنّى لأجد منك بَنّة[1] الغزْل . ثم التفت إلى عبيد الله بن عدى بن الخيار ، فقال : ياعبيدالله ، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا ، ثم أنشد[2] :

أصبحت هُزْءا لراعى الضأن أتبعُه[3] ماذا يَريبك منى راعىَ الضّان !

وقد ذكرنا فى بعض الروايات المتقدمات أنّ سبب قوله : « هذه عليك لا لك » ، أمر آخر ، والروايات تختلف .

وروى يحيى بن عيسى الرملىّ ، عن الأعمش : أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان[4] الكوفة ، فمرّ بهما ضبّ يعدو ، وهما فى ذمّ علىّ عليه السلام ، فناداه : يا أبا حِسْل ؛ هلم

(١) البنة : الرائحة ؛ وأهل اليمن معروفون بالغزل والحياكة .

(٢) البيت لكلاب بن أمية بن الأسكر ؛ من أبيات له فى ذيل الأمالى ١٨٠

(٣) ج : « أصبحت فردا » .

(٤) الجبان فى الأصل : الصحراء ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة ، وفى ، ا : « إلى الجبال » . وانظر مراصد الاطلاع .

يدَك نبايعك بالخلافة ، فبلغ عليًّا عليه السلام قولهما ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضبّ .

* * *

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفا عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان ابن أبي زُرْعة ،عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذا مرّت الجنازة عند عليّ عليه السلام ، فقال أبو مسعود الأنصاريّ : قد كنا نقوم ، فقال عليّ عليه السلام : ذاك وأنتم يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ عليا عليه السلام ،وقد سأله رجل عن امرأة تُوُفِّيَ عنها زوجها وهى حامل ، فقال : تتربّصُ أبْعَدَ الأجَلَيْن ، فقال رجل : فإن أبا مسعود يقول : وضعُها انقضاء عدّتها ، فقال عليّ عليه السلام : إن فروجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إنى لأعلم أنّ الآخر شرّ .

* * *

وروى المنهال ،عن نعيم بن دجاجة ،قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ جاء أبو مسعود ، فقال عليّ عليه السلام : جاءكم فرّوج ، فجاء فجلس ،فقال له عليّ عليه السلام: بلَغنى أنك تُفتى الناس ، قال : نعم ، وأخبرهم أن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئا؟قال : نعم ، سمعته يقول : «لا يأتى على الناس سنة ،مائة وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استُك الحفْرة ، وغلطت فى أول ظنك ؛ إنما عَنَى مَنْ حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

* * *

وروى جماعة من أهل السِّيَر أن عليا عليـه السلام كان يقول عن كعب الأحبار : إنه لـكذّاب ؛ وكان كعب منحرفا عن علىّ عليه السلام . وكان النعمان بن بشير الأنصارىّ منحرفا عنه ، وعدوًّا له ، وخاض الدماء مع معاوية خوضاً ، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روى أنّ عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليـه السلام ، وأنّ عليا سيّره إلى المدائن ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مات علىّ فلا أدرى ما موته ، وإن قتل فعسى أنّى إن قتل رجوت له .

ومن الناس من يجعل عمران فى الشيعة .

* * *

وكان سَمُرة بن جندب من شرطة زياد ، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن ، قال: جاء رجل من أهل خُراسان إلى البصرة ، فترك مالًا كان معه فى بيت المال ، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين، فأخذه سَمُرة بن جُنْدَب ، واتّهمه برأى الخوارج ، فقدّمه فضرب عنقه ؛ وهو يومئذ على شُرْطة زياد ، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال ، فقال أبو بَـكْرة[1] : يا سَمُرة ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[2] فقال : أخوك[3] أمرنى بذلك.

وروى الأعمش ، عن أبى صالح ، قال : قيل لنا : قد قَدِم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيناه فإذا هو سَمُرة بن جَنْدَب ، وإذا عند إحدى رجليه خَمْر ، وعند الأخرى ثَلْج ، فقلنا : ما هـذا ؟ قالوا : به النِّقْرس ، وإذا قوم قد أتوه ، فقالوا يا سَمُرة ،

(١) هو أبو بكرة الثقفى ، واسمه نفيع بن مسروح (٢) سورة الأعلى ١٤ ، ١٥ .
(٣) يريد زياد بن أبيه ، وكان أخا أبى بكر لأمه سمية .

ماتقول لربك غدا ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله ، ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلتَه بخارجىّ ، ذاك فتى وجدناه ماضياً فى حاجته ، فشبّه علينا ، وإنما الخارجىّ هذا ، فتأمر بقتل الثانى ؟ فقال سَمُرة: وأىّ بأس فى ذلك ! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار !

***

وروى واصل مولى أبى عيينة ، عن جعفر بن محمد بن علىّ عليه السلام عن آبائه، قال: كان لسَمُرة بن جُنْدَب نخل فى بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه، فشكا الأنصارىّ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سَمُرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هذا ، وخذ ثمنه ، قال : لا أفعل ، قال : فخذ نخلا مكان نخلك ، قال : لا أفعل ، قال : فاشترِ منه بستانه ، قال : لا أفعل ، قال : فاترك لى هذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وسلم للأنصارىّ : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لا حق له فيه » .

***

وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عدى، قال : قدمت المدينة فجلست إلى أبى هريرة ، فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ؛ قال : ما فعل سَمُرة ابن جندب ؟ قلت : هو حىّ ، قال : ما أحدٌ أحبّ إلىّ طول حياة منه . قلت : ولم ذاك؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى وله ولحذيفة بنْ اليمان : « آخركم موتا فى النار » ؛ فسبَقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنّى أن أسبِقَه ، قال : فبقى سَمُرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سَمُرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرْطة عبيد الله زياد ، وكان يحرّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

* * *

ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان عليٌّ عليه السلام يقول : مازال الزبير منّا أهلَ البيت حتى نشأ ابنُه عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذى حمّل الزبيرَ على الحرب ؛ وهو الذى زيّن لعائشة مسيرَها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغض بنى هاشم ، ويلعن ويسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وكان علىٌّ عليه السلام يقنُت فى صلاة الفجر وفى صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعَمْرًا ، والمغيرة، والوليد بن عقبة ،وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ؛ وبُسْر بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعرى ، ومَرْوان بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنُتون(١) عليه ويلعنونه .

* * *

وروى شيخُنا أبو عبدالله البصرىّ المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم اللّيثى ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ! فقلت : ماهذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبى سفيان ، فخرجا من المسجد ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لعن الله التابع والمتبوع؛ رب يوم لأمّتى من معاوية ذى الأستاه » ، قالوا : يعنى الكبير العَجُز .

وقال : روى العلاء بن حريز القشيرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذَنّ يامعاوية البدْعة سنة ، والقبح حسنا ، أكلُك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حَصِيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال :قال

---

(١) يقنتون عليه ، يدعون عليه .

علىٌّ عليه السلام : نحن وآل أبى سفيان قوم تعادَوْا فى الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن فى تلخيص نقض " السفيانية " مافيه كفاية فى هذا الباب.

* * *

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبى صادق ، عن جُندب بن عبد الله ،قال:ذُكِر المغيرة بن شُعبة عندَ علىّ عليه السلام وجدّه مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه لفجْرةٍ وغَدْرة غدرها بنفرمن قومه فتك بهم؛ وركبها منهم، فهرب منهم ؛ فأتى النبى صلى الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله مارأى أحدٌ عليه منذ ادّعى الإسلام خُضوعا ولا خشوعا ، ألا وإنه يكون[1] من ثَقِيف فراعنةقبل يوم القيامة يجانبون الحق ،ويسعّرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لايوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم؛ ولربّ صالح قد كان منهم .فمنهم عروة بن مسعود وأبو عُبيدبن مسعود المستشهد يوم قُسّ النّاطف . وإن الصالح فى ثقيف لغريب .

* * *

قال شيخنا أبو القاسم البلخى : من المعلوم الذى لا ريبَ فيه لاشتهار الخبر به؛وإطباق الناس عليه ، أنّ الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط كان يُبغِض عليا ويشتمه ، وأنه هو الذى لاحَاهُ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جَنانا ، وأحدّ سنانا ، فقال له علىّ عليه السلام : اسكت يافاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ...﴾[2] الآيات المتلوة ؛ وسمّى الوليد بحسب ذلك فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لا يُعرَفُ إلا بالوليد الفاسق .

---

(١) ب : « كائن من ثقيف » .

(٢) سورة السجدة ١٨ .

وهذه الآية من الآيات التى نزل فيها القرآن بموافقة علىّ عليه السلام ، كما نزل فى مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا فى آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[1] ، وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذبه على بنى المصطلق، وادّعاؤه أنّهم منعوا الزكاة وشهروا السيف؛ حتى أمر النبى صلى الله عليه وآله بالتجهز[2] للمسير إليهم؛ فأنزل الله تعالى فى تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية[3] .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله يشنؤه ويُعرِض عنه ؛ وكان الوليد يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً ويشنؤه، وأبوه عُقْبة بن أبى مُعيط هو العدوّ الأزرق بمكة ، والذى كان يؤذى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأهله ؛ وأخباره فى ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بَدْر ضرب عنقه . وورث ابنُه الوليد الشنآن والبِغضة[4] لمحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبو عُقْبة فيهم ، وقد قُدّم ليُضرَب عنقه : مَنْ للصبية يامحمد ؟ فقال : « النار ، اضربوا عنقه » .

قال : وللوليد شعر يقصد فيه الردّ على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال : « إن تولوها عليًّا ، تجدوه هاديامهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتِل قصد بنوه أن يُخْفُوا قبَره خوفا من بنى أمية أن يحدِثوا فى قبره حَدَثاً ، فأوهموا الناس فى موضع قبره تلك الليلة ــ وهى ليلة دفنه ــ إيهامات مختلفة ، فشدّوا على جمل تابوتاموثقاً بالحبال، يفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة فى سواد الليل صحبة ثقاتهم ؛ يُوهِمون أنّهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ؛ وأخرجوا بَغْلاً وعليه جِنازة[5] مغطاة؛

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) ج : «والتجهيز» .

(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) البغضة : شدة البغض .

(٥) الجنازة ؛ بالكسر ويفتح : الميت .

يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عِدّة، منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر؛ قصر الإمارة، ومنها فى حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومىّ؛ ومنها فى أصل دار عبد الله ابن يزيد القَسْرى بحذاء باب الورّاقين مما يلى قبلة المسجد، ومنها فى الكُناسة، ومنها فى الثّوِيّة، فعمِىَ عَلَى الناس موضع قبره؛ ولم يَعلَم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواصّ المخلِصون من أصحابه؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السَّحر فى[1] الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النَّجف، بالموضع المعروف بالغرِىّ، بوصاة منه عليه السلام إليهم فى ذلك، وعهدٍ كان عهد به إليهم، وعمِىَ موضع قبره على الناس؛ واختلفت الأراجيف فى صبيحة ذلك اليوم اختلافا شديدا، وافترقت الأقوال فى موضع قبره الشريف وتشعّبت، وادّعى قوم أنّ جماعة من طيِّئ وقعوا على جملٍ فى تلك الليلة، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنّوا فيه مالاً، فلما رأوا مافيه خافوا أن يُطلَبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك فى بنى أمية وشيعتهم؛ واعتقدوه حقا؛ فقال الوليد بن عُقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

فإن يكُ قَدْ ضَلّ البعيــر بحمْله فَمَا كان مَهْدِيًّا ولا كان هاديا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخِىّ أيضاً، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبىّ، قال: مرّ ناس بالحسن بن علىّ عليه السلام، وهم يريدون عيادَة الوليد بن عقبة، وهو فى عِلّة له شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائدا، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بينى وبين جميع الناس؛ إلّا ما كان بينى وبين أبيك، فإنى لا أتوب منه.

قال شيخنا أبو القاسم البلخىّ: وأكّدَ بُغضَه له ضربه إياه الحدّ فى ولاية عثمان، وعزْله عن الكوفة.

---

(١) ج: «من الليلة».

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لاريب فيها عند المحدّثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبّك إلا مؤمن » .

قال : وروى حَبّة العُرَنى ، عن علىّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كلّ مؤمن على حُبّى وميثاق كل منافق على بغضى ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضنى ، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّنى .

وروى عبد الكريم بن هلال ، عن أسلم المكىّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ما أبغضنى ولو نثرت[1] على المنافق ذهبا وفضة ما أحبّنى ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبّى ، وميثاق المنافقين ببغضى ، فلا يُبغضنى مؤمن ، ولا يحبّنى منافق أبدا .

قال الشيخ أبو القاسم البلخىّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض علىّ بن أبي طالب .

* * *

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب " الغارات " فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَيّة التيمىّ ، من بنى تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرّىّ ودَسْتَبَى[2] ، فكسرَ الخوارج ، واحتجن المال لنفسه ، فحبسه علىّ عليه السلام ، وجعل معه سعدا مولاه ، فقرّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بمعاوية ، وقال :

---

(١) ج : « صببت » .
(٢) دستبى ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الرى وهمذان .

خادعتُ سعداً وارتمتْ بى ركائبى ... إلى الشام واخترتُ الذى هو أفضلُ
وغادرتُ سعدا نائمـا فى عباءةٍ[١] ... وسعدٌ غـلامٌ مُستهامٌ مُضلَّلُ

ثم خرج حتى أتى الرَّقة ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق عليا عليه السلام ، يبدأ بالرَّقة حتى يستأذن معاوية فى القدوم عليه ، وكانت الرَّقة والرُّها وقرْقيسيا[٢] وحرَّان من حيِّز معاوية ؛ وعليها[٣] الضحاك بن قيس ، وكانت هيت وعانات ونصيبين ودارا وآمِد وسِنْجار من حيِّز علىّ عليه السلام ؛ وعليها الأشتر ، وكانا يقتتلان فى كل شهر .

وقال يزيد بن حُجَيَّة وهو بالرَّقة يهجو عليا عليه السلام :

يا طولَ ليـلىَ بالرَّقاتِ لمْ أنَمِ ... مِنْ غيْرِ عِشقٍ صَبَتْ نفْسِى ولا سقَمِ
لـكنْ لذكرِ أمورٍ جمَّـةٍ طرَقتْ ... أخشَى على الأصْلِ مِنْها زلَّة القَدمِ
أخشى عَلِيًّا عليهم أن يـكون لهمْ ... مثلَ العَقُور الذى عَفَّى عَلَى إرَمِ

وبعد ذلك ما لا نذكره .

قال إبراهيم بن هلال : وقد كان زياد بن خَصَفة التيمىّ ، قال لعلىّ عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَيَّة : ابعثنى يا أمير المؤمنين فى أثره أردّه إليك ؛ فبلغ قوله يزيد بن حُجَيَّة ، فقال فى ذلك :

أبلـغ زياداً أنّنى قد كفيتهُ ... أمورِى وخلّيت الذى هُوَ عاتِبُهْ
وبَابٌ شديدٌ مُوثَقٌ قد فتحتهُ ... عليك ، وقد أعْيتْ عليْكَ مذَاهِبُهْ
هُبِلْتَ أمَا ترجو غَنائى ومشهدِى ... إذِ الخصم لم يُوجَدْ لهُ منْ يُجاذِبُهْ ![٣]

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب « عباية » .
(٢) قرقيسياء : بلد على الخابور عند مصبه . (٣) فى الأصول : « عليهم » .
(٣) يجاذبه ، أى يحوله عن طريقه .

فأقسمُ لولا أنّ أمّكَ أمُّنا   وأنك مولًى ما طَفِقْتُ أعاتبُهْ
وأقسم لو أدركْتَنِي مارَدَدْتَنِي   كلانا قد اصطفّت إليه جلائبُهْ

قال ابن هلال : وكتب إلى العراق شعرا يذمّ فيه عليا عليه السلام ، ويخبره أنّه من أعدائه ، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة : ارفعوا أيديَكم فادعُوا عليه ، فدعا عليه وأمّن أصحابُه .

قال أبو الصلت التيميّ : كان دعاؤه عليه : اللهمّ إن يزيد بن حُجَيّة هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين ، فاكفِنا مكره وكيدَه واجْزِه جزاء الظالمين .

قال : ورفع القومُ أيديَهم يؤمِّنون ، وكان فى المسجد عِفاق بن شُرَحْبيل بن أبى رهم التّيميّ شيخا كبيرا ، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عدىّ حتى قتله معاوية ، فقال عِفاق : على مَن يدعو القوم ؟ قالوا : على يزيد بن حُجَيّة ، فقال : تربتْ أيديكم ! أعَلَى أشرافنا تدعُون ! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلِك . وقام زياد بن خَصَفَة — وكان من شيعة علىّ عليه السلام — فقال : دعوا لى ابن عمّى ، فقال علىّ عليه السلام : دعوا للرّجُل ابن عمّه ، فتركه الناس ، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد ، وجعل يمشى معه يمسح التراب عن وجهه ، وعِفاق يقول : والله لا أحبّكم ما سعيت ومشيت ، والله لا أحبّكم ما اختلفت الدِّرّة والجِرّة ؛ وزياد يقول : ذلك أضرّ لك ، ذلك شرٌّ لك .

وقال زياد بن خَصَفَة يذكر ضرب الناس عِفاقا :

دعوت عِفاقا للهُدَى فاستغشّنِي   وولّى فَرِيًّا قولُه وَهُوَ مُغْضَبُ
ولولا دفاعى عن عِفاقٍ ومشهدِى   هوت بعِفاقٍ — عَوْضُ — عنقاءُ مُغْرِبُ(١)

(١) عوض ، معناه أبدا . وعنقاء مغرب ، قال فى اللسان : « العنقاء المغرب : كلمة لا أصل لها ؛ ويقال إنها طائر عظيم لا نرى إلا فى الدهور ؛ ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة » .

أنبئْه أنّ المدى فى اتباعنا فيأبى ، ويُضْرِيه المراء فيشغَبُ[1]
فإن لا يشايعْنا عِفاقٌ فإننا[2] على الحق ما غنّى الحمام المطرِّبُ
سيُغْنِى الإله عن عِفاق وَسَعْيِه إذا بعثت للناس جأواء تحْرِبُ[3]
قبائل من حَيّىْ معدّ ومثلُها يمانية لا تنثنِى حين تُنْدَبُ[4]
لَهُمْ عَدَدٌ مثلُ التراب وطاعةٌ تودّ ، وبأس فى الوغى لا يؤنَّبُ

فقال له عِفاق : لو كنتُ شاعرا لأجبتك ؛ ولكنى أخبركم عن ثلاث خصال كنّ منكم ؛ والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهنّ شيئا مما يسرّكم :

أمّا واحدة ، فإنكم سرتُم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم ؛ فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف ، فسخِروا بكم فردّوكم عنهم ، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدّ والحدّ والعدد الذى دخلتم به أبدا .

وأما الثانية ، فإنكم بعثتم حَكَماً وبعث القوم حَكَما ؛ فأما حَكَمُكم فخلعكم ، وأمّا حَكَمهم فأثبتهم ، فرجع صاحبهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ، ورجعتم متلاعنين متباغضين ؛ فو الله لا يزال القوم فى عَلاء ، ولا تزالون فى سِفال .

وأما الثالثة ، فإنه[5] خالفكم قُرّاؤكم وفُرسانكم فعدَوْتم عليهم فذبحتموهم بأيديكم ؛ فو الله لا تزالون بعدها متضعضعين[6] .

قال : وكان يمرّ عليهم بعد ، فيقول : اللهم إنى منهم برىء ، ولابن عفان ولىّ ! فيقولون : اللهم إنّا لعلى أولياء ، ومن ابن عفان برآء ، ومنك يا عِفاق !

---

(١) الشغب : الشر .
(٢) ج : « يتابعنا » .
(٣) كتيبة جأواء : هى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع .
(٤) تندب : تدعى فتخف للدعوى .
(٥) ج : « فإنكم » .
(٦) تضعضع : خضع وذل .

قال : فأخذ لا يُقلِع ؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة الكهان، فقالوا : ويحك! أما تكفينا بسجعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتكم ، فمرّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتل عِفاقا ، فأنه أسرّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبيّن فراقا ، وتلوّن أخلاقا .

فقال عِفاق : وَيْحكم ! من سلّط علىّ هذا ؟ قال : الله بعثنى إليك ، وسلّطنى عليك لأقطع لسانك ، وأنصِل سِنانك[1] ، وأطرد شيطانك .

قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزَينة .

***

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعَتِّب الثقفىّ ، شهد مع علىّ عليه السلام صفين ، وكان فى أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار إلى علىّ عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان علىّ عليه السلام يسميه الهجنّع ، والهجنّع : الطويل .

***

ومنهم القعقاع بن شُور ، استعمله علىّ عليه السلام على كَسْكَر ، فنقَم منه أمورا ؛ منها أنه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

***

ومنهم النجاشىّ الشاعر من بنى الحارث بن كعب ، كان شاعرَ أهل العراق بصفّين ، وكان علىّ عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كَعْب بن جُعَيل وغيره ، فشرب الخمر بالكوفة ، فحدّه علىّ عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا عليه السلام .

(١) أنصل السنان : جعل له سنا ؛ ونزعه عنه : من الأضداد .

حدث ابن الكلبيّ عن عَوانة ، قال : [1] خرج النجاشيّ فى أول يوم من شهر رمضان، فمرّ بأبى سَمّال الأسدىّ، وهو قاعد بفناء داره، فقال له : أين تريد ؟ قال: أردت الكُناسة ، فقال : هل لك فى رءوس وألَيات قد وُضِعت فى التنُّور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت ؟ قال : وَيْحك ! فى أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نَعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شراب كالوَرْس ، يُطَيِّب النفس ، ويجرى فى العِرْق ، ويزيد فى الطَّرْق ، يهضم الطعام ، ويُسَهِّل للفدْم[2] الكلام ؛ فنزل ؛ فتغدّيا ، ثم أتاه بنبيذ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتُهما ، ولهما جارٌ من شيعة علىٍّ عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصّتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سَمّال فوثَب إلى دُور بنى أسد فأفلت ؛ وأخذ النجاشىّ فأُتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه فى سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحدّ فقد عرفته ، فما هذه العِلاوة[3] ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك فى شهر رمضان . ثم أقامه فى سراويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خَرِىَ النجاشىّ ، خرى النجاشى ! وجعل يقول : كلاّ إنها يمانية وِكاؤها شعر .

قال : ومرّ به هند بن عاصم السّلولىّ ، فطرح عليه مُطرَفا ، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فمدح بنى سَلُول فقال :

إذا الله حَيّا صالحًا من عباده	تقيًّا فحيّا الله هِندَ بْنَ عاصمِ
وكلّ سَلُولِىٍّ إذا مادعوتَه	سريع إلى داعى العلا والمكارم
هم البيضُ أقداما وديباجُ أوجهٍ	جلوها إذا اسودّتْ وجوهُ اللائمِ
ولا يأكل الكلب السّروق نعالَهم	ولا يبتغى المخّ الذى فى الجماجِمِ

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) الفدم : الغبى .

(٣) العلاوة ، بالكسر : كل مازاد عن الشيء

ثم لحق معاوية ،وهجا عليّا عليه السلام ، فقال :

أَلا مَنْ مبلغٌ عَنِّى عَلِيًّا بأنى قَدْ أمِنْتُ فلا أخَافُ
عَمِدْتُ لمستقرّ الحقّ لَمّا رأيتُ أمورَكُمْ فيها اختِلافُ

وروى عبد الملك بن قُرَيب الأصمعىّ ، عن ابن أبى الزّناد ، قال : دخل النجاشىّ على معاوية ، وقد أذن للناسَ عامة ، فقال لحاجبه : ادعُ النجاشىّ ، والنجاشىّ بين يديه ، ولكن اقتحمته عينه ، فقال : هأنذا النجاشىّ بين يديك يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الرجال ليست بأجسامها ؛ إنّما لك من الرجل أصغراه : قلبه ولسانه ، قال : ويحك ! أنت القائل[1] :

ونَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ أجشّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانى[2]
إذا قلتُ أطراف الرماح تَنُوشُه مَرَتْه بِهِ الساقان والقَدَمانِ[3]

ثم ضرب بيده إلى ثَدْيه[4] ، فقال : ويحك ! إنّ مثلى لا تعدُو به الخيل ؛ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى لم أعْنِك ؛ إنما عنيتُ عُتْبَة .

وروى صاحب كتاب " الغارات "، أن عليا عليه السلام لما حدّ النجاشىّ غضبت اليمانية لذلك ، وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب النَّهْدىّ ، فدخل عليه،فقال: ياأمير المؤمنين ، ما كنّا نرى أنّ أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سِيّان فى الجزاء ؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث ،

---

(١) البيتان فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ (طبعة الدار) ، والأول مع الخبر فى الشعر والشعراء ٢١٩
(٢) السابح : الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس . والأجش الغليظ الصوت فى صهيله ؛ وهو مما يحمد فى الخيل . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .
(٣) مرته : استدرت جريه .
(٤) فى الشعر والشعراء : « ثندوءته » ، والثندوءة : اللحم الذى حول الثدى .

فأوغرْتَ صدورنا، وشتَّتَّ أمورنا، وحملتنا على الجادّة[١] التى كنا نرى أن سبيل مَن ركبها النار . فقال علىّ عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[٢] ؛ يا أخا نَهْد ، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرَم الله ، فأقمنا عليه حدّاً كان كفارته! إن الله تعالى يقول : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[٣] قال : فخرج طارق من عنده ، فلقيه الأشتر ، فقال : ياطارق ؛ أنتَ القائل لأمير المؤمنين : « أوْغرْتَ صدورَنا ، وَشتّتَّ أمورنا » ؟ قال طارق : نعم، أنا قائلها ، قال : والله ماذاك كما قلتَ ؛ إنّ صدورَنا له لسامعة ، وإن أمورنا له لجامعة . فغضب طارق وقال : ستعلم يا أشتر أنه غيرُ ماقلت ؛ فلما جنّه الليل هَمَس[٤] هو والنجاشىّ إلى معاوية، فلما قدما عليه ، دخل آذنه فأخبره بقدومهما ، وعنده وجوه أهل الشام ، منهم عمرو بن مره الجهنىّ وعمرو بن صيفىّ وغيرهما ، فلما دخلا نظر إلى طارق ، وقال : مرحبا بالمورِق غصنه، والمعرِق أصلُه ، المسوّد غير المسود ؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة ، باتّباعه صاحبَ الفتنة ، ورأس الضلالة والشبهة ، الذى اغترز فى ركاب الفتنة حتى استوى على رَجْلها ، ثم أوجف فى عَشْوة ظُلْمتها وتيه ضلالتها ، واتبعه رجرجة[٥] من الناس ، وأشبابة[٦] من الحثالة لا أفئدة لهم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٧]

فقام طارق ، فقال : يامعاوية إنى متكلّم فلا يسخطك ، ثم قال : وهو متكئٌ على سيفه : إنّ المحمود على كلّ حال ربٌّ علا فوق عباده ، فهم منه بمنظر ومسمع ؛ بعث فيهم

---

(١) الجادة : معظم الطريق ، وأوسطه .

(٢) سورة البقرة ٤٥ .

(٣) سورة المائدة ٨

(٤) الهمس : السير بالليل

(٥) الرجرجة : الجماعة الكثيرة من الناس

(٦) الأشابة : أخلاط الناس

(٧) سورة محمد ٢٤

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يخطّه بيمينه ؛ إذاً لارتاب المبطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيما ! أما بعد ، فإنّ ما كنا نُوضِع فيما أوْضَعنا فيه بين يدى إمام تقيّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ أتقياء مرشدين ، مازالوا مناراً للهدى ، ومعالم للدين ، خلفاً عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كلّ الخير فيهم ، واتّبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهلُ بيوتات وشرَف ، ليسوا بناكثين ولا قاسطين، فلم يكن رغبةُ مَنْ رغب عنهم وعن صحبتهم إلا لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها ، ولوعورته حيث سلكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثَرة ، وهو متّبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا؛ وقد فارق الإسلام قبلنا جَبَلة بن الأيهم فرارا من الضيم، وأَنَفًا[1] من الذِّلة ، فلا تفخرَنّ يامعاوية ؛ إن شَدَدْنا نحوك الرحال ، وأوْضَعْنا إليك الركاب . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولجميع المسلمين .

فعظُم على معاوية ماسمعه وغضب ، لكنه أمسك[2] ؛ وقال : ياعبد الله ؛ إنا لم نُرِدْ بما قلناه أن نوردَك مَشْرَع ظمأ ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِىّ ؛ ولكنّ القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريره ، ودعا له بمقطّعات وَبُرود فصبّها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدّثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفيّ الجهنيّان ، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضّه، يلومانه فى خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ماقمت بما سمعتماه حتى خُيِّل لى أنّ بطن الأرض خير لى من ظهرها عند سماعى ما أظهرَ من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة ، وما زهَتْ به نفسُه ، وملَكَه عجبه ، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم ، فقمت مقاما أوجب الله علىّ فيه ألّا أقول إلّا حقا ، وأىّ خير فيمن لا ينظر مايصير إليه غدا !

(١) ج : « وأنفة من الذلة » .
(٢) ج : « تماسك » .

فبلَغ عليًّا عليه السلام قولُه ، فقال : لو قُتل النهدىّ يومئذ لقتل شهيدا .

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبى العُريان ـ وكان عُثمانيا ، وكانت امرأته عَلَوِيّة الرأى ، تكتب بأخبار معاوية فى أعنّة الخيل وتدفعُها إلى عسكر علىّ عليه السلام بصِفِّين فيدفعونها إليه ـ فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلىّ فى صِفّين أم أهل الشام لى ؟ فقال : أهل العراق قبل أن يُضْرَبوا بالبلاء كانوا أنْصَحَ لصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنّ القوم ناصحوه على الدّين ، وناصَحَكَ أهل الشام على الدنيا، وأهل الدين أصْبَرُ، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع ؛ ثم والله مالبث أهلُ العراق أنْ نبذُوا الدّين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .

فقال معاوية: فما الذى يمنع الأشعثَ أن يقدَم علينا، فيطلب ماقِبَلنا ؟ قال: إن الأشعث يكرِم نفسَه أن يكون رأسا فى الحرب ، وذَنَبًا فى الطمع .

* * *

ومن المفارقين لعلىّ عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبى طالب ؛ قَدِم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفِدُه[1] ، فعرَض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلّى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتَنِى أن أخونهم وأعطيَك، فلما خرج من عنده شخَص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له : ياأبا يزيد ، أنا خيرلك أم علىّ؟ قال : وجدت عليًّا أنْظَرَ لنفسه منهُ لى ، ووجدتك أنظر لى منك لنفسك .

وقال معاوية لعَقِيل : إنّ فيكم يابنى هاشم لينـاً ، قال : أجل إنّ فينا لينًا من غير

---

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعْف ، وعِزًّا من غير عُنْف ، وإن ليَنَكم يامعاوية غَدْر ، وسلْمكم كُفْر . فقال معاوية: ولا كلّ هذا ياأبا يزيد !

وقال الوليد بن عُقْبة لعقيل فى مجلس معاوية : غَلبك أخوك يا أبا يزيد على الثَّرْوة ! قال : نعم ، وسبقنى وإياك إلى الجنة ، قال : أما والله إن شِدْقَيْه لمضمومان من دم عثمان ، فقال : وما أنتَ وقريش ! والله ما أنتَ فينا إلا كنطيح التَّيْس . فغضب الوليد وقال : والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا فى قتله لأُرهِقُوا صَعُودا[1] ، وإن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذابا ، فقال : صه ! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبة أبيك عُقْبة ابن أبى مُعَيْط .

وقال معاوية يوما ـ وعنده عَمْرو بن العاص، وقد أقبل عَقِيل:لأضحكنّك من عَقيل، فلما سلّم قال معاوية:مرحبا برجل عمّه أبو لهب،فقال عَقِيل : وأهلا برجل عمّته : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [2] ؛ لأنّ امرأة أبى لهب أمّ جميل بنت حرب ابن أمية .

قال معاوية : ياأبا يزيد ماظنّك بعمك أبى لهب ! قال : إذا دخلت النارَ فَخُذ على يسارك تجِدْه مفترشا عمّتك حمالةَ الحطب ؛ أفناكحٌ فى النار خيرٌ أم منكوح ! قال : كلاهما شرّ ، والله .

* * *

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب ، خرج هو وجرير بن عبد الله البَجَلِيّ من الكوفة إلى قرقيسيا ؛ وقالا : لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان .

* * *

---

(١) الصعود : العقبة الشاقة .

(٢) المسد : حبل من ليف المقل .

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرمىّ ، وخبره مذكور فى قصة بُسْر بن أرطاة .

* * *

وروى صاحب كتاب '' الغارات '' عن إسماعيل بن حكيم ، عن أبى مسعود الجريرىّ ، قال : كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بُغْض علىّ عليه السلام : مطرّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب '' الغارات '' : وكان مطرّف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمّار بن ياسر دخل على أبى مسعود وعنده ابن الشِّخّير ، فذكر عليا بما لا يجوز أن يُذْكَر به ، فقال عمار : يافاسق وإنك لهاهنا ! فقال أبو مسعود : أذكّرك الله يا أبا اليقظان فى ضَيْفى !

قال : وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانيّة ، وكانت فى أنفسهم أحقاد يوم الجمل ، وكان هو عليه السلام قليل التألّف للناس ، شديدا فى دين الله ، لا يبالى مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحقّ مَنْ سخط ومَنْ رضِيَ .

قال : وقد روى يونس بن أرقم ، عن يزيد بن أرقم ، عن أبى ناجية ، مولى أم هانىء ، قال : كنت عندَ علىّ عليه السلام ، فأتاه رجل عليه زِىُّ السّفر . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى أتيتك من بلدة مارأيت لك بها محبًّا ، قال : منْ أين أتيتَ ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبُّونى لأحبونى ؛ إنى وشيعتى فى ميثاق الله لا يزاد فينا رجلٌ ولا ينقص إلى يوم القيامة .

* * *

وروى أبو غَسّان البصرىّ ، قال : بَنَى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض علىّ بن أبى طالب والوقيعة فيه : مسجد بنى عدىّ ، ومسجد بنى مجاشع ،

ومسجد كان فى العلاّفين على فُرْضَة البصرة ، ومسجد فى الأزد .

***

ومما قيل عنه إنه يبغض عليا عليه السلام ويذمّه ، الحسن بن أبى الحسن البصرىّ أبو سعيد؛ وروى عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان علىّ يأكل الحَشَف[1] بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه . ورواه عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته .

وروى عنه أنّ عليا عليه السلام رآه وهو يتوضّأ للصلاة ـ وكان ذا وسوسة ـ فصبّ على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرَقْتَ ماء كثيرا يا حسن ؛ فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم . قال : فلا زلت مسوءاً .

قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكِرونه ويقولون : إنه كان من محبّى علىِّ ابن أبى طالب عليه السلام والمعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدّث فى كتابه المعروف بـ " الاستيعاب فى معرفة الصحاب " أنّ إنسانا سأل الحسن عن علىٍّ عليه السلام ، فقال : كان والله سهماً صائبا من مرامِى الله على عَدُوِّه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لم يكن بالنَّؤُومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، أعطى القرآنَ عزائمه ففازَ منه برياض مُونِقة ، ذلك علىّ بن أبى طالب يالُكَع!

وروى الواقدىّ ، قال : سئِل الحسنُ عن علىّ عليه السلام ـ وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ ـ فقال : ما أقول فيمنْ جَمَع الخصال الأربع : ائتمانه على براءة ،

---

(١) الحشف : أردأ التمر .

وما قال لَهُ الرسول فى غزاة تَبُوك ، فلو كان غير النبوّة شىء يفوته لاستثناه، وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : «الثقّلان كتاب الله وعِترتى» ، وإنه لم يؤمّر عليه أمير قطّ وقد أمَّرت الأمراء على غيره .

وروى أبَان بنُ عياش، قال : سألتُ الحسن البصرىّ عن علىّ عليه السلام ، فقال: ما أقولُ فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأى والصُّحبة والنَّجْدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة ، إن عليًّا كان فى أمره عليًّا ، رحم الله عليًّا ، وصلى عليه! فقلت : ياأباسعيد، أتقول: «صلّى عليه» لغير النبىّ ! فقال : ترحَّمْ على المسلمين إذا ذُكِروا ، وصلِّ على النبىّ وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خيرٌ مِنْ حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخيرٌ من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنه خيرُ آل محمد كلِّهم ، ومَنْ يَشُكّ أنّه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وأبوهما خير منهما » ! ولم يجرِ عليه اسمُ شِرْك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام : « زوّجتُك خيرَ أمتى » ، فلو كان فى أمته خيرٌ منه لاستثناه ، ولقد آخى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه ، فآخى بين علىّ ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرُ الناس نفسا ، وخيرُهم أخا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذى يقال عنك إنّك قلته فى علىّ ؟ فقال : يابن أخى ، أحقِنُ دمى من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لشالَت[1] بى الخُشُب .

* * *

قال شيخُنا أبو جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى، ووجدته أيضا فى كتاب " الغارات " لإبراهيم بن هلال الثقفى : وقد كان بالكوفة من فقهائها مَنْ يعادى عليا ويُبغضه، مع غَلبة التشيّع على الكوفة ، فمنهم مرّةُ الهمدانىّ .

(١) ب : « لسالت » .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن عن فِطْر بن خليفة ، قال : سمعت مُرَّة يقول : لَأَنْ يكون عليٌّ جملًا يَستَقِي عليه أهلُه خير له مما كان عليه .

وروى إسماعيل بن بَهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمرّة الهَمْدانيّ : كيف تخلّفت عن عليّ ؟ قال[1] : سَبَقَنا بحسناته ، وابتُلينا بسيئاته .

قال إسماعيل بن بَهْرام : وقد روينا عنه أنه قال أشدّ فُحْشاً من هذا ؛ ولكنا نتورّع عن ذكره .

وروى الفضل بن دُكَين ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلِّ أبو صادق على مُرّة الهَمْدانيّ .

قال الفضلُ بن دُكين : وسمعتُ أنّ أبا صادق قال في أيام حياة مُرّة : والله لا يظلّني وإياه سَقْفُ بيتٍ أبدا .

قال : ولما مات لم يحضُره عمرو بن شُرَحبيل ، قال : لا أحضُره لشيء كان في قلبه عَلَى عليّ بن أبي طالب .

قال إبراهيم بن هلال : حدّثنا المسعوديّ ، عن عبدالله بن نُمَير بهذا الحديث . قال : ثم كان عبد الله بن نُمَير يقول — وكذلك أنا ؛ والله لو مات رجلٌ في نفسه[2] شيء عَلَى عليّ عليه السلام لم أحضُرْه ، ولم أصلِّ عليه .

* * *

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسْروق بن الأجدع ؛ روى سَلَمة بن كُهيل : أنّهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقَعان في عليّ عليه السلام ؛ فأمّا الأسود فمات على ذلك ؛ وأما مسروق فلم يمُتْ حتى كانَ لا يصلِّي لله تعالى صلاةً

(١) : ب « فقال » .
(٢) ب « في قلبه .

إلا صلّى بعدها عَلَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة فى فضله .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَين ، عن عبد السلام بن حَرْب ، عن ليث ابن أبى سُلَيم ، قال : كان مسروق يقول : كان علىّ كحاطب ليل ؛ قال: فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سَلَمة بن كُهَيل ، قال : دخلتُ أنا وزُبيد اليامىّ على امرأةِ مسروق بعد موته ؛ فحدثتنا ، قالت : كان مسروق والأسود بن يزيد يُفْرِطان فى سبّ على ابن أبى طالب ، ثم ما مات مسروق حتى سمعتُه يصلّى عليه ، وأما الأسود فمضى لشأنه . قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شىء سمعه مِنْ عائشة تَرْويه عن النبىّ صلى الله عليه وآله فيمن أصابَ الخوارج .

وروى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبى إسحاق، قال : ثلاثة لا يؤمَنون عَلَى علىّ ابن أبى طالب : مسروق ، ومُرّة ، وشُريح .

وروى أنّ الشعبىّ رابعهم .

وروى عن هيثم ، عن مجالد ، عن الشعبىّ ، أنّ مسروقا ندِم عَلَى إبطائه عن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التّيمىّ؛ قال : قال علىّ عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى قضيّة نَقَم عليه أمرَها : والله لأنفينّك إلى بانِقيا[1] شهرين تقضى بين اليهود ، قال : ثم قُتِل علىّ عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبى عبيد قال لشُرَيح : ما قال لك أميرُ المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال: إنه قال لى كذا ، قال : فلا والله لا تقعد، حتى تخرج إلى بانِقيا تقضى بين اليهود . فسيّره إليها فقضَى بين اليهود شهرين .

* * *

(١) بانقيا ، بكسر النون : ناحية من نواحى الكوفة كانت على شواطىء الفرات (مراصد الاطلاع) .

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عُثمانيا يقع فى علىّ عليه السلام ، ويقال : إنه كانَ يرى رأيَ الخوارج ، ولم يختلف فى أنه خرج معهم ؛ وأنّه عاد إلى علىّ عليه السلام مُنِيبا مقلِعاً .

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا علىٌّ، فما زال يكلّمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب "الغارات" ، عن عثمان بن أبى شيبة ، عن الفَضْل ابن دُكَيْن ، عن سفيان الثورىّ ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفّين وبئس الصُّفوف كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، قال : كان أبو وائل عثمانيا ، وكان زِرُّ بن حُبَيش عَلَوِيًّا .

***

ومن المبغضين القالين : أبو بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ ، ورِث البِغْضة له ، لا عن كلالة[1] .

وروى عبد الرحمن بن جُندَب، قال : قال أبو بُرْدة لزياد : أشهد أن حُجْر بن عدىّ قد كفر بالله كفرة أصْلَع ، قال عبد الرحمن : إنّما عَنَى بذلك نِسبَة الكفر إلى علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ لأنّه كان أصلع .

قال : وقد روى عبد الرحمن المسعودىّ ، عن ابن عياش المنتوف، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية الجُهنىّ قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم، قال: ناولنى يدَك ؛ فقبّلها ، وقال : لا تمسُّك النار أبدا .

---

(١) يقال : لم يرثه كلالة ، أى لم يرثه عن عرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أبى موسى الأشعرى .

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يَزيد ، قال : رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخى ها هنا ! فأجلسه إلى جانبه .

***

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ القارئ ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبى عبد الرحمن السُّلمىّ : أَنْشُدُكَ بالله ، إن سألتُك لتخبرنّى ؟ قال : نعم ، فلما أكّد عليه قال : بالله هل أبغضتَ عليًّا إلا يوم قسم المال فى الكوفة فلم يصلْك ولاأهلَ بيتك منه بشىء ! قال : أما إذْ أنشدْتنى بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضّرير ، عن أبى عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية و بين أبى عبد الرحمن السُّلمِىّ شىء فى أمر علىّ عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حَيّان ، فقال : هل تَدْرِى ماجَرّأ صاحبَك عَلَى الدماء ؟ يعنى عليا ، قال : وماجَرّأه لا أبا لغيرك ! قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : «اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

***

وكان عبدالله بن عُكَيْم عُثمانيا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى عَلَوِيًّا ، فروى موسى الجهنىّ ، عن ابنة عبدالله بن عُكَيْم ، قالت : تحدثنا يوما ، فسمعت أبى يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبَك لو صَبَرَ لأتاه الناس .

***

وكان سهم بن طريف عثمانيًّا ، وكان علىّ بن ربيعة عَلَوِيًّا ، فضرب أمير الكوفة عَلَى الناس بعثا ، وضرب عَلَى سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعلىّ بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فكلِّمْه فى أمرى ليُعْفِيَنى ، فأتى علىّ بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأعْفِه ، قال : قد أعفيتُه ، فلمـا التقيا قال : قد أخبرتَ الأميرَ أنّك أعمى ؛ وإنما عنيت عمى القلب .

* * *

وكان قيس بن أبى حازم يُبْغِض عليًّا عليـه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسمـعيل ابن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم ، قال : أتيت عليا عليـه السلام ليكلّم لى عثمان فى حاجة ، فأبَى فأبغضتُه .

قلت :وشيوخنا المتـكلّمُون ـ رحمهم الله ـ يُسقِطون روايته عن النبى صلى الله عليه وآله : « إنـكم لترَوْنَ ربّـكم كما ترَوْن القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغِض عليا عليه السلام ؛ فـكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنـبر ، ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضُه فى قلبى .

* * *

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبَهه عُمر بن علىّ عليه السلام فى وجهه بكلام شديد .

روى عبـد الرحمن بن الأسود ، عن أبى داود الهمدانىّ ، قال : شهدت سعيد ابن المسيّب ـ وأقبل عمر بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يابن أخى ، ما أراك تـكثِر غِشْيـان مسجد رسول الله صـلى الله عليـه كما يفعـل إخوتك وبنو أعمامك ! فقال عمر : يابن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجىء فأشهِدَك ! فقـال سعيد : ما أحبّ أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إنّ لى من الله مقاما لهو خيرٌ لبنى عبد المطلب ممّا على الأرض من شىء . فقال عمر : وأنا سمعت أبى يقول : ما كلمة حـكمة

فى قلب منافق فيخرج من الدنيا ، حتّى [1] يتكلم بها . فقال سعيد : يابن أخى ، جعلتنى منافقا ! قال : هو ما أقول لك . ثم انصرف .

***

وكان الزهرىّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وروى جرير بن عبد الحميد ، عن محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجد المدينة ، فإذا الزهرىّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك علىّ ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما،فقال : أمّا أنتَ ياعُروة ، فإن أبى حاكم أباكِ إلى الله ، فحكَم لأبى على أبيك ؛ وأما أنت يازهرىّ ، فلو كنتَ بمكة لأريتُك كِيرَ أبيك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أنّ عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يزهو إلا علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد .

وروى عاصم بن أبى عامر البَجَلىّ ، عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبى إذا ذكَر عليا نال منه .

وقال لى مرّة : يابنى،والله ما أحجم الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ، لقد بعَثَ إليه أسامة ابن زيد أن ابعثْ إلىّ بعطائى ، فوالله إنّك لتعلم أنك لو كنتَ فى فم أسدلدخلتُ معك . فكتب إليه : إنّ هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكنّ لى مالًا بالمدينة فأَصِبْ منه ماشئت .

قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

***

وكان زيد بن ثابت عُثمانيا شديداً فى ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانيا ، من أعداء علىّ عليه السلام ومُبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذى روى عن أبى أيوب الأنصارىّ حديثَ : « ستة أيام من شوّال » .

---

(١) ب : « إلا » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيها الناس ، إنّ عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة ، فالعنوه ، فيلعنه أهلُ تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان فى أيام معاوية .

***

وكان مكحولٌ من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ، قال :لقيت مكحولا؛ فإذا هو مطبوع -يعنى مملوءا- بغضا لعلىّ عليه السلام -فلم أزل به حتّى لان وسكن .

وروى المحدّثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علىّ أشدُّ حبًّا له من أصحاب العِجْل لعجلهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شبابة بن سوّار أنه ذكر عنده ولد علىّ عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال : والله لا يصِلُون إليها أبدا ، والله مااستقامت لعلىّ ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لا يذوقُ طعمَ الخلافة مَنْ رضِىَ بقتل عثمان .

***

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ : كان أهلُ البصرة كلّهم يُبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهلُ مكة فكلّهم كانوا يُبغضونه قاطبةً ، وكانت قريش كلها على خلافه ، وكان جُمهور الخلق مع بنى أميّة عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبى بَكْرة ، قال: سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالقِىَ أحدٌ من الناس مالقيت ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشعبىُّ ، عن شريح بن هانئ ، قال: قال علىّ عليه السلام : اللهم إنى أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمى ، وأصفوا[١] إنائى ، وصَغَّروا عظيم منزلتى ، وأجمعوا على منازعتى .

وروى جابر عن أبى الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إنى أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمى ، وغَصَبُونى حَقِّى ، وأجمعوا على منازعتى أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إنّ من الحق أن نأخذه ، ومن الحق أن تتركه .

وروى المسيّب بن نَجبة الفزارىّ ، قال : قال علىٌّ عليه السلام : من وجدتموه من بنى أميّة فى ماء فغطُّوا على صِماخه ، حتى يدخل الماء فى فيه .

وروى عمرو بن دينار ، عن ابن أبى مُليكة ، عن المِسْوَر بن مخرمة ، قال : لقى عبدالرحمن ابن عوف عمرَ بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلوهم فى آخر الأمر كما قاتلتموهم فى أوله؟ قال : بلى ؛ ولكن ذاك إذا كان الأمراء بنى أمية والوزراء بنى مخزوم!

وروى أبو عمر النَّهدىّ ، قال : سمعت علىّ بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبُّنا .

وروى سفيان الثورىّ ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَخْترىّ ، قال : أثنى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب فى وجهه ـ وكان يُبغضه ـ فقال علىّ : أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك .

وروى أبو غسان النهدىّ ، قال : دخل قوم من الشيعة على علىّ عليه السلام فى الرَّحَبة ، وهو على حَصير خَلَق ، فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : حبُّك يا أمير المؤمنين ، قال : أما إنه مَنْ أحبّنى رآنى حيث يحبّ أن يرانى ، ومن أبغضنى رآنى حيث يكره أن يرانى ، ثم قال : ما عَبَد اللهَ أحدٌ قبلى إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو فعلتموها ! ثم قال لى وأنا غلام : وَيْحَك ، انصر ابنَ عمك ! وَيْحك لا تخذله ،

---

(١) يقال : أصفى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحثنى على مؤازرته ومكانفته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلى أنت معنا ياعمّ ! » فقال : لاأفعل يابن أخى ، لاتعلونى استى . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبّة العُرَنى ّ، قال: قال علىّ عليه السلام: مَنْ أحبّنى كان معى ؛ أما إنكَ لو صُمْت الدهر كلَّه ، وقمت الليل كله ، ثم قُتِلت بين الصفا والمروة ـ أوقال بين الرُّكن والمقام ـ لما بعثك الله إلا مع هواك بالغا ما بلغ ؛ إنْ فى جنة ففى جنة ، وإن فى نار ففى نار .

وروى جابر الجعفىّ ، عن علىّ عليه السلام أنه قال : مَنْ أحبّنا أهلَ البيت فليستعدّ عدة للبلاء .

وروى أبو الأحوص، عن أبى حيّان عن علىّ عليه السلام : يهلِك فىّ رجلان، محبّ غالٍ ، ومبغض قالٍ .

وروى حماد بن صالح، عن أيوب ، عن كهمس؛ أنّ عليا عليه السلام قال : يهلِك فىّ ثلاثة: اللاعن والمستمع المقرّ ، وحامل الوِزْر، وهو الملك المترَف، الذى يُتقرّب إليه بلعنى ، ويُبرأ عنده من دينى ، ويُنتقص عنده حسبى ؛ وإنما حَسَبِى حسب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودينى دينه . وينجو فىّ ثلاثة : مَنْ أحبنى، ومَنْ أحبّ محبّى ، ومَنْ عادى عدوى؛ فمن أشرِب قلبُه بغضِى أوَ ألّب على بغضى ؛ أو انتقصنى ؛ فليعلم أنّ الله عدوه وخصمه[١]؟ والله عدو للكافرين .

وروى محمد بن الصَّلْت ، عن محمد بن الحنفيّـة ، قال : مَنْ أحبّنـا نفعـه الله بحبّنا ، ولو كان أسيرا بالدَّيْلم .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن علىّ عليه السلام ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليـه وآله : « إنّ فيك لَشَبَهاً من عيسى بن مريم ، أحبّته النصـارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليست له ، وأبغضته اليهود حتى بهتَتْ أمّه » .

---

(١) ج : « وجبريل خصمه ».

ورَوَى صاحب كتاب "الغارات" حـديثَ البراءة على غَـيْرِ الوجه المذكور في كتاب "نَهْج البلاغة"، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعوديّ، عن يحيى بن سليمان العبديّ، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: خطب عليٌّ عليه السـلام على مِنْبر الـكوفة، فقال: سيُعرَض عليكم سَبّي، وستذبحون عليـه؛ فإن عُرِض عليكم سَبّي فسُبّوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وسلّم؟ ولم يقل: «فلا تَبْرَءوا مني».

وقال أيضا: حدّثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام. قال: قال عليّ عليه السلام: والله لتُذبحنّ على سَبّي — وأشار بيده إلى حَلْقه — ثم قال: فإن أمَرُوكم بسبّي فسبُّوني؛ وإن أمرُوكم أن تبرءوا مني فإنّي على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة.

وروى شيخُنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كُهيل، عن المسيّب بن نَجَبة، قال: بينا عليّ عليه السلام يخطُب إذ قام أعرابيّ، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه عليّ عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظُلمت عدد المدَر والوبر. قال: وفي رواية عباد بن يعقوب، أنّه دعاه فقال له: وَيحك! وأنا والله مظلوم أيضا؛ هاتِ فلنَدْعُ عَلَى مَنْ ظلمَنا.

وروى سَدِير الصيرفيّ، عن أبي جعفر محمـد بن عليّ، قال: اشتـكَى عليّ عليه السلام شَـكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبيّ صلى الله عليه وآله، فسألهما: مِنْ أين جئتما؟ قالا: عُدْنا عليًّا، قال: كيف رأيتماه؟ قال: رأيناه يُخاف عليه مما به، فقال: «كلا إنه لن يموت حتى يُوسَع غدرا وبغيًا، وليكوننّ في هذه الأمة عبرةً يعتبر به الناس من بعده».

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن الغنوىّ ، أن علياعليه السلام خطب بالرّحبة، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قدأبيتم إلا أن أقولها ! وربِّ السماء والأرض ، إنّ من عهد النبىّ الأمىّ إلىّ : « إنّ الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله؛ وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافى أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله دخل عَلَى فاطمة عليها السلام ، فوجد عليًّا نائما ، فذهبت تنبّهه ، فقال : « دعيه فربّ سهرٍ له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتى مِنْ أجله شديدة » فبكت ؛ فقال : « لا تبكى فإنكما معى ، وفى موقف الكرامة عندى » .

وروى الناس كافة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا ولِيِّى وأناولِيُّه عاديت مَنْ عاداه ؛ وسالمت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضا محمد بن عبيد الله بن أبى رافع ، عن زيد بن على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « عدوك عدوّى وعدوّى عدوّ الله عزّ وجلّ » .

وروى يونس بن حباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىّ بن أبى طالب معنا ، فمررنا بحديقة ، فقال علىّ : يارسول الله ، ألا تَرَى ماأحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك فى الجنّة أحسن منها » ؛ حتى مررْنا بسبع حدائق ، يقول علىّ ماقال ،ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وَقف فوقفنا ، فوضع رأسه عَلَى رأس علىّ وبكى ، فقال علىّ : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : « ضغائن فى صدور قوم لا يُبدُونها لك حتى يفقدونى » ،

فقال : يارسول الله ، أفلا أضع سيفى عَلَى عاتقى فأبيدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال : فإن صبرتُ ! قال : تلاقى جهدا ، قال : أفى سلامةٍ من دينى ؟ قال : نعم ، قال : فإذاً لاأبالى .

وروى جابر الجعفىّ ، عن محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام : مارأيت منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله رخاء ، لقد أخافتنى قريش صغيرا ، وأنصبتنى كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامّة الكبرى ، والله المستعان على ماتصفون !

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر عَلَى الناس رجل من أمتى ، عظيم السَّرْم ، واسع البُلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وِزرْ الثَّقَلين ، يطلب الإمارة يوما ، فإذا أدركتموه فابقروا بطنَه ، قال : وكان فى يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب ، قد وضع طرفه فى بطن معاوية .

قلت : هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله على عليه السلام فى " نهج البلاغة " ، ومؤكّد لاختيارنا أنّ المراد به معاوية ، دون ماقاله كثير من الناس أنّه زياد والمغيرة .

وروى جعفر بن سليمان الضبعىّ ، عن أبى هارون العبدىّ ، عن أبى سعيد الخدرىّ قال : ذكَر رسول الله صلى الله عليه وآله يوما لعلىّ مايلقى بعدَه من العَنت فأطال ، فقال له عليه السلام : أنشدك الله والرَّحمَ يارسول الله لما دعوت الله أن يقبِضَنى إليه قبلك ! قال : كيف أسأله فى أجلٍ مؤجّل ! قال : يارسول الله ، فعلام أقاتل مَنْ أمرتنى بقتاله ؟ قال : عَلَى الحدَث فى الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدُّهنىّ ، عن أبى صالح الحنفىّ ، عن علىّ عليه السلام ، قال :

***

قال لنا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى المنام ، فشكوت إليه مالقيتُ حتى بكيت ، فقال لى : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، وإذا رجلان مصفّدان ـ قال الأعمش : هما معاوية وعمرو بن العاص ـ قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبهت .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبدالله بن سلمة ، عن علىّ عليه السلام ، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشكوت إليه ، فقال : هذه جهنّم ، فانظر مَنْ فيها ، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقين بأرجلهما منكّسين ، تُرْضَخ رءوسهما بالحجارة ـ أو قال : تُشدَخ .

وروى قيس بن الربيع ، عن يحيى بن هانئ المرادىّ ، عن رجل من قومه يقال له زياد ابن فلان ، قال : كنا فى بيتٍ مع علىّ عليه السلام نحن شيعته[1] وخواصّه ، فالتفت فلم ينكرْ منّا أحداً ، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديَكم ويَسمُلون أعينَكم ، فقال رجلٌ منّا : وأنت حىّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذنى الله من ذلك ؛ فالتفتَ فإذا واحدٌ يبكى ، فقال له : يابنَ الحمقاء ، أتريد اللذات فى الدنيا والدرجات فى الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : كان علىّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزلْ معقّبا إلى أنْ تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلّمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ؛ فقام يوما فمرّ برجل ، فرماه بكلمة هُجْر ـ قال : لم يسمّه محمد بن علىّ عليه السلام ـ فرجع عَوْدَه على بدئه حتى صعِد المنبر ، وأمر فنودىَ : الصلاة جامعة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيّها الناس ، إنه ليس شىء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من

(١) ب : « نحن وشيعته وخواصه » .

حِلْم إمام وفقهه ؛ ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضررا من جهل إمام وخُرْقه ، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ؛ ألا وإنه من أنصف من نفسه لم يزِدْه الله إلا عزًّا ؛ ألا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقربُ إلى الله من التعزّز في معصيته . ثم قال : أين المتكلّم آنفا ؟ فلم يستطع الإنكار ، فقال : هأنذا يا أمير المؤمنين ، فقال : أما إني لو أشاء لقلت ، فقال : إن تعف وتصفح ، فأنت أهل ذلك ؛ قال : قد عفوت وصفحت ؛ فقيل لمحمّد بن عليّ عليه السلام : ماأراد أن يقول ؟ قال : أراد أن ينسبه .

وروى زرارة أيضاً ، قال : قيل لجعفر بن محمد عليه السلام : إن قوما هاهنا ينتقصون عليًّا عليه السلام ، قال : بِمَ ينتقصونه لا أبا لهم ! وهل فيه موضع نقيصة ! والله ماعَرَض لعليّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلا عمِل بأشدّهما وأشقّهما عليه ، ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار ، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له ؛ وإن كان ليقوم إلى الصلاة ، فإذا قال : وجّهت وجهيَ تغيّر لونه ؛ حتى يعرف ذلك في وجهه[1] ؛ ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده ؛ كلّ منهم[2] يعرق فيه جبينه ، وتحفى فيه كفّه ، ولقد بُشِّرَ بعين نَبَعَتْ في ماله مثل عنق الجزور ، فقال : بشّر الوارث بِشرّ ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، ليصرف الله النار عن وجهه ، ويصرف وجهه عن النار .

وروى القنّاد ، عن أبي مريم الأنصاريّ ، عن عليّ عليه السلام : لا يحبني كافر ولا ولد زنا .

وروى جعفر بن زياد ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : كنا بنور إيماننا نحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فمن أحبّه عرفنا أنه منا .

***

(١) ج : « لونه » .   (٢) ب : « كلهم » .

[فصل فى معنى قول علىّ : « فسبّونى فإنه لى زكاة »]

المسألة الثالثة :

فى معنى قوله عليه السلام : «فسبّونى،فإنه لى زكاة،ولكم نجاة»،فنقول:إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه ، لأنّ الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفّظ بكلمة الكفر ؛ فقال : ﴿ إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفّظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسبّ الإمام .

فأما قوله : « فإنه لى زكاة ولكم نجاة » ؛ فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين:أحدهما ماورد فى الأخبار النبويّة أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة فى حسناته .

والثانى : أن يريد به أن سبّهم لى لاينقص فى الدنيا مِنْ قدرى ، بل أزيد به شَرَفاً وعُلُوّ قدر،وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التى حاول أعداؤه بها الغضّ منه عللا لانتشار صيته فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نُباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العَلَوىّ :

وأبوكَ الوصىّ أوّلُ من شا ... دَ منار الهدى وَصَامَ وَصَلّى
نشرت حبله قريش فأعطتْـــهُ إلى صُبْحَة القيـامة فَتْلاَ

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبى المظفرهبة الله بن موسى الموسوىّ رحمه الله تعالى: فى قصيدة أذكر فيها أباه :

أمّكَ الدرة التى أنجبت من ... جَوْهَرِ المجـــدِ راضياً مَرْضِيّاً
وأبوكَ الإمامُ موسى كظيم الـــغيظِ حتى يُعِيـــدَهُ مَنْسِيّاً

وأبوه تاج الهُدَى جَعْفَرُ الصا دق وَحْياً عن الغُيوب وَحِيّا
وأبوه محمد باقرُ العِلْم مَضَى لَنا هادِياً مَهْدِيّا
وأبوه السجاد أتقى عباد الله لله مخلصا ووفيّا
والحسين الذى تخير أن يقضى عزيزاً ولا يعيشَ دنيّا
وأبوه الوصِىّ أولُ مَنْ طا فَ وَلَبّى سَبْعاً وساقَ الهدِيّا
طامَنتْ مجده قريش فأعطتْهُ إلى سِدْرَة السّماء رقيّا
أخْمَلَتْ صيتَه فطَار إلى أن مَلأ الأفْقَ ضَجّةً وَدَوِيّا
وأبو طالب كفيلُ أبى القاسِم كَهْلاً وَيافِعاً وَفَتِيّا
وَلِشَيْخِ البَطْحاء تاجُ مَعَدّ شيبةِ الحَمْدِ هل علمت سَمِيّا !
وأبو عمر العُلاَ هاشِمُ الجو دِ ومَنْ مثلُ هاشم بَشَرِيّا !
وأبوه الهمامُ عبد مناف قُلْ تقُلْ صادقاً وتُبْدِى بَدِيّا
ثم زيدٌ ـ أعنى قصىّ الذى لمْ يكُ عن ذِرْوَةِ العَلاء قَصِيّا
نسبٌ إن تلفّع النسب المحضُ لِفاعاً كان السليبَ العَرِيّا
وإذا أظلمت مُناسخة الأنساب يوماً كان الْمُنيرَ الجَلِيّا
يالهُ مجْدَةَ عَلَى قِدَم الدّهْرِ وقد يَفْضُلُ العَتِيقُ الطَّرِيّا

وذكرنا هاهنا ماقبل المعنى ومابعده ؛ لأنّ الشعر حديث ، والحديث ـ كما قيل ـ يأخذ بعضه برقاب بعض ؛ ولأنّ ماقبل المعنى ومابعده مكمّل له ، وموضح مقصده .

فإن قلت : أىّ مناسبة بين لفظ « الزكاة » وانتشار الصيت والسّمع ؟

قلت : لأنّ الزكاة هى النماء والزيادة؛ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمى المال للمزكى ، وانتشار الصيت نماء وزيادة .

[فصل فى اختلاف الرأى فى معنى السبّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأمّا السبُّ فسُبُّونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرءوا منى » ؟ وأىّ فرق بين السبّ والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبّ ومنَعهم عن التبرّؤ ، والسبّ أفحش من التبرُّؤ !

والجواب ؛ أما الذى يقوله أصحابنا فى ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبّه [1] والتبرّؤ منه ، فى أنّهما حرام وفسق وكبيرة ، وأنّ المكرَه عليهما يجوز له فعلُهما عند خَوْفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألّا يفعلهما وإن قتل ، إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازا للدين ، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأنّ هذه اللفظة ما وردت فى القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [2] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ .. أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [3] ، فقد صارت بحسب العرْف الشرعىّ مطلقَة على المشركين خاصّة ؛ فإذَنْ يُحمل هذا النهى على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبّ ، وإن كان حكمهما واحدا ؛ ألا ترى أنّ إلقاء المصحف فى القذر أفحشُ من إلقاء المصحف فى دَنّ الشراب ؛ وإن كانا جميعا محرّمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإمامية فتروى عنه عليه السلام أنه قال : إذا عُرِضتم على البراءة منّا فمدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه [4] لايجوز التبرّؤ منه ؛ وإن كان الحالف صادقا ، وإنّ عليه الكفارة .

---

(١) ج : « السب » .
(٢) سورة التوبة ١ .
(٣) سورة التوبة ٣ .
(٤) ساقطة من ا .

ويقولون : إنّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ومن أحد الأئمة عليهم السلام ، حكم واحد .

ويقولون : إنّ الإكراه على السبّ يُبيح إظهاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرّؤ ، والأولى أن يستسلم للقتل .

* * *

[فصل فى معنى قول علىّ : « إنى ولدت على الفطرة »]

المسألة الخامسة :

أن يقال : كيف علّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله : « فإنى ولدْت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام ، لأن كلّ أحدٍ[1] يولَد على الفطرة ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهوّدانه وينصرانه » .

والجواب ، أنه عليه السلام علّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهى كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع ، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولَدْ فى الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاما مضت من عام الفيل ؛ والنبىّ صلى الله عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل ؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكَث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه السلام فحُكم تلك السنين العَشْر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبوّة ، وليس بمولود فى جاهلية محضة ، ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته فى الفضل . وقد روى أنّ السّنَة التى ولد فيها علىّ

(١) ج : « واحد » .

عليه السلام هى السنة التى بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأُسمِع الهُتاف من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصا ؛ ولم يخاطَب فيها[١] بشيء . وهذه السَّنَة هى السنة التى ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حراء ، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمّن بتلك السنة وبولادة عَلِيّ عليه السلام فيها ، ويسمّيها سَنَة الخير وسنة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن مِنْ قبلها شاهد من ذلك شيئا : « لقد وُلد لنا الليلة مولود يفتَحُ الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصره والحامىَ عنه وكاشف الغمّاء[٢] عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام ، ورست دعائمه ، وتمهّدت قواعده عليه السلام .

وفى المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعنى بقوله عليه السلام : « فإنى ولدتُ على الفطرة » ، أى على الفِطْرة التى لم تتغيّر ولم تَحُلْ ، وذلك أن معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفِطْرة » أنّ كلّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذى خلقه فيه وبصحّة الحواس والمشاعر لأنْ يعلَم التوحيد والعدْل ، ولم يجعل فيه مانعا يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة فى الوالدين والإلف لاعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فُطِر عليه ؛ وأميرُ المؤمنين عليه السلام دون غيره ، وُلِد على الفطرة التى لم تَحُلْ ولم يصدّ عن مقتضاها مانع ؛ لا من جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما ، وغيره ولد على الفِطْرة ، ولكنه حال عن مقتضاها ، وزال عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة ؛ وأنّه منذ ولد لم يواقع قبيحا ؛

(١) ج : « منها » .
(٢) ج : « الغم » .

ولا كانَ كافرا طَرْفَةَ عين قطّ ، ولا مخطئا ولا غالطا فى شىء من الأشياء المتعلّقة بالدين .
وهذا تفسير الإمامية .

***

[فصل فيما قيل من سبْق علىٍّ إلى الإسلام]

المسألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان » ، وقد قال قوم [١] من الناس : إنّ أبا بكر سَبَقه ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سبَقه ؟

والجواب ، أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة رَوَوْا أنه عليه السلام أوّل من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبى عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدّث فى فى كتابه المعروف " بالاستيعاب " .

قال أبو عمر فى ترجمة [٢] علىّ عليه السلام : المروىّ عن سلْمان وأبى ذَرّ والمقداد وخَبّاب وأبى سعيد الخدرىّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفَضّله هؤلاء على غيره .

قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أوّل من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى عليه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شِهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة » .

قال أبو عمر : وحدّثنا أحمد بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الفَضْل ، قال : حدثنا محمد بن جرير ، قال : حدّثنا على بن عبد الله الدّهقان ، قال : حدّثنا محمد بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عِكْرمة ، عن ابن عباس ، قال : لعلىّ عليه السلام أربع خصال ، ليست

(١) ب : « كثير » ، وما أثبته من ج . (٢) الاستيعاب ١٠٨٩ وما بعدها .

لأحدغيره :هو أوّل عربىّ وعجمىّ صلى مع رسول اللهصلى اللهعليه وآله ،وهوالذى كان معه لواؤه فى كل زَحْف ، وهو الذى صبر معه يوم فَرّ عنه غيره ؛ وهوالذى غَسّلهوأدخلهقبره.

قال أبو عمر : ورُوِى عن سلمان الفارسىّ أنه قال : أوّلهذه الأمةورُوداعلى نبيّهاصلى الله عليه وآلهالحوضَ ، أولها إسلاما : عَلِىّ بن أبىطالب. وقد رُوِىهذا الحديثمرفوعاً عن سلمان عن النبىّصلى الله عليه وآله ، أنه قال : « أوّل هذه الأمة وروداً عَلَىّ الحوض أوّلُها إسلاما : عَلِىّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : ورفعه أوْلى ، لأن مثله لا يُدْرَك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا بن الحارث بن أبى أسامة ، قال : حدثنى يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثورىّ ، عن سلمة بن كُهَيل ،عن أبى صادق ،عن حَنَش بن المعتمِر ،عن عُلَيم[1] الـكِندىّ ، عن سلمان الفارسىّ ، قال :قال رسول الله صلى الله عليه وآله :«أوّلـكم وارداعَلَىّ الحوض أوّلُـكم إسلاما ؛ عَلىٌّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسىّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بَلْج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول مَنْ صلى مع النبى صلى الله عليهوآله بعدَ خديجة عَلىٌّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بنسفيان ، قال:حدثنا قاسم بن أصبَغ ،قال:حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، قال :حدثنا الحسن بن حماد، قال : حدثناأبوعوانة،عنأبى بَلْج عن عمروو بن ميمون ،عن ابنعباس، قال: كان عَلىٌّ أول منآمن من النّاس بعدخديجة.

قال أبو عمر : هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد ؛لصحتهوثقة نَقَلَته ؛ وقد عارض[2]

(١) فى الأصول : « عكيم » ، وما أثبته عن الاستيعاب .

(٢) ج . « عورض » ، والاستيعاب : « وهو يعارض » .

ماذكرنا فى باب أبى بكر الصديق ، عن ابن عباس : والصحيح فى أمرِ أبى بكر أنه أول مَنْ أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابنُ شهاب ،وعبد الله بن محمد بن عَقِيل ، وقتادة ، وابن إسحاق عَلَى أنّ أول من أسلم(١) من الرجال علىّ. واتفقوا على أن خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به ، ثم علىٌّ بعدها .

وروى عن أبى رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدّثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردىّ ، قال : حدثنا عُمر مولى غُفْرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظىّ عن أول مَنْ أسلم :علىّ أم أبى بكر ؟ فقال : سبحان الله ! عَلىٌّ أوّلُهما إسلاما ؛ وإنما شُبِّه على الناس ؛ لأنّ عليا أَخْفَى إسلامه من أبى طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر : ولا شك عندنا أنّ عليا أوّلُهما إسلاما ، ذكر عبد الرزاق فى جامعه، عن مَعْمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره قالوا : أول مَنْ أسلم بعد خديجة علِىٌّ بن أبى طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزرىّ ، عن مِقْسَم(٢) ، عن ابن عباس، قال : أوّل مَنْ أسلم عَلىٌّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وروى ابنُ فضيل عن الأَجْلح ، عن حَبّة بن جوين العُرنىّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن حَبّة العرنىّ ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أوّل مَنْ صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

---

(١) ج : « آمن » .

(٢) هو مقسم بن بجرة . ويقال : نجدة .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبي الجعد ، قال : قلت لابن الحنفيّة : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا .

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائيّ ، عن أنس بن مالك ، قال : استنبئ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلّى عليّ يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر: وقال زيد بن أرقم: أوّلُ مَنْ آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب .

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ما حدثنا به عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال: حدثنا عليّ بن الجعْد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرني عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصاريّ قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ،[1]] ، حدثنا أبي ، قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبي الأشعث ، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكنديّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنت امرأ تاجرا ، فقدمت الحجّ ، فأتيت العبّاس ابن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة — وكان امرأ تاجرا — فوالله إنّي لعنده بمنًى . إذ خرج رجل من خِباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلّي ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامتْ خلفه تصلى ، ثم خرج غلام حين راهقَ الحلمُ من ذلك الخباء ، فقام معه يصلّي ، فقلتُ للعباس : ما هذا ياعباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخي ، قلتُ : مَنْ هذه المرأة ؟

(١) من الاستيعاب .

قال : امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : ماهذا الفتى ؟ قال : علىّ بن أبى طالب ابن عمه ، قلت : ماهذا الذى يصنع ؟ قال : يصلّى ، وهو يزعم أنه نبىّ ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابنُ عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتَح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر ، قال : فكان عُفَيف الكندىّ يقول ـ وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه : لوكان الله رزقنى الإسلام يومئذ كنتُ أكون ثانيا مع علىّ .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هذا الحديث من طُرق فى باب عفيف الكندىّ من هذا الكتاب .

قال أبو عمر : ولقد قال علىّ عليه السلام : صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ، لا يصلّى معه غيرى إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلّها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البرّ فى الكتاب المذكور ، وهى كما تراها تكاد تكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنما الاختلافُ فى كميّة سنّه عليه السلام يوم أسلَم ، ذكر الحسن ابن علىّ الحلوانىّ فى كتاب " المعرفة " له ، قال : حدّثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث ابن سعد ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه أنّ عليا والزبير أسلما وهما ابنا ثمانى سنين . كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة ؛ وذكره أيضا ابنُ أبى خيثمة عن قُتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبى الأسود ؛ وذكره عمر بن شبّة ، عن الحزامىّ ، عن أبى وهب ، عن الليث ، عن أبى الأسود ، قال الليث : وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبى الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن على الحلوانىّ ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علىّ وهو ابن خمس عشرة سنة .

قال أبو عمر : وأخبرَنا أبو القاسم خلَف بن قاسم بن سهل ، قال: حدّثنا أبو الحسن علىّ بن محمد بن إسماعيل الطوسىّ ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السرّاج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، عن الحسن، قال : أسلم علىّ ـ وهو أول مَنْ أسلم ـ وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة سنة .

قال أبو عمر : قال ابنُ وضّاح : ومارأيت أحدا قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأى من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذكرٍ آمن[1] بالله ورسوله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر : والروايات فى مَبْلغ سنّه عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتىْ عشرة سنة . وقيل : ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقيل : ابن ستّ عشرةَ . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر : وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنىّ ، عن ابن جَعْدة، عن نافع، عن ابن عمر قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحزامىّ ، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال : حدثنى جدى إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان علىّ بن أبى طالب عليه السلام والزبير ابن العوام وطَلْحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص أعمارا واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن علىّ الخطبىّ ، قال : حدّثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنا حُجَيْن أبو عمر ، قال: حدثنا حِبّان، عن معروف، عن أبى معشر ، قال: كان علىّ عليه السلام وطلحة والزبير فى سنٍّ واحدة .

(١) ج : « أسلم » .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أنّ أوّلَ مَنْ أسلم بعد خديجة عليّ ابن أبى طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب ، عن ميمون بن مِهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم عليّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصحّ ماقيل فى ذلك والله أعلم .

انتهى حكاية كلام أبى عمر فى كتاب " الاستيعاب " .

***

واعلم أنّ شيوخنا المتكلّمين لا يكادُون يختلفون فى أنّ أوّل الناس إسلاما عليّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ إلا مَنْ عساه خالف فى ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالةُ عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ، لا تكاد تجد اليوم فى تصانيفهم وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا فى ذلك .

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مازال يدّعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله فى أفضليّته عَلَى غيره ، ويصرّح بذلك ، وقد قال غير مرة : أنا الصدّيق الأكبر ، والفاروق الأوّل ، أسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وصلّيت قبل صلاته .

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة فى كتاب " المعارف "[1] وهو غير متّهم فى أمره .

ومن الشعر المرويّ عنه عليه السلام فى هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبيّ أخى وصِهْرِى ... وحمزة سيّدُ الشهداء عَمِّى

ومن جملتها :

سبقتكمُ إلى الإسلام طُرًّا ... غلاما ما بلغتُ أوَانَ حِلمى

(١) المعارف ١٦٧

والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فلتُطلَبْ من مظانّها .

ومن تأمل كتب السِّيَر والتورايخ عرَف مِنْ ذلك ماقلناه .

فأمّا الذاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدَمهما إسلاما فنفر قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البرّ أيضا فى كتاب " الاستيعاب " فى ترجمة أبى بكر[1] .

قال أبو عمر : حدثنى خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال: حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، قال : سألت ابنَ عباس — أو سئل : — أىّ الناس كان أوّل إسلاما؟ فقال : أما سمعتَ قول حسان بن ثابت :

إذا تذكّرْتَ شَجْواً مِنْ أخِى ثقةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا[2]
خَيرَ البريّة أتقاها وأعدلَها ... بعدَ النبىّ وأوفاها بما حَمَلا
والثانىَ التالىَ المحمودَ مَشْهَدُه ... وأوّلُ الناس منهم صَدّقَ الرسلا

ويُرْوَى أن النبى صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت فى أبى بكر شيئا؟» ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيفِ وَقَدْ ... طاف العدوُّ به إذ صَعّدُوا الجَبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنتَ ياحسان »؛ وقد روى فيها بيت خامس :

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علمُوا ... مِن البريّةِ لم يَعْدِلْ بهِ رَجُلا

---

(١) كتاب الاستيعاب ص ٩٦٤

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

وقال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخَعِيّ ، قال : أوّل مَنْ أسلم أبو بكر .

قال : وَرَوى الجريريّ،عن أبى نصر ، قال:قال أبو بكر لعلىّ عليه السلام:أنا أسلمت قبلك ؛ فى حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مِحْجَن الثّقفىّ :

وَسُمِّيتَ صِدِّيقاً وكلُّ مهاجر ... سواك يسمّى باسمه غير منكَرِ

سبقتَ إلى الإسلامِ واللهُ شاهدٌ ... وكنتَ جليساً بالعريشِ المُشهَّرِ

وبالغار إذ سُمِّيت خِلاً وصاحباً ... وكنت رفيقاً للنبىّ المطهَّرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبى أمامة الباهلىّ ، قال : حدثنى عمرو ابن عَبَسة،قال:أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله؛وهو نازل بعُكَاظ،فقلت : يارسولَ الله ، من اتَّبعَك عَلَى هذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك ، وذكر الحديث .

هذا مجموع ماذكره أبو عمر بن عبد البرّ فى هذا الباب فى ترجمة أبى بكر ؛ ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التى ذكرها فى ترجمة علىّ عليه السلام الدالّة عَلَى سَبْقه؛ ولا ريب أنّ الصحيح ماذكره أبو عمر أنّ عليًا عليه السلام كان هو السابق،وأن أبا بكر هو أوّلُ من أظهر إسلامَه ، فظنّ أن السبق له .

وأما زيد بن حارثة ؛ فإنّ أبا عمر بن عبد البرّ رضى الله تعالى عنه ذكر فى كتاب " الاستيعاب " ؛ أيضاً فى ترجمة زيد بن حارثة،قال : ذكر معمَر بن شبّة فى جامعه عن الزهرىّ أنه قال : ماعلمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة [1] .

---

(١) الاستيعاب ٥٤٢

قال عبد الرزّاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهرىّ .

ولم يذكر صاحب " الاستيعاب " مايدلّ على سبق زيد إلا هذه الرواية؛ واستغربها؛ فدلّ مجموع ماذكرناه أنّ عليا عليه السلام أوّلُ الناس إسلاما، وأن المخالف فى ذلك شاذّ، والشاذّ لا يعتدّ به .

* * *

[فصل فيما ذكر من سبْق علىّ إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال: كيف قال : « إنه سبق إلى الهجرة » ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر فى صحبة النبىّ صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علىّ عليه السلام عنهما(١)، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياما يردّ الودائع التى كانتْ عنده ، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب، أنّه عليه السلام لم يقل : « وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال: « وسبقت » فقط ؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة ؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبلَه أحد إلا نفر يسير جدا .

وأيضا فقد قلنا إنه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سَبْقه إلى الهجرة؛ وهذه الأمور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره ؛ فكان بمجموعها متميّزا عن كلّ أحد من الناس .

وأيضاً فإنّ اللام فى « الهجرة » يجوز ألّا تكون للمعهود السابق ، بل تكون للجنس، وأميرُ المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التى قبل هِجْرة المدينة؛ فإنّ النبىّ صلى الله عليه وآله هاجرَ عن مكة مرارا يطوف على أحياء العرب ، وينتقل من

---

(١) ج : « عنه » .

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان عليٌّ عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بنى شيبان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنّهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بنى شيبان ما أرادوه من النُّصْرَة .

وروى المدائنيّ فى كتاب '' الأمثال '' عن المفضّل الضبيّ ؛ أنّ[1] رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة يعرِض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه عليٌّ عليه السلام وأبو بكر ، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدّم أبو بكر — وكان نَسّابة — فسلّم فردُّوا عليه السلام ؛ فقال : ممّن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمِنْ هامَتِها أم من لَهازمها ؟[2] قالوا : من هامَتها العظمى ، فقال : مِنْ أىّ هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : من ذُهْل الأكبر ، قال : أفمنكم عَوْف الذى يقال له : لا حُرّ بوادى عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم جَسّاس حامِى الذّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم الحوْفزان ، قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفَرْدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم أخوالُ الملوك من كِنْدة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهْلا الأكبر ؛ أنتم ذُهْل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَل[3] وجهه ، اسمه دَغْفَل ، فقال :

إنّ على سائِلِنا أنْ نَسْأَلَهْ والعِبْءَ لا تعرِفُهُ أو تَحمِلَهْ

---

(١) الخبر فى مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسره صاحب اللسان فقال : « وفى حديث أبى بكر والسابة : « أمن هامتها أو لهازمها » ؛ أى من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ واللهازم أصول الحنكين ؛ واحدتها لهزمة بالكسر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة » .

(٣) بقل وجهه ؛ أى خرج شعره .

ياهذا ، إنك قد سألتنافأجبناك ، ولم نكتمك شيئا ، فممن الرجل ؟ قال :من قريش، قال : بخ بخ ! أهل الشرف والرياسة ؛ فمن أي قريش أنت ؟ قال: من تيم بن مرة، قال : أمكنت والله الرامي من الثغرة[١] ؛ أمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يدعى مجمعا ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذي هشم لقومه الثريد ؟[٢] قال : لا ، قال : أفمنكم شيبة الحمد ، مطعم طير السماء ؟[٣] قال : لا ، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الرفادة[٤] أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل السقاية ؟ قال :لا ،قال : فاجتذب أبو بكر زمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاربا من الغلام ؛ فقال دغفل :

* صادف درء السيل درءا يصدعه[٥] *

أما والله لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات[٦] قريش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله . وقال علي عليه السلام لأبي بكر : لقد وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على باقعة؛ قال: أجل ؛ إن لكل طامة طامة والبلاء موكل بالمنطق ، فذهبت مثلا .

***

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، فكان معه علي عليه السلام وزيد بن

---

(١) فى مجمع الأمثال : « من صفاء الثغرة » .

(٢) بعده فى مجمع الأمثال : « ورجال مكة مسنتون عجاف » .

(٣) بعده فى مجمع الأمثال : « الذى كان فى وجهه قمر يضيء ليل الظلام الداجى » .

(٤) فى اللسان : « الرفادة شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية ؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته ، فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام الموسم ، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم والسدانة واللواء لبنى عبدالدار ؛ وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الوادى بالسيل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسيل إذا أتاك من حيث لاتحتسبه : سيل درء ؛ أى يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

(٦) الزمعة فى الأصل : التلعة الصغيرة ، أى لست من أشرافهم . وانظر اللسان (زمع) .

حارثة فى رواية أبى الحسن المدائنى ، ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحْدَه ، وغاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكة فى هذه الهجرة أربعين يوما ؛ ودخل إليها فى جوار مُطْعِم بن عدىّ .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بنى عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان ؛ فإنه لم يكن معه إلا علىّ عليه السلام وَحْدَه ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبى طالب ؛ أوحِى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرُك ، فخرج إلى بنى عامر بن صعصعة ؛ ومعه عَلِىّ عليه السلام وحدَه ، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته فى هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهى أوّل هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أوّل هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه فهجرةُ الحبشة ؛ هاجر فيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة فى البحر ؛ منهم جعفر بن أبى طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سلم وطالت أيامه[1] وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خَيْبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدرى بأيّهما أنا أسَرّ ؛ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر » !

---

(١) ج : « مدته » .

(٥٧)

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأصل:

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ .

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ » ، يُرْوَى عَلَى ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها أن يكونَ كما ذَكَرْناهُ : « آبِر » بالرّاء ؛ من قولهم : رَجُلٌ آبِرٌ ؛ للذى يَأْبُرُ النَّخل ، أى يُصْلِحُهُ .

وَيُرْوَى : « آثِرٌ » بالثّاء ، بثلاث نقطٍ ، يُرَاد به الذى يَأْثِرُ الحديثَ ، أى يرويه ويحكيه ؛ وهو أصحُّ الوُجُوه عندِى ، كأنهُ عليهِ السلام قال : لا بَقِيَ منكم مُخْبِرٌ .

وَيُرْوَى : « آبِزٌ » بالزّاى المعجمة ، وهو الوَاثِبُ ، والهالِكُ أيضاً يُقَالُ له : آبِزٌ .

* * *

الشَّرحُ :

الحاصب : الريح الشديدة التى تُثير الحصباء ؛ وهو صغار الحصى ؛ ويقال لها أيضا حَصِبَة ، قال لَبيد :

جَرَّتْ عَلَيْهَا إِذْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا أذيالَهـا كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَه[1]

فأما التفسيرات التى فَسّر بها الرضىّ رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن أن يزاد فيها ، فيقال : يجوز أن يريد بقوله : « ولا بقى منكم آبِر » أى نَمّام يفسد ذات البين ؛ والمئبرَة : النميمة ، وأبر فلان ، أى نَمّ ،والآبر أيضا : مَنْ يبغى القوم الغوائل خفْيةً ، مأخوذ من أبَرْتُ الكلب إذا أطعمته الإبرة فى الخبز ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أنْ يكون أصلُه « هابر » ؛ أى مَنْ يضرب بالسيف فيقطع؛ وأبدلت الهاء همزة، كما قالوا فى : « آل »أهل ؛ وإن صحّت الرواية الأخرى « آثر »بالثاء بثلاث نقط ،فيمكن أن يريد به ساجى باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يَسْجُون باطن الخفّ بحديدة ليقتصّ أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام :« فأوبوا شرّ مآب » ، أى ارجعوا شرّ مرجع . والأعقاب:جمع عَقِب بكسر القاف ؛ وهو مؤخّر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أوّلا : أصابكم حاصِب ، وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن أبى مُقْبل :

فَإِذَا خَلَتْ من أهلِهـا وقطينِها فأصابَها الحصْبـــــاء والسَّفَانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقى منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرّ مرجع » ، ثم قال لهم رابعاً :« عودوا على أثر الأعقاب » : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَنُرَدُّ[2]

---

(١) ديوانه ٣٥٥ البيت أيضاً فى اللسان ١ : ٣١٠

(٢) سورة الأنعام ٧١

عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللهُ ﴾ ؛ والمراد انعكاس حالهم؛ وعودهم من العزّ إلى الذلّ ؛ ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثَرَة يتّخذها الظالمون فيكم سنّة » فالأثَرَة ها هنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله للأنصار: « ستلقون بعدى أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقونى » .

[أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم]

واعلم أن الخوارجَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابَه وأنصارَه فى الجمل وصِفّين قبل التحكيم ؛ وهذه المخاطبة لهم ، وهذا الدعاء عليهم ؛ وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم ، وقد وقع ذلك ، فإنّ الله تعالى سلّط عَلَى الخوارج بعده الذلّ الشامل ، والسيف القاطع ، والأثرة من السلطان ، وما زالت حالُهم تضمحلّ ؛ حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جُمهورَهم ؛ ولقد كان لهمْ من سيف المهلّب بن أبى صفرة وبنِيه الحتْف القاضى ، والموت الزؤام .

ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم هاهنا طرفا .

***

[عروة بن حدير]

فمنهم عُروة بن حُدَيْر أحد بنى ربيعة بن حنظلة من بنى تميم ؛ ويعرف بعُرْوة ابن أدَيّة ، وأديّة جدة له جاهليّة ؛ وكان له أصحاب وأتباع وشيعة ، فقتله زياد فى خلافة معاوية صبرا .

***

[نجدة بن عويمر الحنفىّ]

ومنهم نجدة بن عُوَيمر[1] الحنفىّ ، كان من رؤسائهم ؛ وله مقالة[2] مفردة من مقالة الخوارج

---

(١) وهو نجدة بن عامر ؛ وانظر الكامل ٣ : ١٨٤ .

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١١٠ – ١١٢

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصَّلَتان العبدىّ بقوله[١] :

أرى أمّــة شَهرَتْ سيفَهـــا	وقد زيدَ فى سوطِها الأصبحِى[٢]
بنجديّة أو حَــرُورِيّةٍ	وأزرق يــدعو إلى أزْرقِى
فملّتنا أنّنـــا مسلمونَ	على دِين صدّيقنـــا والنّبى
أشابَ الصغيرَ وأفنَى الـكبـ	ـيرَ مرُّ الغَدَاةِ وكَرُّ العَشِى
إذا ليـــلة أهْرَمَتْ يومَها	أتى بعــد ذلك يوم فَتِى
نَرُوح ونغــدو لحاجاتِنـــا	وحاجــةُ مَنْ عاشَ لا تنقضِى
تموت مع المرء حاجاتُـــه	وتبــقى له حاجة ما بَقِى

وكان نجدة يصلّى بمكة بحذاء عبدالله بن الزبير فى جمعه [فى كلّ جُمُعَةٍ][٣]، وعبدالله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرَم .

وقال الراعى يخاطب عبد الملك[٤] :

إنى حَلَفْتُ عَلَى يمينٍ بَرّةٍ	لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلاَ
ما إن أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً	يوماً أريدُ لبيعتى تبــديلا[٥]
ولَمّــا أتيت نُجيدة بن عُوَيْمرٍ	أبغِى الهُدَى فيزيدُنى تضليلا
مِنْ نعمةِ الرحمن لامِنْ حيلتِى	أنّى أعـــدُّ لهُ عَلَىّ فُضُولا !

واستولى نَجْدة على اليمامة ، وعظُم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعُمان والبحرين ووادِى تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نَقَموا عليه أحكاماً أحدثهافى مذهبهم ؛ منهاقوله: إنّ

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٩١ — بشرح التبريزى ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ، والكامل ٦ : ١٠١ — بشرح المرصفى مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٢) السوط الأصبحى: منسوب إلىذى أصبح الحميرى ؛ وكان أولمن اتخذ هذه السياط التى يعاقب عليها السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ — بشرح المرصفى

(٣) من كتاب الكامل بشرح المرصفى٦: ١٠٢

(٤) من ملحمته فى جمهرة أشعار العرب ١٧٤

(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير .

المخطىء بعد الاجتهاد معذور ، وإن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ؛ وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهله ؛ إلى أن تقوم عليهم الحُجّة ؛ فمن استحل محرّما من طريق الاجتهاد فهو معذور ؛ حتى إن مَنْ تزوّج أخته أو أمه مستحلًّا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن ؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه ؛ فاختار لهم أبافُدَيك، أحد بنى قيس بن ثعلبة؛ فجعله رئيسَهم . ثم إن أبافُدَيك أنفذ إلى نَجْدة بعدُ مَنْ قتله ، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرّقوا عليه ؛ وقالوا : قتل مظلوما .

***

[المستورد بن سعد التميمىّ]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بنى تميم ؛ كان ممن شهد يوم النُّخَيْلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيف علىّ عليه السلام ؛ ثم خرج بعد ذلك بمدّة على المغيرة بن شعبة، وهو والى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان فى جماعة من الخوارج ؛ فوجّه المغيرة إليه معقِل بن قيس الرّياحىّ ، فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له :علام تقتَل الناس بينى وبينك؟ فقال معقل: النَّصَفَ سألت ، فأقسم عليه أصحابُه، فقال : ما كنت لآبىَ عليه؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتين ، خرّ كلّ واحد منهما من ضربة صاحِبه قتيلا .

وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة ؛ وله آداب وحكم مأثارة[1] .

***

[حوثرة الأسدىّ]

ومنهم حَوْثرة الأسدىّ ، خرج على معاوية فى عام الجماعة فى عِصابة من الخوارج ؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة ، فلما نظر حَوْثرة إليهم ، قال لهم : يا أعداء الله؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه ؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدُّوا سلطانه! فلما

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوربا) ؛ وأورد من كلامه : إذا أفضيت بسرى إلى صديقى فأفشاه لم أله؛ لأنى كنت أولى بحفظه . لاتفش إلى أحدسرا وإن كان مخلصا إلاعلى وجه المشاورة . كن أحرص الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك .

التحمت الحرب قتِل حوثرة ، قتله رجل من طيّئ ، وفضّت جموعه(١) .

***

[قريب بن مرة وزحّاف الطائىّ]

ومنهم قُريب بن مرّة الأزدىّ ؛ وزَحّاف الطائىّ ، كانا عابدين مجتهديْن من أهل البصرة ، فخرجا فى أيام معاوية فى إمارة زياد؛ واختلف الناس : أيّهما كان الرئيس؟ فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضُبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه ــ وكان يقال له رُؤْبة الضُّبَعى ــ وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قَطيعة ، من الأزد ، وفى يده السّيْف ، فناداه الناس من ظهور البيوت الحرورِيّة : انجُ بنفسك ؛ فنادوْه : لسنا حَرُورية ، نحن الشُّرَط [فوقف](٢) فقتلوه ؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أُدَيّة خبرُهما ، فقال : قريب ، لاقرّبه الله! وزحّاف لاعفا الله عنه! ركباها عَشْواء مظلِمة ــ يريد اعتراضهما الناس ــ ثم جعلا لايمرّان بقبيلة إلا قَتَلا مَن وجدا ؛ حتى مَرّا على بنى علىّ بن سُود ، من الأزد؛ وكانوا رماة، كان فيهم مائة يُجيدون الرمى ؛ فرموهم رَمْياً شديداً فصاحوا : يا بنى علىّ ، البقيا ، لارِماء بيننا .
فقال رجل من بنى علىّ بن سود :

لَاشَىْءَ للقوم سِوَى السِّهامِ ... مشحوذةً فى غَلَسِ الظَّلامِ

فعرّد عنهم الخوارج(٣) ، وخافوا الطلب ، واشتقّوا مقبرة بنى يشكُر حتى نفذُوا إلى مُزَيْنَة ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحِيَة ، من بنى سُود ، وقبائل من مُزَيْنة وغيرها ، فاستقتلت الخوارج ، وحاربت حتى قُتِلت عن آخرها ، وقُتِل قُرَيب وزَحّاف(٤) .

---

(١) الكامل ٥٧٩ (طبع أوربا) .
(٢) من كتاب الكامل
(٣) عردوا ، من التعريد وهو الفرار .
(٤) الكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوربا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أُدَيّة ، وهو أخو عروة بن حُدير الذى ذكرناه أولا ، خرج فى أيام عُبيدالله بن زياد ، وأنفذ إليه ابنُ زياد عباسَ بن أخضر المازنىّ ، فقتله وقتل أصحابه، وحُمل رأسه إلى ابن زياد ، وكان أبو بلال عابدا ناسكا شاعرا، ومن قدماء أصحابنا مَنْ يدّعيه ، لِمَا كان يذهب إليـه من العَدْل وإنـكار المنكر ، ومن قدماء الشيعة من يَدّعيه أيضاً .

* * *

[نافع بن الأزرق الحنفىّ]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفىّ ، وكان شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفتِي بأنّ الدار دار كفر، وأنهم جميعا فى النار، وكلّ مَنْ فيها كافر، إلّا من أظهر إيمانه ، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة ، ولا أن يأكلوا مِنْ ذبائحهم ، ولا أن يناكحوهم ، ولا يتوارث الخارجىّ وغيره ، وهم مثل كفّار العرب وعَبَدة الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعَد بمنزلتهم، والتقيّة لا تحلّ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[1]، وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[2]، فتفرّق عنه جماعة من الخوارج ؛ منهم نجدة بن عامر ، واحتج نَجْدة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ،[3] فسار نَجْدَة وأصحابه إلى اليمامة، وأضاف نافع إلى مقالته التى[4] قدّمناها ، استحلالَه الغدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نَجْدة إليه :

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٣) سورة غافر ٢٨

(٤) ب : « مقالة » .

أمّا بعدُ ؛ فإنّ عهدى بك وأنت لليتيم كالأبِ الرحيم ، وللضّعيف كالأخ البرّ ، تعاضد قوىّ المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لا تأخذُك فى الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونةَ ظالم ؛ كذلك كنتَ أنت وأصحابك ، أولا[(١)] تتذكر قولك : لولا أنى أعلمُ أنّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شَرَيْتَ نفسَك فى طاعة رَبّك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحقِّ فَصّه[(٢)] ، وصبَرْتَ على مُرّه ، تجرّدَ لك الشيطان ؛ ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك ؛ وأغواك فغويت ، وأ كفرت الذين عَذَرهم الله تعالى فى كتابه ، من قَعَدةِ المسلمين وضَعَفتهم ، قال الله عزّ وجلّ ، وقوله الحقّ ، ووعده الصدق : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[(٣)] : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[(٤)] ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن قتلهم ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[(٤)] ، وقال سبحانه فى القَعَدة خيرا ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾[(٥)] فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة مَنْ هو دون المجاهدين ، أوَمَا سمعت قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ ﴾[(٦)] فجعلهم من المؤمنين . [وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم][(٧)] ثم إنك لا تؤدى أمانةً إلى مَنْ خالفك ، والله تعالى قد أمرَ أنْ تؤدّى الأمانات إلى أهلها . فاتق الله فى نفسك ، واتّقِ يوماً لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمُه العدل ، وقولُه الفصل . والسلام[(٨)] .

---

(١) الكامل : « أما »　　(٢) فصه : كنهه
(٣) سورة التوبة ٩١
(٤) سورة الإسراء ١٥
(٥) سورة النساء ٩٥
(٦) سورة النساء ٩٥
(٧) من كتاب الكامل
(٨) الكامل ٦١٢ (طبع أوربا) .

فكتب إليه نافع :

أما بعـــد ، أتانى كتابُك تعظُنى فيه ، وتذكِّرنى وتنصحُ لى وتزجرنى ، وتصفُ ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسألُ الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه .

وعبتَ علىّ مادِنْتُ به ، من إكفار القَعَدةِ وقَتْل الأطفال ، واستحلالِ الأمانةمن المخالفين ، وسأفسر لك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القَعَدةُ ، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه ، لأنهم كانو بمكةمقهورين محصورين لايجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد تفقّهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح . وقد عرفت ماقال الله تعالى فيمن كان مثلَهم ، إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾[3] فخبّر بتعذيرهم ، وأنهم كذَبُوا الله ورسوله ، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] فانظر إلى أسمائهم وسِماتهم .

وأما الأطفـال ، فإن نوحا نبىّ الله كان أعلَمَ بالله منِّى ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[4] ، فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك

---

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

فى قوم نوح ، ولا تقوله فى قومنا[1] ؛ والله تعالى يقول : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾[2] ، وهؤلاء كمشركى العرب ، لا يقبل منهم جِزْية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأمّا استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنّ الله تعالى أحلّ لنا أموالهم ، كما أحلّ دماءهم لنا ، فدماؤهم حَلال طِلْق[3] ، وأموالهم فىء للمسلمين ؛ فاتّقِ الله وراجع نفسكَ ، فإنه لا عذرَ لك إلا بالتوبة ؛ ولن يسعَك خِذلاننا والقعود عنّا وترك ما نهجناه لك من مقالتنا ، والسلام على من أقرّ بالحقّ وعمل به[4] .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة : أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . إنّكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المقام بين أظهر الكفّار ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾[5] ، ولم يجعلْ لكم فى التخلّف عذرا فى حالٍ من الأحوال ، فقال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[6] وإنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، ومَن كانت إقامتُه لِعلّة ، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿ لا يستوى الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل الله ﴾[7] ، فلا تغترّوا وتطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرّارة مكّارة ، لذّتها نافدة ، ونعيمها بائد ، حُفّتْ بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرة[8] وأضمرت عَبْرة ، فليس آكلٌ منها أُكْلَة تسرّه ، ولا شاربٌ منها شربة تؤنقه[9] إلا ودنا بها درجَة إلى أجله ، وتباعد بها مسافة من أمله ، وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المُقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قرارا ، فاتقوا الله وتزوّدوا ،

(١) الكامل : ولا نكون نقوله فى قومنا » . (٢) سورة القمر ٤٣

(٣) يقال : حل طلق ، أى حلال طيب .

(٤) الكامل للمبرد ٦١٣ (طبع أوربا) .

(٥) سورة التوبة ٣٦

(٦) سورة التوبة ٤١ (٧) سورة النساء ٩٥

(٨) الحبرة : النعمة .

(٩) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى»(١).

فلما أظهر نافعٌ مقالته هذه ، وانفرد عن الخوارج بها ، أقام فى أصحابه بالأهواز يستعرض الناس ، ويقتُل الأطفال، ويأخذ الأموال ، ويَجْبِى الخراج، وفشا عُمَّاله بالسواد ، فارتاع لذلك أهلُ البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمِّر عليهم أميرا يحميهم من الخوارج ، ويجاهدَ بهم ؛ فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمّى بِبَّة ، فسأله أن يؤمِّر عليهم – وببّة يومئذ أميرُ البصرة من قِبَل ابن الزبير – فأمّر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْز ، وكان ديّنا شُجاعا ، فلما خرج بهم من جِسْر البصرة ، أقبل عليهم ، وقال: أيّها الناس ، إنى ما خرجت لامتيار(٢) ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح ، فمن كان شأنه الجهاد ، فلينهضْ ، ومَنْ أحبَّ الحياةَ فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير ، ومضى الباقُون معه ، فلما صاروا بدُولَاب(٣) خرج إليهم نافع وأصحابُه ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسَّرت الرماح : وعُقِرت الخيل : وكثُر الجراح والقتل ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد(٤) ، فقتِل ابنُ عُبيْس أمير أهل البصرة ، وقتِل نافع بن الأزرق أمير الخوارج : وادَّعَى قَتْلَه سلامة الباهلىّ ، وكان نافع قد استخلف عبيدالله ابن بشير بن الماحُوز السّليطى اليربوعىّ ، واستخلف ابن عُبَيْس الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانىّ اليربوعىّ ، فكان الرئيسان من بنى يَرْبُوع ، فاقتتلوا بعد قتل ابن عُبيس ونافع قتالا شديدا نَيِّفا وعشرين يوما ؛ حتى قال الربيع لأصحابه : إنّى رأيت البارحة كأنّ يدى

---

(١) الكامل ٦١٥ (طبع أوربا) .
(٢) امتيار : مصدر امتار لأهله ؛ أى جلب لهم الميرة ، والميرة : الطعام .
(٣) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .
(٤) العمد ، بفتحتين ، أو بضمتين جمان للعمود .

التى أصيبت بِكابُلِ انحطت من السماء ، فاسْتَشْلَتْنى(١)، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القِتال، فقتِل ، فتدافع أهلُ البصرة الراية ، حتى خافوا العَطَب ، إذ لم يكن لهم رئيس . ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحِميرىّ ، فأباها ، فقيل له: ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ! فقال : إنها مشئومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها فلم يَزَلْ يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبىّ ، وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاء شهر ، فاختلفا ضربتيْن ، فخرّا ميّتين(٢).

وقام حارثة بن بدر الغُدانىّ بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشةً خفيفة ؛ ويزجى الأوقات انتظاراً لقدوم أمير من قبل بِبّة يلى حَرْب الخوارج : وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب: وهى من حُروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

* * *

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعىّ]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحُوز اليربوعىّ ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قَتْل نافع بن الأزرق : وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمىّ : ولاه عبدالله بن الزُّبير ذلك ، ولقيه كتابُه بالإمارة وهو يريد الحج ، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا ، فلقيه أهلُ البصرة الذين كانوا فى وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغُدانىّ ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ فى سوق الأهواز، فلما عبر

---

(١) استشلتنى ؛ قال المبرد : استشلتنى ؛ أى أخذتنى إليها واستنقذتنى ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .

(٢) الكامل ٦١٦ـ ٦١٧ (طبع أوربا) .

عثمان إليهم دُجَيلا ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عثمان لحارثة : ماالخوارج إلا ماأرى ؛ فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لاجَرَم ! لا أتغدّى حتى أناجَزهم ، فقال حارثة : إنّ هؤلاء القوم لايقاتلون بالتعسّف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال: أبيتم ياأهلَ العراق إلا جُبْنا اوأنت ياحارثة ماعلمك بالحرب ! أنت والله بغير هذا أعلم ـ يُعرِّض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب ـ فغضب حارثة ، فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجْلَت الحرب عنه قتيلا ،وانهزم الناس ، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس :أنا حارثة بن بدر !فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلا، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بنى تميم :

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ	وأعقبَنا هـــذا الحجازىّ عثمانُ(١)
فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ	وأبرق ، والبرقُ اليمانىّ خَوّانُ(٢)
فَضَحْتَ قريشـــاً غَثَّها وسمينَها	وقيـل بنو تيم بن مرةَ عُــزلانُ(٣)
فلولا ابنُ بدرٍ للعراقَيْن لم يَقُمْ	بمـــا قام فيه للعِراقَيْن إنسانُ
إذا قيل مَنْ حامى الحقيقــة ؟ أومأت	إليه مَعَــــدٌّ بالأكفّ وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزْله ، وولى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومىّ المعروف بالقُباع(٤) البصرة،فقدمها ، فكتبَ إليه حارثة بن بدْر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليتَه ،فقال له رجل من بَكْرِ بن

(١) الأبيات فى الكامل ٦٢٥ (طبعة أوربا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعى أنه خطأ . . . وأنه لايقال إلا رعد وبرق . . . وروى غير الأصمعى : أرعدوأبرق على ضعف . وقوله : والبرق اليمانى خوان ، يريد : والبرق اليمانى يخون

(٣) كذا فى الكامل : وفى ا ، ج : « غيلان » ، وفى ب : « غرلان » . وعزلان : جمع أعزل ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمى الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولى البصرة ؛ فمر على الناس مكاييلهم ؛ فنظر إلى مكيال صغير فى مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكيالكم هـذا لقباع ؛ والقباع : الذى يخفى أو يخفى مافيه . الكامل ٧ : ٤٣ ـ بشرح المرصفى .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنما هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ، معاقراً للخمر ؛ وفيه يقول رجل من قومه [(١)] :

أَلم تَرَ أَنَّ حارثةَ بْنَ بَدْرٍ يُصَلِّى وهْــوَ أَكْفَرُ من حِمَارِ

أَلم تَرَ أَنَّ للفتيــانِ حَظًّا وحظُّكَ فى البغــايا والعُقَارِ [(٢)]

فكتب إليه القُباع : تُكْفَى حربَهم إن شاء الله . فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرّق أصحابه عنه وبقى فى خِفٍّ منهم ؛ فأقام بنهر تِيرَى، فعبرت إليه الخوارج، فهرب مَنْ تخلّف معه من أصحابه ؛ وخرج يركض حتى أتى دُجَيلا ، فجلس فى سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بنى تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛ وقد توسّط حارثة دُجَيلا ، فصاح به : ياحارثة ، ليس مثلى يضيع ! فقال للملّاح : قرّب ، فقرّب إلى جُرُف [(٣)]، ولا فُرْضة هناك ، فَطَفَر [(٤)] بسلاحه فى السفينة، فساخت بالقوم جميعا ، وهلك حارثة [(٥)] .

***

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب "الأغانى الكبير" أن [(٦)] حارثة لما عقدوا له الرئاسة ، وسلّموا إليه الراية ، أمرهم بالثّبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، ونَدَب الناس ، فالتقوْا وليس بأحدٍ منهم طِرْق [(٧)] قد فشت فيهم الجراحات ، وما تطأ الخيلُ إلّا على القتلى ؛ فبيناهم كذلك ، إذْ أقبل جمعٌ

---

(١) نقل المرصفى فى رغبة الآمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازنى .
(٢) العقار : الخمر .
(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل سن الوادى والنهر .
(٤) طفر : وثب .
(٥) الكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوربا)
(٦) الأغانى ٦ : ١٤٦ وما بعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف فى الرواية .
(٧) طرق ، أى قوة .

من الشراة من جهة اليمامة ، ـ يقول المكثّر : إنهم مائتان ، والمُقلّل : إنهم أربعون ـ فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم، فصاروا كَوْكَبَةً[(١)] واحدة ، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزما ، وقال لأصحابه :

كَرْنِبُوا وَدَوْلِبُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فاذْهَبُوا[(٢)]

وقال :

أيْرُ الحِمار فريضةٌ لعبيدِكُمْ والخصيتَان فريضة الأعراب

قال : كَرنبوا ، أى اطلبوا كرنبَى، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوْلِبوا : اطلبوا دُولاب ، وهى ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتْهم الخوارج ، فألقى الناس أنفسَهم فى الماء ، فغرق منهم بدُجَيل الأهواز خلق كثير .

***

[الزبير بن علىّ السّليطىّ وظهور أمر المهلّب]

ومنهم الزُّبير بن على السليطىّ التّميمى ، كان على[(٣)] مقـدمة ابن الماحوز ، وكان ابن الماحوز يخاطَب بالخلافة ، ويخاطَب الزبير بالإمارة . ووصل الزبير بعـد هلاك حارثة ابن بدر ، وهرب أصحابُه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفاً شديدا ، وضجّ أهلُ البصرة إلى الأحنف ، فأتى القُباع ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا العدوّ قد غَلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصُرَنا فى بلدنا حتى نموت هُزالا . قال : فسمُّوا إلىّ رجلا يلى الحرب،فقال الأحنف : لا[(٣)] أرى لها رجلا إلا المهلّب بن أبى صُفرة؛ فقال : أو هذا رأى

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغانى « كبكبة » وهما بمعنى .
(٢) الكامل للمبرد ٨ : ١٠ وما بعدها ـ بشرح المرصفى .
(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن الرأى لايخيل » ، أى لا يشكل ولا يشتبه .

جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلىّ فى غد لأنظر . وجاء الزبير حتى نزل على البصرة ، وعَقَد الجسْرَ ليعبُر إليها ، فخرج أكثرُ أهل البَصْرة إليه ، وانضمّ إلى الزبير جميع كُوَر الأهواز وأهلها رغبة ورهبة،فوافاه البصريون فى السُّفُن وعلى الدّوابّ[1] ، فاسودّت بهم الأرض،فقال الزبير لما رآهم:أبى قومُنا إلا كفراً ؛ وقطع الجسر ، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القُباع ، وخافوا الخوارج خوفا شديدا، وكانوا ثلاث فرق : سُمّى قومٌ المهلّب ، وسمّى قوم مالك بن مِسْمع ، وسمّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكىّ ، فاختبر القُباع ماعند مالك وزياد ، فوجدهما مُتثاقلين عن الحرب ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما، وقالوا : قد رجعْنا عن رأينا ؛ مانرى لها إلا المهلّب ، فوجّه إليه القُبَاع فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ، قد ترى ماقد رَهِقَنا من هذا العدوّ ، وقد أجمع أهلُ مصرك عليك ؛ وقال له الأحنف : يا أبا سعيد ، إنّا والله ما آثرناك ، ولكنّا لم نَرَ مَنْ يقوم مقامك .

ثم قال القُبَاع ـ وأومأ إلى الأحنف ـ : إنّ هذا الشيخَ لم يسمّك إلا إيثاراً للدّين والبقيا[2] وكلُّ مَنْ فى مِصْرك مادٌّ عينَه إليك ، راجٍ أن يكشف الله عنه هذه النقمة بك ، فقال المهلّب : لاحول ولا قوة إلا بالله، إنّى عند نفسى لدون ماوصفتم،ولست آبِى مادعوتم إليه؛ لكنّ لى شروطا أشترطها ؛ قالوا : قل،قال:على أن أنتخب مَنْ أحببت! قال الأحنف : ذاك لك،قال : وَلى إمرَة كلّ بلد أغلب عليه! قالوا : لك ذلك،قال : ولى فَىْء كلّ بلد أظفر به! قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ؛ إنما هو فَىْء للمسلمين ؛ فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوّهم ، ولكن لك أن تعطىَ أصحابك من فىء كلّ بلد تغلب عليه ماأحببت ، وتُنفق منه على محاربة عدوّك ؛ فما فَضَل عنكم كان للمسلمين ؛ فقال المهلّب : لاحول ولا قوة إلا بالله ! فمنْ لى بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرك ، قال : قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتابا ، وَوُضِع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الجعفىّ ، وانتخب المهلّب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخْبَته اثنى عشر ألفا ، ونظروا فى بيت المال،

(١) فى الكامل بعد هذه الكلمة : « ورحالة » .

(٢) كذا فى ج . وفى ا ، ب : « التقى » ، وهى ساقطة من الكامل .

فلم يكن إلا مائتى ألف درهم ، فعجزتْ . فبعث المهلّب إلى التّجار ، فقال : إنّ تجاراتكم منذ حول قد فَسَدت بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم ، فهلمّوا فبايعونى واخرُجوا معى أوفِّكم حقوقَكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلَح به عسكَره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين[1] والرّانات المحشوّة بالصوف؛ ثم نهض ـ وكان أكثر أصحابه رَجّالة ـ حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فَرَغ منها ، ثم أمر الناس بالعُبور ، وأمّر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشطّ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربوهم وحاربهم المغيرة ، ونَضَحهم[2] بالسهام حتى تنحَّوْا ، وصار هو وأصحابه على الشطّ ، فحاربوا الخوارج ، فكشفوهم وَشَغلوهم حتى عقد المهلب الجسْر وعبر ، والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم ، ففى ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهلَه لم يخبُرُوا ... مثلَ المهلّب فى الحروب فسلّموا
أمضى وأيْمَن فى اللّقاء نقيبةً ... وأقلّ تَهليلاً إذا ما أحجمُوا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبرىّ ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن شعر عطية[3] :

يُدْعى رجالٌ للعَطَاء وإنما ... يُدْعَى عطيّة للطِّعان الأجردِ

وقال فيه شاعر من بنى تميم :

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فَوْقَهُ ... إذا الحربُ أبْدَتْ عَنْ نَواجِذِها الفَمَا
به هَزَمَ الله الأزارقَ بَعْدَ مَا ... أباحُوا مِنَ المِصْرَيْنِ حِلاً ومَحْرَمَا

فأقام المهلّب أربعين ليلة يَجْبِى الخراج بكُور دَجْلة ، والخوارج بنهر تِيَرى ، والزبير ابن علىّ منفرِد بعسكره عن عسكر ابن الماحُوز ؛ فقضى المهلب التجار ، وأعطى أصحابه ،

---

(١) الخفتان : ثوب من القطن يلبس فوق الدرع . الألفاظ الفارسية ٥٦

(٢) نضحهم : رشقهم ورماهم .   (٣) الكامل : « فقال عطية » .

فأسرع الناس إليه رغبة فى مجاهدة العدوّ وطمعا فى الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدىّ وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قُرّة المُزَنى ، وكان يقول : لو جاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحرورية ، وجاءه أبو عمران الجَوْنى . وكان يروى عن كعب أنّ قتيل[1] الحَرُورية يفضُل قتيل[1] غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلّب إلى نهر تيرى ، فتنحوّا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلّب يَجْبِى ما حواليه من الكُوَر ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومَنْ فى عسكرهم ؛ وإذا حُشوَة[2] ؛ ما بين قَصّاب وحَدّاد وداعر[3] . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ! ولم يزل مقيما حتى فَهِمهم ، وأحكم أمرهم وقَوّى أصحابه، وكثُرت الفرسان فى عسكره ، وتتامّ[4] أصحابُه عشرين ألفا .

ثم مضى يؤمّ كُوَر الأهواز ، فاستخلَفَ أخاه المعارك بن أبى صُفرة على نهر تِيرَى، وجعل المغيرة على مقدّمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ، فانكشف عن المغيرة بعضُ أصحابه ، وثبت المغيرة نفسُه بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران فى بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلّب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القُباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإنا مذخَرَجْنا نؤمّ العدوّ ، فى نعم من فضل الله متّصلة علينا ، ونِقَمٍ متتابعة عليهم ، نُقْدِم ويحجمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ، إلى أن حَلَلْنا سوقَ الأهواز ، والحمد لله ربّ العالمين ، الذى من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

---

(١) ب « فتك » ، وما أثبته من ا ، ج والكامل .

(٢) الحشوة : رذال الناس .

(٣) الداعر : الخبيث المفسد . وفى الكامل : « ما بين قصار وصباغ وداعر وحداد »

(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئا لك أخا الأزد الشّرف فى الدنيا والأجر فى الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلّب لأصحابه : ما أجفَى أهل الحجاز أما ترونه عرف[١] اسمى وكنيتى واسم أبى!

قالوا : وكان المهلّب يبُثّ الأحراس فى الأمن ، كما يبثّهم فى الخوف ، ويُذْكِى[٢] العيون فى الأمصار كما يُذْكِيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابَه بالتحرّز ، ويخوّفهم البيَات[٣] ، وإن بَعُد منه العدوّ ، ويقول[٤] : احذروا أنْ تُكادوا كما تَكيدون ، ولاتقولوا :هَزمناهم وغَلَبناهم ، والقوم خائفون وجِلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيبا ، فقال : أيها النّاس ، قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فَتَنُوكم فى دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ماقاتَلهم عليه أوّلُكم علىّ بن أبى طالب ، لقد لقيهم[٥] الصابر المحتسب مسلم بن عُبَيس ، والعَجِل المفرِّط عثمان بن عبيد الله ، والمعصىّ المخالف حارثة بن بدر ، فقَتَلوا جميعا وقُتِلوا ، فالقوم بجدٍّ وَجِدّ فإنما هم مَهَنتكم وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ونقص فى أحسابكم وأديانكم أنْ يغلبكم هؤلاء على فيئكم ، ويطأوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمَنَاذر[٦] الصغرى ، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحُوز رئيسُ الخوارج رجلا يقال له واقد ، مولًى لآل أبى صُفْرة مِنْ سَبْى الجاهلية ، فى خمسين رجلا ، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تِيرى ، وبها المعارك بن أبى صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنُمِىَ

---

(١) الكامل : « يعرف » .

(٢) العيون : الجواسيس ؛ وإذكاؤها إرسالها .

(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقع بهم ليلا وهم غارون .

(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .

(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفى ب « لقيتم » ، وما أثبته من ج

(٦) مناذر الصغرى ، وكذلك مناذر الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبر إلى المهلّب ، فوجّه ابنَه المغيرة ، فدخل نهر تِيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزله عمّه فدفنَه ، وسكّن النـاس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسُولاف[١] والخوارج بها ، فواقعهم ،وحمل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلّب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس ويهوّن أمرَ الخوارج ، ويختالُ بين الصّفّين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ، هل لـكم فى قِتْلة فيهـا الجنّة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ، ثم كَبَا به فرسُه ، فقاتلهم راجلا قائما وبارِكا ، ثم كَثُرت به الجراحات فذبّب بسيفه ، ثم جعل يحثُو فى وجوههم التراب ، والمهلّبُ غيرُ حاضر ، فقُتِلَ ؛ ثم حضر المهلب فأُعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبرىّ : أسلمتُماَ سيدَ أهل العراق[٢] ، لم تُعِيناه ولم تستنقذاه حَسداً له ، لأنه رجل من الموالى ، ووبّخهما .

وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب فقتله ، فحمل عليه المهلّب فطعنه فقتله ، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلا ، وثبت المهلّب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص[٣] المهلب يومئذ حَيْصة . ويقول الأزد : بل كان يردّ المنهزمة ويحمى أدبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه فرّ ، وقال شاعرهم :

بِسُولَافِ أَضَعْتَ دماءَ قومى   وَطِرْتَ عَلَى مُواشِكَةٍ دَرُورِ[٤]

وقال آخر من بنى تميم :

تبعنا الأعْوَرَ الـكَذّابَ طَوْعاً   يُزَجِّى كلَّ أربعة حمـــارا[٥]

---

(١) سولاف ، بضم السين : قرية فى غرب دجيل ؛ قرب مناذر الـكبرى .

(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والـكامل : « سيد أهل العسكر » .

(٣) حاص حيصة : جال جولة .

(٤) قال المبرد : مواشـكة ، يريد سريعة ، ودرور ، « فعول » ، من در الشىء إذا تتابع .

(٥) يزجى : يسوق .

فياندمى عَلَى تَرْكِى عَطَـاَئِى مِعايَنَةً وأطلبُــــه ضِماَرا(١)
إذا الرحمــــن يَسّر لى قُفُولًا فَحَرّقَ فى قُرَى سولاف نارا

قوله : « الأعور الـكذاب » ، يعنى به المهلّب ، كانت عينه عارَتْ بسهم أصابها ، وسَمّوْه الـكَذّاب ، لأنه كان فقيها ، وكان يتأوّل ماورد فى الأثر من أنّ كلّ كذب يكتَب كذبا إلا ثلاثة : الـكذب فى الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعْد ، وكذب الرجل فى الحرب بتوعّد وَتهدّد(٢) . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله : « إنما أنت رجل فخذّل عنّا ما استطعت » . وقال : « إنمـا الحرب خُدعـة » ، فـكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ماضعف ، ويضعّف به من أمر الخوارج مااشتدّ ، وكان حَىّ من الأزد يقال لهم النَّدَب ، إذا رأو المهلب رائحا إليهم قالوا : راح ليكذب ، وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كلّ الفتَى لو كنت تصدقُ ماتقول

فبات المهلب فى ألفين ، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة ، فصاروا فى أربعة آلاف ، فخطب أصحابه ، فقال : والله مابكم من قلّة ، وماذهب عنـكم إلا أهل الجُبْن والضعف والطّبَع(٣) والطمع ، فإن يمسسكم قَرْح فقدْ مَسّ القَوم قَرْح مثله ؛ فسيروا إلى عدوّكم على بركة الله .

فقام إليه الحريش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أنْ تقاتلهم ، إلا أن يقاتلوك ؛ فإن فى أصحابك جِراحا ، وقد أثخنتْهم هذه الجولة .

فقبل منه ، ومضى المهلب فى عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ، فلم ير منهم أحدا

---

(١) الضمار : الغائب الذى لايرتجى . (٢) الـكامل : « يتوعد ويتهدد » .
(٣) الطبع فى الأصل : الصدأ يـكثر على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام

يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا المنزل ، فارتحل ، فعبر دُجَيلا وصار إلى عاقول[1] لا يؤتى إلا من جهة واحدة ، فأقام به ، وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفي يقوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

ألا طرَقت من آل مَيَّةَ طارِقَهْ ... عَلَى أنَّها معشوقة الدَّلِّ عاشقَهْ[2]

تراءت وأرض السُّوس بيني وبينها ... ورستاق سولافٍ حَمَتْه الأزارقهْ

إذا نحن شئنا صادفتنا عِصابة ... حَرُوريّة فيها من الموت بَارِقَهْ

أجازت علينا العسكرينِ كليهما[3] ... فباتت لنا دُون اللِّحَافِ معانقَهْ

فأقام المهلب في ذلك العاقُول ثلاثة أيام ثم ارتحلَ ، والخوارج بسِلّى وسِلّبْرَى فنزل قريبا منهم ، فقال ابن الماحُوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوّكم وقد هزمتموهم بالأمس ، وكسرتم حدهم ! فقال له واقد مولى أبي صفرة : يا أميرَ المؤمنين ، إنما تفرّق عنهم أهل الضعف والجُبْن ، وبَقِيَ أهل النَّجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً[4] هيّنًا ، لأني أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا ، وإن غَلَبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافَق واقد ، فقال ابن الماحوز : لا تعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظرا لكم .

ثم وجّه الزبير بن عليّ إلى عسكر المهلّب ، ليَنظرَ ما حالُهم ، فأتاهم في مائتين فحَزَرهم ورجع . وأمر المهلب أصحابه بالتحارُس ، حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبئة ، فالتقوا بسلّى وسلّبرى ، فتصافّوا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفين ، واتكأوا عليها ، وأخرج إليهم المهلّب أعدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرعوْن إلا الصلاة ، حتى إذا أمسوْا رجع كلّ قوم إلى معسكرهم ، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

---

(١) العاقول : منعطف الوادي .

(٢) ديوانه ١٦٢ .

(٣) في الكامل : « أجازت إلينا » ، وفي الديوان : « أجازت إلى » .

(٤) « ظفرك » .

ثم إن الخوارج تطاردُوا لهم فى اليوم الثالث ، فحَمَل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ، ثم إنّ رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلّب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ، كما صنعُوا يوم سُولاف فضعضعُوا الناس ، وفُقِد المهلّب وثبت المغيرة فى جمع أكثرهم أهل عُمَان .

ثم نجم[١] المهلّب فى مائة ، وقد انغمسَ كُمّاه[٢] فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوَة مربعة فوق المِغْفر محشوة قزًّا وقد تمزّقَتْ ، وإنّ حشوَها ليتطاير وهو يَلْهث ، وذلك فى وقت الظهر ، فلم يزل يحاربُهم حتى أتى الليل ، وكَثُر القتلى فى الفريقين ، فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجّه بالأمس رجلا من طاحيةَ بن سود بن مالك بن فَهْم ، من الأزْد من ثقاته وأصحابه ، يردُّ المنهزمين ، فمرّ به عامر بن مِسْمَع فردّه ، فقال : إنّ الأمير أذن لى فى الانصراف ، فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دَعْه فلا حاجة لى فى مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلّب فى ثلاثة آلاف ، وقد تفرّق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكم من قِلّة ! أيعجز أحدُكم أن يلقى رمحه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كِنْدة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلّب لأصحابه : أعدّوا مخالىَ فيها حجارة ، وارْمُوا بها فى وقت الغفلة ، فإنها تصدّ الفارس ، وتصرَعُ الراجل ، ففعلوا . ثم أمر مناديًا ينادى فى أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصَّبْر ، ويطمعهم فى العدوّ ، ففعل ذلك حتى مرّ ببنى العدَوّية ، من بنى مالك بن حنظلة ، فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلّب بسيِّدهم — وهو معاوية بن عمرو — فجعل يركُلُه[٣] برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! اعفنى من أمّ كَيْسان — والأزْد تسمى الركبة أم كَيْسان — ثم حمل المهلب وحملوا ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فجهد الخوارج ، ونادى مناد منهم : ألا إن المهلب قد قُتِل .

---

(١) نجم : ظهر .

(٢) الكامل : « كفاه » .

(٣) الركل : الضرب بالرجل خاصة .

فركب المهلب بِرْذوناً وَرْداً[١] ، وأقبل يركُض بين الصَّفّين ؛ وإنّ إحدى يديه لفى القَباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنُّوا أن أميرهم قد قتل ، وكَلّ الناس مع العصْر ، فصاح المهلّب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذكْوان مولاه : قدِّم رايتك ؛ ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تغرِّر بنفسِك ، فزَبره وزجَره ، وصاح : يا بنى سلمة ، آمركم فتعصوننى ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحُوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لى رجلاً جَلْدا يطوف فى القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جَرْم ، وقالوا : إنا لم نر قطّ رجلًا أشدّ منه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجريح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيِه وحَمْله ، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان فى نِصْف الليل ، وجّه رجلا من اليَحْمَد[٢] فى عشرة ، فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرّجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشدّ خوفاً ، احذروا البَيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أنّ المهلب قال لأصحابه يوما : إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شِعاركم : « حمٓ لا يُنصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شعار أصحاب علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

فلما أصبح القوم غدَوْا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحُوز قتيلا ، ففى ذلك يقول رجل من الخوارج :

---

(١) الكامل : « برذونا قصيرا أشهب » .
(٢) اليحمد : بطن من الأزد .

بِسِلّى وسِلّبْرى مَصارع فتيــــةٍ   كِرام وعَقْرَى من كُمَيْتٍ ومن وردِ[1]

وقال آخر :

بِسلى وسِلبْرى جماجم فتيـــــةٍ   كرام وصَرْعى لم توسَّد خدودها[2]

وقال رجل من موالى المهلّب : لقد صرعت يومئذ بحجر واحـد ثلاثة ، رميت به رجلا فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثا ؛ وفى ذلك يقول رجل من الخوارج :

أتانا بأحجَار ليَقتلنا بها   وهَل يُقْتَلُ الأبطالُ وَيْحَكَ بالحجَرْ !

وقال رجل من أصحاب المهلب فى يوم سِلّى وسِلّبْرَى وقتل ابن الماحوز :

ويوم سِلّى وسِلّبْرى أحاطَ بهم   مِنّا صواعقُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ[3]

حتى تركنا عُبيد الله مُنْجَدِلا   كما تجدّل جِذْعٌ مالَ مُنْقَعِرُ[4]

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلّى حمل على رجـل من أصحاب المهلب ؛ فطعنه ، فلما خالطه الرّمح صاح : يا أمّتاه ! فصاح به المهلب : لا كثّر الله منك فى المسلمين[5] ! فضحك الخارجىّ ، وقال :

أُمُّكَ خَيْرٌ لك منّى صاحباً   تَسقيك مَحْضاً وتَعُلّ رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تَشاجرت فى وجهه ، نَكّس[6] عَلَى

---

(١) نقل المرصفى عن ابن برى أنه لأبى المقدام بيهس بن صهيب الحنفى . وعقرى : جمع عقير ، بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سلى وسلبرى ، ضبطهما المبرد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بفتحهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز

(٣) قال المبرد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو تميم يقولون : صاقعة وصواقع » .

(٤) المنقعر : المنقلع من أصله .

(٥) كذا فى ج ، وفى ب : « مثلك » ، وفى الكامل : « بمثلك المسلمين » .

(٦) نكس : طأطأ .

قَرَبُوس[1] السَّرْج ، وحَمَل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وأثّر فى أصحابها ، فتحُوميت الميمنة من أجله ، وكان أشدّ ما تـكونُ الحربُ استعاراً أشَدّ ما يكون تبسما . وكان المهلّب يقول : ما شَهِد معى حَرْباً قطّ إلا رأيت البُشْرَى فى وجهه !

وقال رجل من الخوارج فى هذا اليوم :

فإنْ تَكُ قَتْلَى يَوْمَ سِلَّى تتابعت ... فـكَمْ غادرتْ أسيافُنامِنْ قُماقِمِ[2]

غَدَاةَ نَـكُرُّ المشرفِيَّةَ فِيهِمُ ... بِسُولافَ يومَ المأزِقِ المُتَلاحِمِ[3]

فـكتب المهلب إلى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة القُباع[4] :

أما بعد ، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدّ وجِدّ ، فـكانت فى الناس جَوْلة ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظ والصَّبر بنيَّات صادقة ، وأبدانٍ شداد ، وسيوف حِدَاد ، فأعقب الله خيرَ عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئةً[5] رماحنا ، وضرائبَ[6] سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

فـكتب إليه القُباع :

قد قرأت كتابَك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وُهِب[7] لك شرفُ الدنيا وعِزُّها ، وذُخِر لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة وأجرُها ، ورأيتُك أوثقَ حصون المسلمين ، وهادّ

---

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ ولـكل سرج قربوسان مقدم ومؤخر .

(٢) القماقم ، بضم أوله : السيد الـكثير الواسع الفضل ؛ كالقمقام .

(٣) المأزق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجة متلاحمة ؛ وهى التى تشق اللحم دون العظم ثم تتلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرفية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام .

(٤) فى الـكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . . . » .

(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .

(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ماضربت بسيفك

(٧) الـكامل : « وهب الله لك . . . وذخر لك . . . » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة وأخا السّياسة ، فاستدِم الله بشكره ، يتمّ عليك نعمَه . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على مافارقتك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب وينظر فى تضاعيفها ، ويلتمس كتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يرَه ، قال لأصحابه : أما كَتَب أبو بحر ؟ فقال له الرسول : إنّه حمّلنى إليك رسالة ، فأبلغه ، فقال : هذا أحبُّ إلىّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرّجان، فبايعوا الزبير بن علىّ، وهو من بنى سَليط بن يربُوع، من رهط ابن الماحُوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفا بيّنا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ،فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْى ، وإن يُصَب منكم أميرُالمؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خَلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعا الأجذم والحجاج بن رباب [1] وحارثة بن بدر ، وأشجيْتُم المهلّب وقتلتم أخاه المُعارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [2]، فيوم سِلَّى كان لكم بلاء وتمحيصا، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغْلَبنّ على الشُّكر فى حينه ، والصبر فى وقته ، وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلّب ، فنفحهم المهلّب نفحة فرجعوا وأكْمَنُوا للمهلّب ـ فى غَمْضٍ [3] من غُموض الأرض يقرُب من عسكره ـ مائةفارس ليغتالُوه، فسار المهلّب

(١) الكامل : « باب » .
(٢) سورة آل عمران ١٤٠
(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوما يُطِيف بعسكره ، ويتفقّد سوادَه ، فوقف على جبل ، فقال : إنّ من التدبير لهذه المارِقة أنْ تكون قدأ كْمَنَتْ فى سفح هذا الجبل كمينا؛ فبعث المهلّب عشرة فوارس، فاطّلعوا على المائة ، فلما علموا بهم قطعُوا القنطرة ونجوْا وانكشفت الشمس فصاحوا : ياأعداء الله ، لو قامت القيامة لجددنا ونحن فى جهادكم [1] .

ثم يئس الزُّبَير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كرّ راجعا إلى أرّجان ، وقدجمع جموعا؛ وكان المهلّب يقول : كأنى بالزبير وقد جمع لكم ؛ فلا ترْهبوهم؛ فتنخبَ [2] قلوبُكم ، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطمعوا فيكم . فجاءوه من أرّجان ، فلقوه مستعدًّا آخذاً بأفواه الطُّرق ، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً بيّنا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى يربوع :

سَقَى اللهُ المهلّبَ كُلّ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِىّ يَنْتَحِرُ انتِحَارَا [3]

فمـــا وَهَنَ المهلّب يوم جاءتْ عوابس خيلهمْ تبغى الغِوارا [4]

وقال المهلب يومئذ : ما وقفتُ فى مضيق من الحرب إلا رأيت أمامى رجالاً من بنى الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُون ، وكأنّ لحاهم أذناب العَقَاعق [5] و [كانوا] [6] صبروا معه فى غير مواطن .

وقال رجل من أصحاب المهلّب من بنى تميم :

---

(١) فى الكامل : « لجددنا فى جهادكم » .

(٢) تنخب : تضعف ، وفى الكامل : « تخبث » .

[illegible] : مطر الربيع الأول ، سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ وانتحر الوسمى ، أي انبعق بماء كثير ؛ ومنه قول الراعى :

فَمَرّ عَلَى مَنازِلها وَأَلْقَى بِهَا الأَثْقَالَ وانْتَحَر انتِحَارَا

(٤) الغوار : مصدر غاور العدو مغاورة وغوارا ؛ أغار عليه .

(٥) العقاعق : جمع عقعق ؛ وهو طائر ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب .

(٦) من الكامل .

أَلَا يَامَنْ لِصَبٍّ مُسْتَهَامٍ[1] قَرِيحِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَزُونَا[2]

لهـــان على المهلّب مالقينـا إذا ما راح مسروراً بطِينـا[3]

بجُرّ الســابِرِىَّ وَنَحْنُ شُعْثٌ كأنّ جلودنا كُسِيَتْ طَحِينـا[4]

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف ؛ وكان من أنجد فُرسان الخوارج ، فطعنَه فدقّ صلبه ؛ وقال :

قيس الإكاف غَدَاةَ الرَّوْعِ يَعْلَمُنِي ثَبْتَ الْمَقَامِ إذا لاقيتُ أقْرَانِي

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سِلَّى وسِلَّبْرى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أنّ المهلب قد أُصيبَ ، فهمّ أهل البصرة بالنُّقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابُه بظَفَرِه ، فأقام الناس ؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم ؛ فعند ذلك قال الأحنف : البَصْرة بَصْرة المهلّب . وقدم رجل من كِنْدة يعرف بابن أرقم ، فنعى ابنَ عمّ له ، وقال : إنى رأيت رجلاً من الخوارج ، وقد مكّن رمحه من صُلبه ، فلم ينشب أنْ قدم المنعىّ سالما ، فقيل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم ، لمّا أحسَسْتُ برمحه بين كتفىّ صِحْت به: البَقِيّة ، فرفعه ، وتلا: ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[5]. ووجّه المهلّب بعقب هذه الوقعة رجلاً من الأَزْد ، برأس عبيدالله بن بشير بن الماحُوز إلى الحارث بن عبدالله ، فلما صار بكُرْبُج[6] دينار لقيته إخوة عبيد الله : حَبيب وعبـد الملك وعلىّ بنو بشير بن الماحُوز

---

(١) الكامل : « مستحن » ، من استحنه الشوق إلى وطنه ؛ أى استطربه .

(٢) قال المبرد : المزون : عمان ؛ وهو اسم من أسمائها ، قال الكميت :

فأمّا الأَزْدُ أَزْدُ بَنِى سَعِيدٍ فَأَكْرَهُ أَن أُسَمِّيَهَا الْمَزُونَا

وقال جرير :

وأَطْفَأْتَ نيرانَ المزونِ وأَهْلَهَا وَقَدْ حَاوَلُوهَا فِتْنَةً أَن تُسَعَّرَا

(٣) البطين : عظيم البطن

(٤) السابرى من الثياب : ما كان رقيقا .

(٥) سورة هود ٨٦

(٦) كربج : موضع قرب سوق الأهواز .

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل الله ابن الماحُوز المارق ، وهذا رأسُه معى ؛ فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله ، فلما وِلِىَ الحجاج دخل عليه علىّ ابن بشير ، وكان وَسيما جسيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبّره ، فقتله ووهب ابنَه الأزهر وابنَته لأهل الأزدىّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوهما لها .

* * *

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل "[1] : ولم يزل المهلّب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث القُباع ، حتى عُزل ووليَ مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلّب أن أقدِم علىّ ، واستخلف ابنَك المُغيرة . ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إنّى قد استخلفتُ المغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقّةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبرًّا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصحة ، فلتحسُنْ له طاعتُكم ، وليلِنْ له جانبُكم ، فوالله ما أردتُ صوابًا قطّ إلا سبقنى إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت[2] ، فشمّر واتّزر[3] ، وجِدّ واجتهد .

ثم شخَص المصعب إلى المَزار ، فقتل أحمر بن شُمَيط ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشِرْ علىّ برجل أجعله بينى وبين عبد الملك ، فقال له : اذكر واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمىّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتَكىّ ، أو داود ابن قَحْذَم ، قال : أو تكفينى أنت ؟ قال : أكفيك إن شاء الله . فشخَص فولّاه الموصل فخرج إليها ؛ وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة . فشاور الناس فيمن يستكفيه

---

(١) الكامل ٦٤٣ وما بعدها (طبع أوربا)

(٢) الكامل : « وليتك »

(٣) الكامل : « واتزر »

أمرَ الخوارج ،فقال قوم : وَلِّ عبد الله بن أبى بَكْرة ،وقال قوم : وَلِّ عمر بن عبيدالله بن معمر ،وقال قوم :ليس لهم إلّا المهلّب فاردده إليهم ؛وبلغت المشورةُ الخوارج فأداروا الأمرَ بينهم ، فقال قطرىّ بن الفُجاءة المازنىّ ـ ولم يكن أمّروه عليهم بَعْد ـ : إن جاءكم عبدالله بن أبى بَكْرة أتاكم سَيِّدٌ سَمْح كريم جواد مُضيع لعسكره ، وإن جاءكم عُمر بن عبيد الله أتاكم فارس شُجاع ، بطل جادّ ، يقاتل لدينه ولملكه ، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته فى وقائع ؛ فما نُودِىَ فى القوم لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدّ على قِرنه ويضربه ؛ وإن رُدّ المهلَّب فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه، ويُرسله إذا مددتموه، لا يبدؤُكم إلا أن تبدءوه ؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبرّ[1] ،والثعلب الرّواغ ، والبلاء المقيم .

فولّى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وولّاه فارس ، والخوارجُ بأرَّجان يومئذ ،وعليهم الزُّبير بن علىّ السَّليطىّ ، فشخص إليهم فقاتلهم،وألحّ عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهانَ ، فلما بلغ المهلب أنّ مصعبا ولّى حربَ الخوارج عمرَ بن عبيدالله ، قال : رماهُمْ بفارس العرب وفتَاها . فجمع الخوارج له ، وأعدُّوا واستعدُّوا ، ثم أتوا سابور[2]. فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبى حَسّان الأزدىّ : إنّ المهلب كان يُذْكى العيون ، ويخاف البَيات ، ويرتقب الغَفْلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خَلَع الله قلبَك ! أتراكَ تمُوتُ قبلَ أجلِك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشىء . فأقبل على مالك بن أبى حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلّم اللهُ ، ولم يكونوا

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه .

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً .

يطمعُون فى مثلِهــا من المهلّب ، فقال : أما إنــكم لو ناصحتُمونى مناصحَتــكم المهلّب ، لرجوت أنْ أنفِيَ هذا العدوّ ، ولــكنّــكم تقولون: قرشيّ حجازيّ ، بعيدُ الدار خيرُه لغيرنا، فتقاتلون معى تعذيراً (١) . ثم زحف إلى الخوارج من غَد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالًا شديدا، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتــكاثف الناسُ عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها (٢) ، ثم عبَر ، وتقدّم ابنه عبيدُ الله بن عمر — وأمّه من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب — فقاتلهم حتى قُتِل ، فقال قطريّ للخوارج : لاتقاتلوا عُمَر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنَه — ولم يعلم عمرُ بقتلِ ابنه حتى أفضَى إلى القوم ؛ وكان مع ابنه النّعمان بن عباد — فصاحَ به عمر : يانعمان ، أين ابنى ؟ قال : احتَسِبْه فقد استشهد صابراً مقبلاً غــير مدبر ؛ فقال: إنا لله وإنّا إليْهِ رَاجِعون ! ثم حَمَل على الخوارج حملة لم يُر مثلُها ، وحمل أصحابُه بحمْلته ؛ فقتلوا فى وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحملَ على قَطَرِيّ فضربَه على جبينه ففلَقه ، وانهزمت الخوارجُ وانتهبها ؛ فلما استقرُّوا ورأى مانزلَ بهم، قال :ألم أشِرْ عليكم بالانصراف ! فجعلوه حينئذ من (٣) وجُوهِهم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتاقّاهم فى ذلك الوقت الفِزْر بن مِهزم العبديّ ، فسألوه عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطريّ ، وقال: إنى مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلّوْا عنــه ، ففى ذلك يقول فى كلمة له :

فشدّوا وَثاقى ثم ألجَوْا خُصُومَتى ... إلى قطرىٍّ ذِى الجَبين المفلَّقِ

وحاججْتُهم فى دينهم فحججْتُهُمْ ... وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلّقِ

ثم رجعوا وتــكانَفوا (٤) ، وعادوا إلى ناحيــة أرّجان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ، وكتب إلى مصعب :

(١) تعذيرا ؛ أى تقاتلون معى من غير تمام أو مبالغة .

(٢) ج : « فأصلحها » .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج والكامل بحذف كلمة « من » .

(٤) فى زيادات الأخفش على الكامل : « تكانفوا ؛ أعان بعضهم بعضا واجتمعوا وصار بعضهم فى كنف بعض » .

أما بعد ، فإنى لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عزّ وجل عُبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظَّفَر ، فتفرقوا شَذَر مَذَر[١] . وبلغنى عنهم عودةٌ فيمّمتُهم ؛ وبالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ، ومُجّاعة بن سُعْر فالتقوا ، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم ، وانفرد من أصحابه ، فعمِد إلى أربعة عشر رجلا من مَذْكوريهم وشجعانهم ؛ وفى يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صَرَعه ، فركض إليه قطرىّ على فرس طِمِرّ[٢] ، وعمر على مُهْر ، فاستعلاه قطرىّ بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرعُه ، فبَصُرَ به مُجّاعة ، فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : ياأبا نعامة ، إنّ عـدوّ الله قد رَهِقك[٣] . فانحطّ قطرىّ على قَرَبُوسه وطعنــه مُجّاعة ؛ وعلى قطرىّ دِرْعان فهتَــكهما وأسرع السِّنان فى رأس قَطَرِىّ ، فــكشط جلدَه ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفهان ، فأقاموا بُرهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصْطَخْر[٤] ، فأمر مُجّاعة فجبَى الخراج أسبوعا ؛ فقال له : كم جبيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هى لك .

وقال يزيد بن الحــكم لمُجّاعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فأجَبْتَهُ عُمَرٌ وقد نَسِىَ الحياةَ وَضاعا[٥]
فرَدَدْتَ عادِيةَ الــكتيبةِ عَنْ فَتًى قد كادَ يُتْرَكُ لَحْمُهُ أوْزاعا[٦]

قال : ثم عُزِل مُصْعبُ بن الزُّبير ؛ وولّى عبــدُ الله بن الزبير العراقَ ابنه حمزة

---

(١) شذر ، مذر ؛ بالتحريك فيهما : ذهبوا فى كل وجه ؛ ومذر : إتباع .
(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز للوثب والعدو ؛ والأنثى طمرة .
(٣) رهقك : غشاك .
(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .
(٥) المرهق : هو الذى أدرك ليقتل ؛ من أرهق الرجل إذا قتله . و « عمر » فاعل : « دعاك » .
(٦) العادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعا .

ابن عبد الله بن الزبير ؛ فمكث قليلا ؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق ، والخوارج بأطراف أصبَهان ، والوالى عليهـا عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ ؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئا من القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ؛ فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيدالله : ماأنصفتنا ! أقمتَ بفارس تَجْبِي الخراج ؛ ومثل هـذا العدوّ يجتاز بك لاتحاربه ! والله لوقاتلتَ ثم هُزِمت لكان أعْذَرَ لك !

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم ؛ وأقبل عمرُ بن عبيدالله يريدهم ، فتنحّى الخوارج إلى السُّوس، ثم أتوا إلى المدائن ؛ وبسطوا فى القتل ؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ؛ حتى أتوا المذار[1] ؛ فقتلوا أحمر طَيِّئ ؛ وكان شجاعا ، وكان من فرسان عُبيد الله بن الحرّ ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

تَرَكْتُمْ فَتَى الْفِتْيَانِ أَحْمَرَ طَيِّئٍ بِسَابَاطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ[2]

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادَها ــ وواليها الحارث القُباع ــ تثاقل عن الخروج ، وكان جَبانا ؛ فذَمره[3] إبراهيم بن الأشتر ، ولامه الناس ؛ فخرج متحاملا حتى أتى النُّخيلة ، ففى ذلك يقول الشاعر :

إنّ القُباع سارَ سَيْراً نُكْرَا يَسِيرُ يوماً ويُقيم عَشْرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ؛ والخوارج يَعيثون ؛ حتى أخذوا امرأة ، فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلَها ، فقالت : أتقتلون مَنْ يُنَشَّأ فى الحِلْية وهو فى الخصام غـير مبين ! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتْك ، ثم قدموها فقتلوها .

---

(١) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة .

(٢) ساباط : موضع بالمدائن ؛ يقال له : ساباط كسرى .

(٣) ذمره ، أى حضه مع لوم ليجد .

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُباع ، والجسْر معقود بينهم ؛ فقطعه القُباع وهو فى ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهى تُقْبل ؛ وتقول : علام تقتلونَني ! فوالله مافَسَقْت ، ولا كَفَرت ، ولا زَنَيْت[1] ، والناس يتفلّتون إلى القتال ، والقُباع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصُوه أمر عنـد ذاك بقَطْع الجسر ، فأقام بين دَبيرى ودَباها[2] خمسة أيام ، والخوارج بقُرْبه ، وهو يقول للناس فى كل يوم : إذا لقيتُم العدوَّ غـدا ، فأثْبتوا أقدامَكم واصبروا ؛ فإن أوّل الحرب الترامِي ، ثم إشراع الرِّماح ، ثم السلّة[3] ؛ فثَكلت رجلا أمُّه فرّ من الزحف !

فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصِّفَة فقد سمعناها ، فمتى يقع الفعل ؟

وقال الراجز :

إن القُبَاعَ سَارَ سَيْراً ملْسَا[4]   بَيْنَ دَبَاها ودَبِيرَى خمسا

وأخذ الخوارج حاجتَهم ، وكان شأن القُباع التحصُّنَ منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ؛ وساروا منفورهم إلى أصبَهان ،فبعثَ عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ إلى الزُّبير بن على : أنا ابنُ عَمّك ، ولست أراك تقصد فى انصرافك من كلّ حَرْب غيرى . فبعث إليه الزبير : إنّ أدنَى الفاسقين وأبعدَهم فى الحقّ سواء .

فأقام الخوارجُ يُغَادُونَ عتّاب بن وَرْقاء القتال ويُراوِحُونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شىء ؛ فلما كَثُر عليهم ذلك انصرفوا ؛ لايمرّون بقريةٍ بين أصبَهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا مَنْ فيها . وشاوَر المُصعَبُ النَّاس فيهم ؛ فأجمع رأيُهم على

---

(١) الكامل : « ارتددت » .

(٢) دبيرى ودباها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحى بغداد .

(٣) السلة : استلال السيوف .

(٤) الملس : السير الشديد .

المهلّب، فبلغ الخوارج مُشاوَرتهم ؛ فقال لهم قَطَرِىّ : إنْ جاءكم عَتّاب بن وَرْقاء ؛ فهو فاتِكٌ يطلع فى أول المِقْنَب[(١)] ولا يظفر بكثير[(٢)] ، وإن جاءكم عمر بن عُبيدالله ففارس يُقْدِم ؛ إما عليه وإمّا لَهُ ؛ وإن جاءكم المهلّب فرجلٌ لا يُناجِزُكم حتى تُناجزوه ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم ؛ فهو البَلاء اللازِم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصعَب على توجِيه المهلّب ، وأن يشخَص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسّ به الزُّبير خرج إلى الرّىّ — وبها يزيد بن الحارث بن رويم — فحارَبه ثم حصَره ؛ فلما طال عليه الحِصار خرج إليه ؛ فكان الظَّفرُ للخوارج ، فقتل يزيد الحارث بن بن رُويم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشبا ، ففرّ عنه وعن أمّه لطيفة [وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندى جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسمّاها يزيد لطيفة][(٣)]، فقتِلت مع بَعْلها[(٤)] يزيد يومئذ . وقال الشاعرُ :

مواقِفُنا فى كلّ يوم كَرِيهَةٍ ... أَسَرّ وأشْفَى مِنْ مواقِف حَوْشَبِ
دعاه أبوهُ والرِّماح شَوَارِعٌ[(٥)] ... فلم يستجِبْ بل رَاغ تَرْوَاغَ ثَعْلَب
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أوْذَا حَفِيظَةٍ ... رَأى مارأى فى الموت عِيسى بنُ مُصْعَبِ

وقال آخر :

نَجَّى حَلِيلتَه وأسْلَمَ شَيْخَهُ ... نَصْبَ الأسِنَّة حَوْشَبُ بْنُ يَزيدِ[(٦)]

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) كذا فى ا ، ج. وفى ب والكامل : « بكبير » .
(٣) تكملة من كتاب الكامل .
(٤) الكامل : « فقتلت معه » .
(٥) كذا فى ا ، ج والكامل ، وفى ب : « تنوشه » :
(٦) نصب الأسنة ؛ أى محاذتها .

قال : ثم[1] انحطّ الزُّبير على أصفهان ، فحصر بهـا عتّاب بن ورقاء سبعة أشهر ؛ وعتّاب يُحاربه فى بعضهنّ ؛ فلما طال به الحِصار قال لأصحابه : ما تنتظرون ! والله ماتُؤْتَوْن من قِلّة ؛ وأنـكم لَفُرْسان عشائركم ؛ ولقد حاربتموهم مرارا فانتصفتم منهم ؛ وما بَقِيَ مع هذا الحصـار إلا أن تَفْنَى ذخائركم ، فيموتَ أحدكم ، فيـدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه ؛ فقاتلُوا القوم وبكم قُوّة من قبل أن يَضْعُفَ أحدُكم عن أن يمشيَ إلى قِرْنه .

فلمـا أصبَح صلّى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غَارُّون[2] ، وقد نصبَ لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : مَنْ أرادالبقاء فليلْحق بلواءياسمين ؛ ومن أرادَالجهاد فليخرج معى ؛ فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غَشُوهم ،فقاتلوهم بجدّ لم تر الخوارجُ منهم مثله ؛ فعقروا منهم خَلْقا كثيرا وقُتل الزبير بن علىّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب ، ففى ذلك يقول القائل :

وَيَوْمٌ بجَيٍّ تلافيتَه[3] وَلَوْلَاكَ لَاصْطُلِمَ العَسْكرُ[4]

وقال آخر :

خَرَجْتُ من المدينة مُسْتَميتاً ولم أكُ فى كَتيبَةِ ياسَمِينـــا

---

(١) فى الـكامل قبل هذا الـكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبي بردة يعيره بأمه ــ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يابن حوراء ! فقال بلال ــ وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة . وزعم الـكلبي أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال الـكلبي : ويعجبنى أن أرى الأسير جلداً . قال: وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهد ركنك ، وغير حالك ؛ فوالله لقدكنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهرا للعصبية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك يا خالد لثلاث معك هن على : الأمر عليك مقبل وهو عنى مدبر ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور ، وأنت فى طينتك وأنا فى هذا البلد غريب ــ وإنمـا جرى إلى هذا لأنه يقـال : إن أصل آل الأهتم من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت فى بنى منقر من الروم » .

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جى : اسم مدينة كانت ناحية أصبهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أبيد .

أَلَيْسَ مِنَ الفضائل أنّ قَومِى غَدَوْا مستلئِمِين مجاهدينـــا[١]

قال : وتزعم الرواة أنّهم فى أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضُهم على بعض، وربما كانت مُواقفة[٢] بغير حَرْب ، وربما اشتدّت الحرب بينهم ؛ وكان رجلٌ من أصحاب عَتّاب ـ يقال له : شريح ، ويكنى أبا هُريرة ـ إذا تحاجَز[٣] القومُ مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن علىّ :

يابنَ أبى الماحُوز والأشْرَارِ كيفَ تَرَوْنَ يا كِلابَ النَّارِ

شـــدَّ أبى هُرَيْرَةَ الهرّارِ يَهُرُّكمْ باللّيـــل والنّهارِ

ألم تَرَوا جَيًّا على المِضمار تُمسى من الرّحمن فى جِوَار

فغاظهم ذلك، فكَمَن له عبيدة بن هِلال، فضربه بالسَّيف، واحتمله أصحابه ،وظنت الخوارج أنه قد قتل؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوْهم: مافعل الهرّار ؟ فيقولون: ما به من بأس ؛ حتى أبلّ من عِلّته، فخرج إليهم، فقال : يا أعداء الله ، أترَوْن بى بأسا ؟ فصاحوا به: قد كنا نرى أنّك قد لحِقْت بأمّك الهاوية ، إلى النار الحامية .

***

[قطرىّ بن الفُجاءة المازنىّ]

ومنهم قَطَرِىّ بن الفجاءة المازنى ، قال أبو العباس[٤] :

لما قتِل[٣] الزّبير بن علىّ أدارت الخوارجُ أمرَها، فأرادوا توليَةَ عبيدة بن هلال ؛ فقال: أدلّكم على مَنْ هو خيرٌ لكم منى ؟ مَنْ يطاعِن فى قُبُل ، ويحمى فى دُبُر ؛ عليكم

(١) مستلئمين : لابسين اللأمة ؛ وهى الدرع ، وفى ج : « مستسلمين » .
(٢) المواقفة فى الحرب والخصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .
(٣) ج : « تأخر » .
(٤) الكامل ٦٥٢ وما بعدها (طبعة أوربا) .

بقَطَرِىّ بن الفُجاءة المازنىّ . فبايَعوه . وقالوا : ياأمير المؤمنين ؛ امضِ بنا إلى فارس، فقال: إنّ بفارس عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ ولكن سير إلى الأهواز ؛ فإن خرج مُصعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفّعوا عنها على إيذَج[1] — وكان المُصعب قدْ عَزَم على الخروج إلى باجميرا[2] — وقال لأصحابه : إنّ قَطرِيًّا مُطِلٌّ علينا ؛ وإن خرجنا عن البصرة دخَلها ، فبعث إلى المهلّب فقال : اكْفِنا هذا العدوّ ؛ فخرج إليهم المهلّب ؛ فلما أحسّ به قطرىّ يمّم نحو كِرْمان ، وأقام المهلّب بالأهواز ، ثم كرّ عليه قَطَرىّ ، وقد استعدّ ، وكانت الخوارج فى حالاتهم أحسَن عُدّة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب ، وحَصَانة الجُنَن[3] . فحارَبَهُم المهلّب ، فدفعهم فصاروا إلى رَامَهُرْمُز ؛ وكان الحارث بن عُميرة الهمدانىّ قد صار إلى المهلب مراغِماً لعتّاب بن ورقاء، ويقال : إنّه لم يُرضِه عن قتله الزبيرَ بن علىّ ، وكان الحارث بن عَميرة ، هو الذى قتله وخاض إليه أصحابه ،ففى ذلك يقول أعشى هَمْدان :

إنّ المكارِمَ أكْمِلَتْ أسبابُها ⁂ لابن اللُّيوثِ الغُرّ مِنْ هَمْدَانِ[4]

للفارسِ الحامِى الحقيقة مُعلِماً ⁂ زادِ الرِّفاق وفارس الفُرْسان[5]

---

(١) إيذج ، بكسر الهمزة وفتح الذال : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٢) باجميرا ، بضم الجيم وفتح الميم وياء ساكنة : موضع دون تكريت .

(٣) الجنن : جمع جنة ؛ وهى الدرع .

(٤) ديوان الأعشى ٣٤٣ ، وروايته : « من قحطان » ، وهى رواية الكامل أيضا .

(٥) ديوان الأعشى والكامل : « زاد الرفاق إلى قرى نجران » ؛ قال المبرد : وتأويله أن الرفقة إذا صحبها أغناها عن التزود ؛ كما قال جرير — وأراد ابن له سفرا ، وفى ذلك السفر يحيى بن أبى حفصة ؛ فقال لأبيه : زودنى ؛ فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ⁂ ألَا إن يحيى نعم زاد المسافرِ

فماتُنْكِرُ الكَوْماءُ ضربةَ سيفهِ ⁂ إذا أرملوا أو خَفّ ما فى الغرائر

وزاد فى الديوان بعد هذا البيت :

حتى تدارَكَهُمْ أغرُّ سَمَيْدَعٌ ⁂ فحماهُمُ إن الكريمَ يمانِ

الحارث بن عَميرةَ اللَّيث الَّذِى يحمى العراق إلى قُرَى نَجْرانِ[١]
وَدَّ الأزراقُ لو يصابُ بطعنـةٍ ويموتُ مِنْ فرسانهم مائتـــان

قال أبو العباس : وخرج مُصعب إلى باجُمَيْرَا ، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمَسْكِن ، ولم يأتِ المهلّب وأصحابه، فتواقفوا يوما برامَهُرْمُز على الخندق، فناداهم الخوارج :ماتقولون فى مُصعب؟ قالوا : إمام هدًى ، قالوا : فما تقولون فى عَبْد الملك ؟ قالوا: ضالٌ مضلٌ ،فلما كان بعدَ يومين أتى المهلّبَ قتلُ المصعب؛ وأنّ أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك،وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته؛.فلما تواقفوا ناداهم الخوارج : ماتقولُون فى المصعب ؟قالوا : لانخبركم ،قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى ، قالوا : يا أعداء الله، بالأمس ضالٌ مضلٌ ، واليوم إمام هدى ! يا عبيدَ الدنيا عليكم لعنة الله !

***

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب '' الأغانى الكبير '' ، قال :[٢] كان الشُّراة والمسلمون فى حرب المهلّب وقطرىّ يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك ، على أمانٍ وسكون ، لا يَهيج بعضُهم بعضا ، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، وأبو حُزابة[٣] التميمىّ ، فقال عبيدة : يا أبا حُزابة ، إنى أسألك عن أشياء، أفتصدُقنى عنها فى الجواب ؟ قال : نعم ، إن ضمنت لى مثلَ ذلك ، قال : قد فعلت،قال : فسَلْ عمّا بدالك ، قال : ماتقولون فى أئمتكم ؟ قال : يبيحون الدم الحرام، قال :ويحك ! فكيف فعلُهم فى المال ؟ قال : يَجبُونه من غير حلّه ، ويُنفِقونه فى غير وجهه ، قال : فكيف فعلُهم فى اليتيم؟ قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقّه، ويَنيكون أمّه ، قال:ويحك يا أبا حُزابة ! أمثل هؤلاء تتّبِع ! قال : قد أجبتك ، فاسمع سؤالى ، ودع عتابى على رأيى،

(١) الديوان : « إلى قرى كرمانِ » .
(٢) الأغانى ٦ : ١٤٩ وما بعدها (طبعة الدار) .
(٣) هو الوليد بن حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية .

قال : سل ، قال: أىّ الخمر أطيب، خمر السّهل أم خمر الجبل ؟ قال : ويحك ! أمثلى يُسألُ عن هذا ! قال : قد أوجبتَ على نفسك أن تجيب ، قال : أمّا إذ أبيت ؛ فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأسلس ، قال : فأىّ الزّوانى أفره ؟ أزوانى رَامَهُرمز ، أم زوانى أرّجان ؟ قال : ويحك ! إنّ مثلى لا يسأل عن هذا ، قال : لا بدّ من الجواب أو تغـدِر .

قال: أمّا إذ أبيت فزوانى رَامهُرمز أرقّ أبشارا، وزوانى أرّجان أحسن أبدانا .قال : فأىّ الرجلين اشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لا بدّ أن تجيب ، قال : أيّهما الذى يقول :

وطوى الطِّرادُ مع القِياد بطونَها طَىَّ التِّجار بحضْرَمَوْتَ بُرودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرُهما .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا فى أمر جرير والفرزدق فى عسكر المهلّب ؛ حتى تواثبُوا ، وصاروا إليه محكّمين له فى ذلك ، فقال: أتريدون أن أحكُم بين هذين الكلْبين المتّهارشين، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ، ولكنى أدلّكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يَهونُ عليه سِبابهما ، عليكم بالشُّراة ، فاسألوهم إذا توافقتم ؛ فلما تواقَفُوا سأل أبو حُزابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

* * *

وروى أبو الفرج أنّ[1] امرأةً من الخوارج كانت مع قطرىّ بن الفُجاءة ، يقال لها مّ حكيم ، وكانت مِنْ أشجع الناس وأجملهم وجها ، وأحسنهم بالدِّين تمسكا ، وخطبها

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ (طبعة الدار) .

جماعة منهم فردّتهم ولم تجبهم ؛ فأخبر مَنْ شاهدها فى الحرب أنّها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أَحمِلُ رأساً قدْ سَئِمْتُ حَمْلَهْ   وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

* ألا فتًى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقْلَهْ *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات ؛ فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها .

* * *

وروى أبو الفرج[١] ، قال : كان عبيدة بن هلال ، إذا تكافّ الناسُ ناداهم : ليخرجْ إلىّ بعضُكم ؛ فيخرج إليه فِتْيانٌ من عَسْكر المهلّب ؛ فيقول لهم : أيّما أحبّ إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآنَ أم أنشِدكم الشّعر ؟ فيقولون له : أمّا القرآن فقد عرفناه مثل معرفتِك ؛ ولكن تنشدنا ، فيقول : يافَسَقة ؛ قد والله علمت أنّكم تختارون الشعر على القرآن ؛ ثم لايزال يُنشِدُهم ويستنشدهم حتى يَملُّوا ويفترقوا .

* * *

قال أبو العباس[٢] : وولّى خالد بن عبد الله بن أُسيد فقدم فدخلَ البصرة ، فأرادعزل للمهلّب ، فأشير عليه بألّا يفعل ؛ وقيل له : إنّما أمِنَ [أهل][٣] هذا المِصْر ؛ لأن المهلّب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ؛ فقد تنحّى عمر ، وإن نَحّيتَ المهلّب لم تأمَنْ على البصرة . فأبى إلّا عَزْله ، فقدم المهلّب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه[٤] ، فلما صار بكُرْبَج دينار لقيه قطرىّ ، فمنعه حطّ أثقاله ، وحاربه ثلاثين يوما .

ثم أقام قطرىّ بإزائه ، وخندقَ على نفسه ، فقال المهلّب لخالد : إنّ قَطرِيًّا ليس

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥١ (طبعة الدار) .

(٢) الكامل ٦٥٤ (طبعة أوربا) .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « فأشخصه » .

يأحقّ بالخندق منك ، فعبر دُجَيلا إلى شقّ نهر تِيرَى ، واتبعه قطرىّ فصار إلى مدينة نهر تِيرَى ، فبنَى سورَها ، وخندق عليها ، فقال المهلّب لخالد : خَنْدِق على نفسك ، فإنى لاآمنُ البيَات ، فقال : ياأبا سعيد ، الأمر أعجل من ذاك ، فقال المهلّب لبعض ولده : إنّى أرَى أمراً ضائعا، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخندق المهلّب على نفسه[1] ، وأمر بسفنه ففرّغتْ ، وأبى خالد أن يفرّغ سفنَه ، فقال المهلّب لفيروز حصين : صِرْ معنا؛ فقال : ياأبا سعيد ، إن الحزم ماتقول ، غير أنّى أكره أنْ أفارِق أصحابى ، قال : فكن بقُرْبنا ، قال : أمّا هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ففعل ، فقدِم عليه عبد الرحمن ، فأقام قَطَرِىّ يُغادِيهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوما ؛ فقال المهلّب لمولى أبى عيينة : سِر[2] إلى ذلك الناوس ، فبتْ عليه كلّ ليلة، فمتى أحسست خَبَراً للخوارج ، أو حركةً أو صهيلَ خيل، فاعجَل إلينا .

فجاءه ليلة ، فقال : قد تحرّك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قَطَرِىٌّ سفنا فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سُفن خالد ، وخرج فى أدبارها حتى خالَطهم ، لايمرُّ برجلٍ إلا قتَلَه ، ولا بدابّة إلا عَقَرها ، ولا بفُسطاط إلا هتَكه ؛ فأمر المهلّب يزيد ابنه ، فخرج فى مائة فارس . فقاتل ، وأبْلَى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاء حسنا ، وخرج فيروز حصين فى مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنُّشاب هو ومن معه ، فأثّر أثراً جميلا ، وصُرِع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصُرِع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فحامى عنهما أصحابُهما حتى ركبا ، وسقط فيروز حُصين فى

---

(١) كذا فى الأصول ، وهى ساقطة من الكامل .

(٢) كذا فى ب ، وفى ج : « شد » ، وفى الكامل : « انتبذ » ، أى سر إليه منفردا . والناوس فى الأصل : مقابر النصارى .

الخندق ، فأخذ بيده رجل من الأَزْد ؛فاستنقذه ؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح عسكر خالد كأنه حرّة سوداء[١] ، فجعل لايرى إلا قتيلا أو جَريحا ؛ فقال للمهلب : ياأبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خَنْدِق على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفنى أمرَ الخندق ، فجمع له الأخماس[٢] فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحر المَزُونى ، لكان الله قد دمّر عليكم ـ وكانت الخوارجُ تسمّى المهلّب الساحر ـ ، لأنهم كانوا يدبّرون الأمرَ فيجدون المهلّب قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

وقال أعشى هَمْدان لابن الأشعث، يذكّره بلاء القحطانيّة عنده ؛ فى كلمة طويلة[٣] :

وَيَوْمَ أهوازِكَ لَا تَنْسَهُ ليس الثَّنَا والذِّكْرُ بالبائد

ثم مضى قَطَرِىٌّ إلى كِرْمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطرىّ بكِرْمان شهراً ، ثم عَمَد لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز وندَب الناس للرحيل ؛ فجعلوا يطلُبون المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلّب بحظّ هذا المِصر ؛ إنى قد ولّيت أخى قتال الأزارقة . فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلّب على الأهواز فى ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز والخوارج بدرا بجِرِد وهو فى ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : يزعم أهلُ البصرة أنّ هذا الأمر لايتمّ إلا بالمهلّب ؛ سيعلمون !

قال صقعب[٤] بن يزيد : فلمّا خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءنى كُرْدُوس ،

---

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنما أحرقت بالنار .

(٢) الأخماس : هم جند البصرة .

(٣) ديوان الأعشين ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمُهَا بالحضْرِ فالروضة من آمدِ

دارٌ لخوْدٍ طفلةٍ رَوْدَةٍ بانتْ فأمسَى حبُّها عامدِى

(٤) الكامل : « صعب بن زيد » .

حاجب المهلّب ، فدعانى ، فجئت إلى المهلب وهو فى سطح ، وعليه ثياب هَرَوِيّة ، فقال : ياصَقْعب ؛ أنا ضائع كأنى أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيَنى الأزارقة ولا جند معى ، فابعث رجلا من قِبَلك يأتينى بخبرهم سابقا إلىّ به ، فوجّهت رجلاً من قِبَلى يقال له عمران بن فلان ؛ وقلت له : اصحب عسكر عبد العزيز ، واكتب إلىّ بخبر يوم فيوم ؛ فجعلت أورده على المهلّب ، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : هذا منزل ، فينبغى أن تنزِل فيه أيّها الأمير ؛ حتى نطمئنّ ثم نأخذ أهبَتنا ، فقال : كلاّ ، الأمر قريب ؛ فنزل الناس عن غير أمره ، فلم يستتمّ النزول ؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع فى خمسمائة فارس ؛ كأنهم خَيْط ممدود ، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، واتّبعهم فقال له الناس : لا تتبعهم ؛ فإنّا على غير تعبية ، فأبى ؛ فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عَقَبة ، فاقتحمها وراءهم والناس ينهونه ويأبى ، وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصَّريمىّ الملقّب عَبْس الطِّعان ، وعلى بكْر بن وائل مقاتل بن مِسْمَع ، وعلى شُرْطته رجلا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نِزار . فنزلوا عن العَقَبة ، ونزل خلفهم و [كان][1] لهم فى بطن العَقبة كمين ، فلما صاروا من ورائها ؛ خرج عليهم الكمين ، وعطف سعد الطلائع ، فترجّل عبس بن طلْق ، فقتِل وقتِل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضُّبيعىّ ، صاحب شُرْطة عبدالعزيز ، وانحاز عبدُ العزيز واتّبعهم الخوارج فرسخيْن يقتلونهم كيف شاءوا ، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أمّ حفص بنت المنذر ابن الجارُود امرأته ، فسَبَوُا النساء يومئذ ، وأخذُوا أسارَى لا تحصى ، فقذفُوهم فى غار بعد أنْ شدُّوهم وَثاقا ، ثم سدُّوا عليهم بابه ، حتى ماتوا فيه .

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم : رأيتُ عبد العزيز ، وإنّ ثلاثين رجلا ليضربُونه

---

(١) من الكامل .

بسيوفهم ؛ فما تَحيكُ فى جَنْبه(١) ، ونودى على السَّبْى يومئذ ، فغُولِىَ بأمّ حَفْص ، فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وكان ذلك الرجل من مجوسٍ كانوا أسلموا ، ولحِقوا بالخوارج ، ففرَضوا لكلّ رجل منهم خمسمائة ، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حفص ، فشَقّ ذلك على قَطَرِىّ ، وقال : ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ؛ إنّ هذه لفِتْنة ! فوثب عليها أبو الحديد العبدىّ فقتلها ؛ فأُتِىَ به قطرىّ ، فقال : مَهْيم(٢) يا أبا الحديد ! قال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيت المؤمنين تزايدوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة ، فقال قطرىّ : أحسنت ، فقال رجل من الخوارج :

كَفَانَا فِتْنَةً عَظُمَتْ وَجَلَّتْ ... بحمد الله سيفُ أبى الحديدِ

أهابَ المسلمون بها وقالوا ... على فَرْطِ الهوى هَلْ من مزيد !(٣)

فزادَ أبو الحديد بنصلِ سَيْفٍ ... رقيقِ الحدّ فعلَ فتًى رشيدِ

وكان العَلاء بن مطرّف السعدى ابنَ عم عمرو القنا ، وكان يحب أن يلقاه فى صدر مبارزة(٤) ، فلحقه عمرو القنا يومئذ ؛ وهو منهزم ، فضحك منه وقال متمثّلا :

تمنّانى لِيَلْقَانِى لَقِيطٌ ... أعام لك ابن صعصعة بن سعدِ(٥)

ثم صاح به : انج يا أبا المصدّى(٦) ، وكان العلاء بن مطرّف قد حمل معه امرأتين :

---

(١) قال المبرد : « يقال : ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ؛ وما حاك ذا الأمر فى صدرى ، وما حكى فى صدرى ، وما احتكى فى صدرى . ويقال : حاك الرجل فى مشيته يحيك إذا تبختر » .

(٢) مهيم : حرف استفهام ، معناه : ما الخبر ؟ وما الأمر ؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر .

(٣) أهاب به : أعان .

(٤) الكامل : « فى تلك الحروب مبارزة » .

(٥) البيت من شرح سيبويه ١ : ٣٢٩ ، فى باب المنادى ، ونسبه لشريح بن الأحوص ، ونسبه المبرد فى الكامل إلى يزيد بن الصعق وفى شرح الشواهد للأعلم : « الشاهد فى قوله : « لك » ، والمعنى : ياعامر ، دعائى لك ، والمعنى معنى التعجب ؛ كما تقول : يالك فارسا ! ؛ أى ياهذا دعائى لك من فارس ؛ أى أعجب لك فى هذه الحال . . . وكان لقيط بن زرارة التميمى قد توعد الأحوص أبا شريح الكلابى ، وتمنى أن يلقاه فيقتله ؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بنى عامر من تمنيه لقتله وتوعده له . . . وأراد عامر ابن صعصعة فرخم » .

(٦) هى كنية عمرو القنا .

إحداهما من بنى ضَبّة ، يقال لها أمّ جميل ، والأخرى بنت عمه ؛ يقال لها فلانة بنت عَقِيل فطلّق الضبِّيّة ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال فى ذلك :

ألستُ كريماً إذْ أقولُ لِفِتْيَتِى قِفُوا فاحملُوها قبل بنتِ عَقِيلِ

ولو لم يكن عُودِى نُضَاراً لأصْبَحَتْ تُجَرّ على المَتْنَيْن أمّ جميـــــل[1]

قال الصقعب بن يزيد : وبعثنى المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أَرْبك[2] عَلَى فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ؛ فلم أحسّ خبرا ، فسرت مُهَجِّراً[3] إلى أن أمسيت ؛ فلما أمسينا وأظلمْنا ، سمعتُ كلامَ رجل عرفتهُ من الجهاضم ، فقلت : ماوراءك ؟ قال : الشرّ ، قلت : فأين عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان آخر الليل ، إذا أنا بزُهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت : لواء مَنْ هذا ؟ قالوا : لواء عبد العزيز ، فتقدّمت إليه ، فسلّمت عليه ، وقلت : أصلح الله الأمـير ! لا يـكبُرَنّ عليك ما كان ، فإنّك كنت فى شرّجند وأخبثه ، قال لى : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولـكن كأنى شاهد أمرك ، ثم أقبلت إلى المهلّب وتركته ، فقال لى : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرّك ، هُزِم الرجلُ وفَلّ جيشه ، فقال : وَيْحك ! ومايسرّنى من هزيمة رجل من قُرَيش وفَلّ جيشٍ من المسلمين ! قلت : قد كان ذلك ، ساءك أو سرّك ، فوجّه رجلا إلى خالد يخبره بسلامة أخيه . قال الرجل : فلما خبرت خالدا ، قال : كَذَبْتَ ولَؤُمت ، ودخل رجل من قريش فـكذّبنى ، فقال لى خالد : والله لقد هممتُ أنْ أضرب عنقك ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن كنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف هذا المتكلم ، فقال خالد : لبئس ماأخطرت به دَمَك ! فما برحتُ حتى دخل عليه بعض الفلّ ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلّب وكساه ، وقدم معه على خالد ، واستخلف المهلّب ابنَه حبيبا ، وقال له :

---

(١) الـكامل : « تجر على المتنين » .

(٢) أربك : قرية بخوزستان .

(٣) مهجرا : وقت الهاجرة .

تجسّس الأخبار ، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة على نهر تيرَى . فلما أحسّ حبيب بهم ، دخل البصرة وأعلم خالدا بدخوله ، فغضب وخاف حبيب منه ، فاستتر فى بنى عامر بن صعصعة ، وتزوّج هناك فى استتاره الهلالية ، وهى أمّ ابنه عبّاد بن حبيب . وقال الشاعر لخالد يُفَيِّل[1] رأيه :

بعثتَ غلاماً من قريشٍ فَروقَةً ... وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلبا[2]

أبى الذّمّ واختارَ الوفاءوأحكمَت ... قُواهُ ، وَقَدْ ساس الأمورَ وَجرّبا

وقال الحارث بن خالد المخزومىّ :

فرّ عبد العزيز إذ رَاءَ عِيسى ... وابنَ داودَ نازلاً قَطَرِيّاً[3]

عاهَدَ الله إن نجَا مِلْمَنايا ... لَيعودنّ بعـــدَها حُرْمِيّاً[4]

يسكُنُ الحلَّ[5] والصِّفاح فغوريـــنا مِرَاراً ... ومَرَّةً نَجْدِيّاً

حَيْثُ لا يشهد القِتَال ولا يســمع يوماً لـكَرِّ خَيْلٍ دَوِيّاً

وكتب خالد إلى عَبْد الملك بعُذْر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى أميرَ المؤمنين صانعاً بى ؟ قال : يعزِلكُ ، قال : أتَراه قاطعاً رَحِمِى ! قال : نعم ، قد أتَتْه هزيمةُ أميّةَ أخيك[6] ففعل — يعنى هرب أميّة من سِجِسْتَان — فكتب عبد الملك إلى خالد :

---

(١) يفيل رأيه : يخطئه .

(٢) الفروقة : شديد الفزع .

(٣) فى الكامل :

فرّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطَـــالَ فى السَّفْح نَازَلُـــوا قَطَرِيّا

(٤) قال المبرد : العرب تنسب الحرم فيقولون : حِرْمِىّ وَحُرْمِىّ .

(٥) الحل والصفاح وغورين مواضع ، ورواية البيت فى الكامل :

يَسْكُنُ الحلَّ والصِّفاحَ فغورا ... نَ وسَلْعاً وتارةً نجـــديا

(٦) عبارة الكامل : «أتته هزيمة أمية أخيك من البحرين وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس ! » .

أما بعد ؛ فإنى كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا فى [أمر][1] المهلّب ؛ فلمّا ملكتَ أمرك، نبذتَ طاعتى وراءك ، واستبدَدْتَ برأيك ؛ فولّيْتَ المهلّبَ الجبـاية ، وولّيت أخاك حَرْبَ الأزارقة؛فقَبّح الله هذا رأيا ! أتبعثُ غلاماً غِرًّا لم يجرِّب الأمور والحروب للحرب؛ وتترك سيِّدا شجاعاً مدبِّرا حازما قد مارَس الحروب ففَلَج[3]؛ فشغلته بالجباية! أما لو كافأتك على قدْر ذنبك لأتاك من نـكيرى مالا بقيّةَ لك معه! ولـكن تذكّرتُ رحِمك فـكَفَّتْنى عنك ؛ وقد جعلت عقوبتَك عَزْلك . والسلام .

قال : وولّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالـكوفة ؛ وكتب إليه :

أما بعـد ؛ فإنّك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك وإياه مروان بن الحـكم ؛ وإنّ خالداً لامجتمَع له مع أمير المؤمنين دون أمية،فانظر المهلّب بن أبى صُفْرة ، فولّه حرْب الأزارقة؛ فإنه سيّد بطل مجرّب ، وامددْه من أهل الـكوفة بثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .

فشقّ على بِشْر ماأمرَه به فى المهلّب؛وقال : والله لأقتلنّه ، فقال له موسى بن نصير: أيها الأمير ؛ إنّ للمهلّب حِفاظا ووفاء وبلاء .

وخرج بِشْر بن مَرْوان يريد البصرة ؛ فـكتبَ موسى بن نُصير وعِكْرمة بن رِبْعىّ إلى المهلّب أنْ يتلقاه لقاء لا يعرفه به ؛ فتلقاه المهلّب على بَغْلٍ ، وسـلّم عليـه فى غُمار[4] الناس ؛ فلمّا جلس بِشْر مجلسه،قال : مافعل أميركم المهلّب ؟ قالوا : قد تلقّاك أيّها الأمير، وهو شاكٍ .

فهمّ بِشْر أنْ يولّىَ حربَ الأزارِقة عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ وشَدّ عَزْمه أسماء

---

(١) من الـكامل .

(٢) ج : « فاستبددت » .

(٣) فلج : ظفر وانتصر .

(٤) غمار ، بكسر الغين : جمع غمرة ؛والغمرة : المزدحم . وفى الـكامل : « خمار الناس » ، وخمـار الناس كثرتهم وزحمتهم وجماعتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّاك أميرُ المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عِكْرمة بن ربْعِيّ : اكتُب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلّب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبَصْرة مَنْ يغنى غناءه ، ووجّه بالكِتاب مع وفد أوفدهم إليه ، رئيسهُم عبد الله بن حكيم المُجاشعيّ .

فلما قرأ عبدُالملك الكتاب خَلاَ بعبدِ الله، فقال له : إنّ لك ديناً ورأياً وحزماً ، فَمَنْ لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلّب ؛ قال : إنه عليل ، قال : ليست علّتُه بمانعة[1] ، فقال عبد الملك : لقد أراد بِشْر أن يفعل مافعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولِّيَ المهلّب الحربَ ، فوجّه إليه ، فقال : أنا عليل ، ولا يمكننى الاختلاف ؛ فأمَر بِشْر بحمْل الدّواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بِشْرٌ بالخروج ؛ فاقتطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ألّا يقيم بَعْد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا بالفرات ، فخرج المهلّب حتى صار إلى شَهارطاق ؛ فأتاه شيخ من بنى تميم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ سنِّى ماترَى، فهبْنِى لعيالى، فقال[2] : على أن تقول للأمير إذا خَطَب فحشّكم على الجهاد : كيف تحثّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبس عَنه أشرافنا ، وأهلَ النَّجْدة منا ! ففعل الشيخُ ذلك ؛ فقال له بشْر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى المهلّبُ رجلاً ألفَ درهم، على أن يأتىَ بِشراً فيقول له : أيُّها الأمير ، أعِنِ[3] المهلّب بالشُّرْطة والمقاتِلة ؛ ففعل الرجل ذلك؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحةٌ حضرتْنِي للأمير والمسلمين؛ ولا أعود إلى مثلها ، فأمدّه بِشْر بالشُّرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقِد لعبد الرحمن بن مِخْنف على ثمانية آلاف ، من كلّ رُبْع ألفين ، ويوجّه بهم مدداً للمهلّب .

---

(١) الكامل : « بما نعته » .
(٢) ساقطة من ج .
(٣) ب : « أغن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزدِىّ يعقد [1] له ، واختار من كلّ رُبْع ألفين، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرير بن عبدالله البَجَلِىّ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، وعلى رُبْع كِنْدة محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدىّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المذْحِجىّ، فقدموا على بِشْر بن مروان ، فخلا بعبدالرحمن بن مِخْنف ، وقال له : قدعرفتَ رأيِى فيك ، وثقتى بك ، فكن عند ظنّى بك ، وانظر إلى هذا المزُونِىّ ، فخالفه فى أمره، وأفْسِدْ عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ماأعجبَ ماطلَبَ [2] مِنّى هذا الغُلام ! يأمرُنى أنْ أصغِّر شأنَ [3] شيخٍ من مشايخ أهلِى ، وسيِّد من ساداتِهم ! فلحِق بالمهلّب .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوّ المهلّب منهم انكشفُوا عن الفُرات ، فاتبعهم المهلّب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها، ثم اتبعهم إلى رَامَهُرْمُز فهزمهم عنها، فدخلوا فارسَ ، وأبْلَى يزيد ابنه فى وقائعه هذه بلاء شديدا ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجَّه إليهم ابنَه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح: أيّها الأمير، إنه ليس لك برأىٍ قتلُ هذه الأكلُب ، ولئن والله قتلْتهم لتقعدنّ فى بيتك، ولكنْ طاولْهم ، وكُلْ بهم. فقال : ليس هذا من الوفاء ، فلم يلبَثْ برَامَهُرمز إلا شهرا ، حتى أتاه موت بِشْر بن مروان .

فاضطرب الُجند على ابن مِخْنف ، فوجّه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألّا يبرحا، فحلفا له ولم يفيا، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلُون حتى اجتمعوا

(١) الكامل : « فعقد » .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى الكامل ، و ب : « طمع » .
(٣) ج : « رأى » .

بسُوق الأهواز ، وأراد أهلُ البصْرة الانسلالَ من المهلّب ، فخطبهم فقال : إنّكُم لستُم كأهل الكُوفة ، إنما تذبّون عن مِصركم وأموالكم وحرَمكم .

فأقام منهم قومٌ ، وتسلّل منهم قومٌ كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفةَ بشر بن مروان ، فوجّه مولًى له بكتابٍ منه إلى مَنْ بالأهواز ، يحلف بالله مجتهداً : لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاةً لا يظفَرُ بأحدٍ إلا قتله . فجاءهم مولاه ، فجعل يقرأ عليهم الكتابَ ، ولا يرى فى وجوههم قَبولا ، فقال : إنى أرى وجوهاً ما القبولُ مِنْ شأنها ، فقال له ابن زَحْر : أيها العبد ، اقرأما فى الكتاب ، وانصرفْ إلى صاحبك ، فإنك لا تدرى ما فى أنفسنا . وجعلوا يستحثّونه بقراءته ، ثم قصدوا قَصْد الكوفة ، فنزلوا النُّخَيْلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم فى دخول الكوفة ، فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلّب ومَنْ معه من قواده وابن مِخْنف ، فى عدد قليل ، فلم يلبثُوا أن ولِيَ الحجّاج العراق .

فدخَل الكوفة قبل البَصْرة ؛ وذلك فى سنة خمس وسبعين ؛ فخطبهم الخطبة المشهورة[1] ، وتهدّدهم ؛ ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تَفعل بالعُصاة ؟ قالوا : كانت تضرب وتحبس ، فقال : ولكن ليس لهم عندى إلا السيف ؛ إنّ المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لأهلها ، ما قوتل عدوّ ، ولا جُبِيَ فَىْءٌ ، ولا عَزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، فقال : قد أجّلتكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من

---

(١) فى الكامل : « وقد ذكرنا الخطبة متقدما » ؛ وهى فى الكامل ٢١٧ (طبعة أوربا) .

أصحاب ابن مِخْنَف بعدَها إلا قتلتُه . ثم قال لصاحب حَرَسه ولصاحب شُرْطَته [١] : إذا مضت ثلاثة أيام ، فاشحذا [٢] سيوفكما . [٣] فجاءه عُمير بن ضابئ [البرجُمىّ] [٤] بابنه فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا أنفعُ لكم مِنّى ؛ وهو أشدّ بنى تميم أبدانا [٥] ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا ؛ وأنا شيخٌ كبير عليل ؛ واستشهد [جُلساءه] [٤] ؛ فقال له الحجاج : إنّ عذرك لَواضح ، وإن ضَعفك لَبيِّن ؛ ولكنى أكره أن يجترئ بك الناس علىّ ؛ وبعد ، فأنت ابن ضابئ صاحب عثمان ، وأمر به فقتِل [٣] ، فاحتَمل النَّاس ، وإنّ أحدَهم لَيُتَّبع بزاده وسلاحه ، ففى ذلك يقول [عبد الله] [٤] بن الزَّبير الأسدىّ [٦] :

أقولُ لعبــدِ الله يَوْمَ لقيتُهُ   أرَى الأمر أمْسَى مُنْصِباً متشعِّبا [٧]

---

(١) الكامل : « شرطه » .

(٢) الكامل : « ماتخذا » .

(٣–٣) وفى رواية أخرى للمبرد ٢١٧ : « فوضع للناس أعطياتهم ؛ فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ برعش كبرا ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إنى من الضعف على ماترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ؛ فتقبله بدلا منى ؛ فقال الحجاج : نفعل أيها الشيخ ؛ فلما ولى قال له قائل (هو عنبسة بن سعيد الأموى) : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا عمير بن ضابئ البرجمى الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْت وليتنى   تركتُ على عثمان تبكى حلائلُهُ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا ؛ فوطئ بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال : ردوه ؛ فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ ؛ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ! إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين ؛ ياحرسى ، اضرب عنقه ؛ فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ؛ ففى ذلك يقول عبد الله بن الزبير . . . . » الأبيات . وانظر الشعر والشعراء ٣١١ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٤٥ .

(٤) من الكامل .

(٥) الكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرصفى فى رغبة الآمل ٤ : ٢٧٠ ؛ أنه فى هذه الأبيات يخاطب إبراهيم بن عامر الأسدى ؛ وروى البيت الأول :

أقولُ لإبراهيمَ لمّـــا لقيتُهُ   أرى الأمر أضحى مُنصِبا مُتَشعِّبا

وذكر بعده :

تجهّزْ وأسرِع فالحقِ الجيشَ لَا أرَى   سوى الجيش إلّا فى المهالكِ مَذْهَبَا

فمَا إن أرَى الحجَّاجَ يغمِــدُ سَيْفَهُ   مَدَى الدَّهرِ حَتَّى يَتْرُك الطِّفْل أشْيَبا

(٧) منصبا : معيبا مجهدا .

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء عُميراً ، وإمّا أن تزور المهلبا
هما خُطّتا خسفٍ نجاؤك منهما رُكوبك حَولياً من الثلج أشهبا[(١)]
فما إن أرى الحجّاج يغمد سيفه مَدَى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكانَ السُّوق أو هي أقربا[(٢)]

وهرب سَوّارُ بنُ المُضَرِّب السَّعْدِي من الحجاج ، وقال :

أقاتِلي الحجّاج إن لم أزُرْ له دَرَابَ وأتركْ عِندَ هِنْد فؤاديا[(٣)]

في قصيدة مشهورة له .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشد عليهم إلحاحا ، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمّل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بني يشكر ، وكان شيخاً أعور ؛ يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فكان يلقّب ذا الكُرْسُفة ، فقال :

---

(١) نقل المرصفي بعده :

فكائنْ ترى من مكره الغزو مُسْمِراً تحمّمَ حِنْوَ السَّرجِ حتّى تَحنّبا

والمسمر : الذي لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حميم له . وحنو السرج : ماانعطف منه . وتحنّب : تقوس .

(٢) الهاء في « دونه » عائدة على المهلب ؛ أي لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق : هو سوق حكمة ؛ موضع بنواحي الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ، والضمير المرفوع وضع موضع الضمير المنصوب ، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل ــ بشرح المرصفي ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هي دوا بجرد ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد في الكامل ٢٨٩ (طبع أوربا) بعد هذا البيت :

فإن كانَ لا يُرْضيكَ حتّى تَرُدّني إلى قَطَرِيّ ما إخالُكَ راضيا
إذا جاوزتْ دَرْبَ المجيزين ناقتي فباسْتِ أبي الحجاج لما ثَنانيا
أيرجو بنو مَرْوان سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا !

أصلح الله الأمير ! إنّ بي فَتْقًا ، وقد عَذَرني بِشْر بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال : إنك عندى لصادق ؛ ثم أمر به فضربتْ عنقُه ؛ ففي ذلك يقول كعب الأشقريّ ـ أو الفرزدق[1] :

لَقَدْ ضَرَبَ الحجّاجُ بالمِصرِ ضَرْبَةً   تَقَرْقَرَ منها بَطنُ كلِّ عرِيفِ[2]

***

ويُروى عن أبى البئر[3] ، قال : إنّا لنتغدّى معه يوما ، إذ جاءه رجل من بنى سُليم[4] برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشُدُك الله أيها الأمير فى دمى ! فو الله ما قبَضْتُ ديوانا قطّ ، ولا شهدت عسكرا قطّ ، وإنى لحائك ، أُخِذتُ من تحتِ الحفِ[5] . فقال : اضربوا عُنقَه . فلما أحسّ بالسَّيف سجَد ، فلحقه السَّيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالى أراكم قد صَفِرتْ أيديكم ، واصفرّت وجوهكم ، وحدّ نظرُكم من قَتْل رجل واحد ! ألا إنّ العاصىَ يجمع خِلالًا ؛ يُخلُّ بمركزه ، ويَعْصِى أميرَه ، ويغرّ المسلمين ؛ وهو أجيرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة لِمَا يعمل ، والوالى مخيّر فيه ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإن بِشْراً استكره نفسَه[6] عليك ، وأراك غِناءَه[7] عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجدّ فى قتال عدوك ، ومَنْ خِفْتَه على المعصية مِمّن قبَلك فاقتله ،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .

(٢) تقرقر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج : « عن أبى السمر » ، وفى الكامل : « ابن أبى ميرة » .

(٤) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « من بنى تميم » .

(٥) الحف : القصبة التى تجىء وتذهب .

(٦) استكره نفسه : أدارها على الكره منها .

(٧) أى أراك أنه فى غنى عنك .

فإنى قاتل مَنْ قبلى ، ومَنْ كان عندى ممّن هرب عنك ؛ فأعلِمْنى مكانَه ؛ فإنى أرى أن آخذ السَّمىّ بالسَّمىّ ، والولىّ بالولىّ .

فكتب إليه المهلّب :

ليس قِبَلى إلا مطيعٌ — وإنّ الناسَ إذا [خافوا العقوبة كبّروا الذّنب ، وإذا](١) أمِنُوا العقوبة صغّروا الذنب ؛ وإذا يَئِسوا من العفو أكفرهم(٢) ذلك ؛ فهب لى هؤلاء الذين سمّيتَهم عصاة ؛ فإنهم فُرسان أبطال ؛ أرجو أن يقتُلَ الله بهم العدوّ — [ونادم على ذنبه](٣) .

فلما رأى المهلّب كثرةَ الناس عنده قال : اليوم قُوتل هذا العدوّ .

***

ولما رأى ذلك قَطَرِىّ ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السَّرْدَن(٤) ، فنتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو تأتى(٥) سابُور ، فتأخُذَ منها ما تُريد ، وتصير إلى كِرْمان. فأتوا سابور ، وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرّجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَن — وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحدِقة منيعة — فلم يصبْ بها أحداً ، فخرج فعسكر بكَازَرُون(٦) ، واستعدّوا لقتاله ، فخندقَ على نفسه ، ووجّه إلى عبد الرحمن

(١) من الكامل .
(٢) أكفرهم : حملهم على الكفر.
(٣) من الكامل و : « نادم » معطوف على « مطيع » .
(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .
(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخا .
(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا فى أخبار الخوارج ؛ وروى للنعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الْحَوَاصِنَ فى الخُدُورِ شَهِدْنَنَا فَيَرَيْنَ مَنْ وَغَلَ الكَتِيبَةَ أوّلا
وَقَرُوا وكُنَّا فى الوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ إذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غيرَ قَدِّم أوْ هَلا
رعدوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفِنَا ضَرْبًا ترى منهُ السواعِدَ تُخْتَلَى
تركوا الجماجِمَ والرِّماحُ تُجِيلُهَا فى كازرونَ كما تُجِيلُ الحَنْظَلا

ابن مخنف : خَنْدِق على نفسك . فوجّه إليه : خنادقُنا سيوفُنا ، فوجه المهلّب إليه : إنى لا آمن عليك البَيات ، فقال ابنه جعفر : ذاكَ أهونُ علينا من ضَرْطة جمل ، فأقبل المهلّب على ابنه المغيرة ، فقال : لم يصيبوا الرأى ، ولم يأخذوا بالوثيقة .

فلما أصبح القومُ عاودوه الحرب ؛ فبعثَ إلى ابن مخنف يستمدّه ، فأمدّه بجماعة ؛ جعل عليهم ابنه جعفرا ، فجاءوا وعليهم أقبيةٌ بيض جُدُد ، فأبلوْا يومئذ حتى عرف مكانَهم المهلّب ، وأبْلَى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشدّ .

ثم أتى رئيسٌ من الخوارج ، يقال له صالح بن مخراق ، وهو ينتخبُ قوماً من جلّة العَسْكر حتى بلغ أربعمائة ، فقال لابنه المغيرة : ما أراه يُعِدّ هؤلاء إلا للبيات[1] .

وانكشفت الخوارج ، والأمر للمهلّب عليهم ، وقد كَثُر فيهم الجراح والقتل ، وقد كان الحجّاج يتفقّد العصاة ، ويوجّه الرجال ، وكان يحبسهم نهارا ، ويفتح الحبس ليلًا ، فيتسلّلُ الرجال إلى ناحية المهلّب ، وكأنّ الحجاج لا يعلم ، فإذا رأى إسراعهم تمثّل :

إنّ لهَا لَسَابِقًا عَشَنْزَرَا إذا وَنَيْنَ وَنْيَةً تَغَشْمَرَا[2]

***

ثم كتب الحجّاج إلى المهلّب يستحثّه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنى أنك قد أقبلت على جباية الخراج ، وتركتَ قتال العدو ، وإنى وليّتُك[3] وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المجاشعىّ . وعبّاد بن الحصين الحَبَطىّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمان ، ثم رجلٌ من الأزد ؛ فالقهم يوم كذا فى مكان كذا ، وإلا أشرعتُ إليك صدر الرمح .

---

(١) الكامل : « مايعد هؤلاء إلا للبيات » .

(٢) فى الكامل : « إذا ونين ونية » ، وفيه « العشنزر : الصلب ، والتغشمر : ركوب الرأس ، والمتغشمر : الجاد على ماخيلت » يريد : ماخيلت نفسه ؛ وهم يحذفون فاعل هذا الفعل.

(٣) يريد أبقيتك على ولايتك .

فشاور المهلّب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير[١] ، لا تُغلِظ عليه في الجواب[١] .

فكتب إليه :

وردَ إلىّ كتابك ، تزعُم أنّى أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومَنْ عَجزَ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدو أعجز . وزعمتَ أنك ولّيتنى ، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعبّاد بن الحصين ، ولو ولّيتهما لكانا مستحِقّيْن لذلك لفضلهما وغنائهما وبطشهما . وزعمتَ أنك اخترتَنى وأنا رجلٌ من الأزد ، ولعمرى إنّ شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتْها ثلاث قبائل ، لم تستقرّ فى واحدة منهنّ . وزعمتَ أنى إن لم ألقهم يوم كذا فى مكان كذا أشرعتَ إلىّ صدرَ الرمح ، لو فعلتَ لقلبتُ لك ظهر المِجنّ[٢] . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عَقِيب هذا الكتاب .

* * *

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إنى أخاف البَيات على بنى تميم ، فانهض إليهم فكن فيهم ، فأتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال . يا أبا حاتم ، أيخاف الأميرُ أن يؤتَى من ناحيتنا! قُلْ له : فليبت آمنا ، فإنا كافوه ما قِبَلَنا إن شاء الله .

فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين كان أعدّهم للبيات إلى ناحية بنى تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إنّى لَمُذْكٍ للشُّراةِ نارَها ومانعٌ مِمّنْ أتاها دارَها

* وغاسِلٌ بالسيف عنها عارَها *

(١ ـ ١) الكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه فى الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : ما يتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظاً متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :

وَجَدْتُمُونَا وُقُراً أنجـادَا لا كُشُفاً مِيلاً ولا أوْغَادَا[1]

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار ! فقالوا : إنما أعِدّتْ لك ولأصحابك، فقال الحريش: كلّ مملوك لى حُرّ إن لم تدخلوا النّار ، ما دخلها مجوسىٌّ فيما بين سَفَوان[2] وخُراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكرَ ابن مِخْنف ، فإنه لا خندق عليه ، وقد بَعث فرسانهم اليوم مع المهلّب ، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل . فأتوْهم فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه ، إلا وقد خالطُوهم فى عسكرهم .

وكان ابن مخنف شريفا، وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، ويضرب بابن مخنف المثل :

تَرُوحُ وتَغْدُو كلَّ يوم مُعَظَّماً كأنك فينا مِخْنفٌ وابن مِخْنَفِ

فترجّل عبد الرحمن تلك الليلة بجالدهم ، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القرّاء ، فيهم نفرٌ من أصحاب علىّ بن أبى طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبرُ المهلّب — وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنف عند المهلّب — فجاءهم مُغيثا فقاتل حتى ارتُثّ[3] ، ووجّه المهلّب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم، ثم جاء المهلّب حتى صلّى على عبد الرحمن بن مِخْنف وأصحابه ، وصار جندُه فى جند المهلّب ، فضمّهم إلى ابنه حبيب ، فعيّرهم البَصرِيّون ، وسمّوْا جعفرا خضفة الجمل .

---

(١) فى الكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضد البليد ؛ وهو المتيقظ الذى لا كسل عنده ولا فتور . والأميل ، فيه قولان : قالوا : الذى لا يستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لا سيف معه . والأكشف: الذى لا ترس معه والأجم :الذى لا رمح معه ، والحاسر: الذى لا درع عليه. والأعزل: الذى لا يتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف » . وذكر بعده هذا البيت :

هَيْهَاتَ لَا تَلْقَوْنَنَا رُقَادَا لَا بلْ إذَا صِيحَ بِنَا آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحتين : ماء على قدر مرحلة من مربد البصرة .

(٣) المرتث : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تركت أصحابَكم تَدْمَى نُحُورُهُمُ   وجئتَ تَسْعى إلينا خَضْفَةَ الجملِ[1]

فلامَ المهلّب[2] أهل البصرة ، وقال : بئسما قلتم ؛ والله ما فرّوا ولا جَبُنوا ؛ ولكنهم خالفوا أميرهم ؛ أفلا تذكرون فِرارَكم بدُولابَ عَنّي ، وفرارَكم بدَارِس[3] عن عثمان[4] !

* * *

ووجه الحجّاج البراء بن قبيصة إلى المهلّب يستحثّه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه : إنّك تحبُّ بقاءهم لتأكُلَ بهم ، فقال المهلّب لأصحابه : حَرِّكُوهم ، فخرج فُرسان من أصحابه ، فخرج إليهم من الخوارج جَمْعٌ كثير ، فاقتتلوا إلى الليل : فقال لهم الخوارج : وَيْلَكم ! أما تَمَلُّون ! فقالوا : لا ، حَتّى تملُّوا ، فقالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، فقالت الخوارج : ونحن تميم أيضاً ، فلما أمسَوْا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلّب ، وخرج إليهم من الخوارج عشرة ، واحتفر كلُّ واحدٍ منهم حَفِيرة ، وأثبت قدميه فيها ، كلّما قُتِل رجل جاء رجل من أصحابه فاجترّه وقام[5] مكانه حتى أعتموا[6] ، فقال لهم الخوارج : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، قالوا لهم : وَيْلكم مَنْ أنتم ! قالوا : تميم ، قالوا : ونحن

---

(١) فى الكامل : « تركت أصحابنا » ، وفيه : قوله : « خضفة الجمل » يريد ضرطة الجمل ؛ يقال : خضف البعير ؛ وأنشدنى الرياشى لأعرابى يذم رجلا اتخذ وليمة :

إنّا وَجَدْنَا خَلَفَاً بِئْسَ الْخَلَفْ   أغْلَقَ عَنـــــا بَابَهُ ثمَّ حَلَفْ
لا يُدْخِلُ البوابُ إلّا من عَرَفْ   عبدا إذَا ما ناء بِالْحِمْلِ خَضَفْ

(٢) فى الكامل : « فلامهم » .

(٣) فى الأصول : « بفارس » ، وما أثبته عن الكامل . ودارس : موضع ذكره البكرى وقال : إنه فى ناحية مسرقان . ومسرقان : قرية من أعمال البصرة .

(٤) هو عثمان بن قطن بن عبيد الله ؛ أحد بنى الحارث بن كعب ؛ وكان الحجاج بعثه إلى شبيب ؛ فانهزم أصحابه عنه ، وقاتل حتى قتل .

(٥) الكامل : « ووقف » .

(٦) أعتموا : ساروا فى العتمة ، وهى ثلث الليل الأول بعد مغيب الشفق .

تميم أيضاً : فرجع البَرَاء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له : مَهْيم ؟[١] قال : رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله .

وكتب المهلّب جواب الحجاج : إنّى منتظر بهم إحدى ثلاث : موتا ذريعا ،[٢] أو جُوعاً مُضِرًّا ، أو اختلافا من أهوائهم .

وكان المهلّب لا يتّكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولّى ذلك بنفسه ، ويستعين عليه بولده ، وبمن يحلّ محلهم فى الثقة عنده .

قال أبو حَرْملة العبدىّ يهجو المهلّب ، وكان فى عسكره :

عَدِمْتُك يامُهَلّبُ من أميرٍ ... أما تَنْدَى يمينُك للفقير !

بِدُولَابٍ أضعتَ دماءَ قومى ... وَطِرْتَ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورِ[٣]

فقال له المهلّب : ويحك ! والله إنّى لأَقِيكم بنفسى وولدى ، قال : جعلنى الله فداء الأمير ! فذاك الذى نَكْره منك ، ما كلُّنا يحبّ الموت . قال : ويحك ! وهل عنه مِنْ محيص ! قال : لا ، ولكنا نكره التعجيل ؛ وأنت تُقدِم عليه إقداما ، قال المهلّب: وَيلك! أما سمعت قول الكلْحبة اليربوعىّ :

فقلتُ لكأْسٍ ألجِميها فإنّما ... نَزَلْنا الكَثِيبَ مِنْ زَرُودَ لنَفْزَعا[٤]

---

(١) مهيم ، كلمة استفهام معناها : ما الخبر وما الأمر ؟ وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبدالرحمن بن عوف ، وعليه درع خلق ، فقال : مهيم؟ فقال : تزوجت يارسول الله . وفى الكامل: « مه » وهى بمعنى الاستفهام أيضا .

(٢) ذريع : سريع .

(٣) قال المبرد : قوله : « مواشكة » ، يريد سريعة ، ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل مواشك ، إذا كان سريعا ، قال ذو الرمة :

إِذَا مَا رَمَيْنَا رَمْيَةً فى مَفَازَةٍ ... عرَاقِيبَهَا بالشيظمىّ المواشكِ

و « درور » فعول ، من در الشىء ، إذا تتابع .

(٤) كأس : اسم بنته ، والعرب لا تثق بأحد فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . والكثيب : القطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ، ولـكنّ قولى أحبّ إلىّ منه :

وَلَمّا وقفتمْ غُــدوةً وعدوّكُمْ ... إلى مهجتى وَلَّيتُ أعداءكُمْ ظَهْرِى

وطرتُ ولم أحفل ملامَةَ جاهِلٍ ... يُساقِى المنايا بالرديْنيّة السُّمْرِ (١)

فقال المهلب : بئس حشو الـكتيبة أنت والله ياأبا حرملة إنْ شئت أذِنتُ لك فانصرفْت إلى أهلك . قال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال يمدحه :

يَرَى حَتْماً عَلَيْــه أبُو سَعِيدٍ ... جِــلَادَ القَوْمِ فِي أولَى النَّفِيرِ

إذا نادَى الشُّرَاةُ أبا سعيــدٍ ... مَشَى فى رِفْلِ محـكَمة القَتِيرِ (٢)

قال : وكان المهلّب يقول : مايسرّنى أنّ فى عسكرى ألف شجاع مكان بيهس بن صُهيب، فيقال له : أيها الأمير، بَيْهس ليس بشجاع ، فيقول : أجل، ولـكنّه سديد الرأى، محكم العقل ، وذو الرأىِ حذر سَئول ، فأنا آمن أن يُغتَفَل ، ولو كان مكانه ألف شجاع لخِلت أنهم يَنْشَامون (٣) حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة ، فقال المهلّب : مَنْ يكفينا أمرَ هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس المهلّب سلاحه، وقام إلى العقبة واتّبعه ابنُه المغيرة، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضَبْط العقبة ، والحظّ

= المستطيلة من الرمل ، محدودبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة وهو من الأضداد . وقبل هذا البيت :

ونادَى منادى الحىّ أن قد أُتيتمُ ... وقد شرِبتْ ماء المزادةِ أجمعا

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أمرتـكمُ أمرى بمنعرج اللّوَى ... وَلَا أمْرَ للمعصىّ إلا مُضيّعا

إذا المرء لم يغشَ الـكريهة أوشكت ... حبال الهوينى بالفتى أن تقطّعا

(١) الـكامل : « ملامة عاجز » ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح.

(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله ، وأما الرفل بفتحها ، فمصدر رفل كنصر : جر ذيله وركضه برجله ، والقتير : رءوس مسامير حلق الدروع.

(٣) ينشامون ، من انشام الشىء دخل فيه واختبأ ، كنشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يغتفلوا.

فى ذلك لنا ، فلم نطِعْه ، ولبس سلاحه واتّبعه جماعة من العسكر ، فصاروا إليه ، فإذا المهلّب والمغيرة ولا ثالثَ لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير ، فنحنُ نكفيكَ إن شاء الله ، فلما أصبحُوا إذا هم بالشُّراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحملُ وفرسه تزْلق، ويَلقاه مُدرك فى جماعة معه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النّحْر والمهلّب على المنبر يخطب الناس ، إذ الشُّراة قد أكبّوا [٢]، فقال المهلب : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم! يا مغيرة اكفنيهم! فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القُرْدوسىّ [٣] وكان سعد مقدّما فى شجاعته ، وكان الحجاج [٤] إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القُرْدُوسىّ ما عدا [٥] ! فخرج أمامَ المغيرة ، ومع المغيرة جماعة من فُرسان المهلب، فالتقوا ، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريه الوجه، شديد الحَمْلة ، صحيح الفروسيّة ، فأقبل يحمل على الناس ، ويرتجز فيقول :

نحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَــداةَ النَّحْرِ بالخيلِ أمثالِ الوشيجِ تجْرى [٦]

فخرج إليه سعد بن نجد القُرْدُوسىّ ، من الأزد ، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس ، فصُرِع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستانىّ [٧] وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سَقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب ، فقالوا: قُتِل المغيرة ، فأتاه دينار السجستانىّ ، فأخبره بسلامته ، فأعتق كلّ مملوك كان بحضرته.

***

(١) الشراة : الخوارج ؛ قال الجوهرى : سموا بذلك لقولهم : إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله ؛ أى بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة .

(٢) الكامل : « تألبوا » .

(٣) فى الأصول : « الفردوسى » ، تصحيف صوابه من الكامل ، وقردوس : قبيلة من الأزد .

(٤) الكامل : « المهلب » .

(٥) أى ماتجاوز إعجابك إعجابه .

(٦) الوشيج : مانبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه فى بعض ؛ أو ما صلب فيه .

(٧) الكامل : « السختيانى » .

قال : ووجّه الحجاج الجرّاح بن عبد الله إلى المهلّب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

أما بعد؛ فإنك جَبَيْت الخراج بالعِلل[1]، وتحصّنت بالخنادق ،وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثر عددا ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبْنًا ؛ ولكنّك اتخذتهم أُكُلاً[2]، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم؛ فناجزْهم وإلاأنكرتَنى ، والسلام.

فقال المهلّب للجرّاح : ياأبا عُقْبة ، والله ماتركتُ حيلة إلا احتلتُها ، ولا مكيدةً إلا أعملتُها ؛ وماالعجبُ من إبطاء النُّصْرَة[3] وتراخى الظَّفَر ؛ ولكنّ العجب أن يكون الرأىُ لمن يملِكهُ دون مَنْ يُبْصِره .

ثم ناهضهم ثلاثةَ أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلكَ إلى العصر ، وينصرف أصحابُه وبهم قَرْح ، وبالخوارج قَرْح وَقَتْل . فقال له الجرّاح : قد أعْذَرْت .

فكتب المهلّب إلى الحجاج :

أتانى كتابك تستبطئُنى فى لقاء القوم ؛ على أنّك لاتظنُّ بى معصية ولا جُبْنا ؛ وقد عاتبتَنى معاتبة الجبان[4]، وأوعدْتَنِي وعيدَ[5] العاصى ؛ فسلِ الجرّاح . والسلام .

فقال الحجاج للجرّاح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال : والله أيّها الأمير ، مارأيت مثلَه قطّ ، ولا ظننْت أنّ أحدا يبقى على مثلِ ماهو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياما ثلاثة يَغْدُون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف؛

---

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .
(٢) الأكل بالضم : اسم للمأكول .
(٣) الكامل : « النصر » .
(٤) أى معاتبتك للجبان .
(٥) فى الأصول : « وعد » ، وما أثبته من الكامل .

ويتخابَطون بالعَمَـد ؛ ثم يروحون كأنْ لم يصنَعُوا شيئا ، رَوَاحَ قومٍ تلك عادتُهم وتجارتُهم .

فقال الحجّاج : لَشَدّ مامدحته[1] أبا عُقْبة ! فقال : الحقّ أوْلَى .

وكانت رُكُبُ الناس[2] قديما من الخشب ، فكان الرّجل يضرب ركابه فينقطع ، فإذاأراد الضّربَ أو الطعن لم يكن له معتَمَد؛ فأمر المهلّب بضَرْب[3] الرُّكُب من الحديد : فهو أول من أمَر بطبعها ؛ وفى ذلك يقول عمران بن عصام العنزِىّ :

ضَرَبُوا الدّرَاهِمَ فى إمـارَتِهِمْ . وَضَرَبْتَ لِلْحَـدَثَانِ وَالْحرْبِ

حَلَقًا تَرَى مِنهـا مَرَافِقَهُمْ . كَمنـاكِبِ الجمَـالَةِ الْجُربِ[4]

* * *

قال : وكتبَ الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ ؛ من بنى رياح بن يَرْبوع — وهو والى أصْفهان — يأمره بالسير إلى المهلّب ، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ، فكلُّ بلدٍ يدخلانه من فُتوح أهـل البصرة فالمهلّب أميرُ الجماعة فيـه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتُم بلدا فَتَحَهُ أهلُ الكوفة[5] فأنتَ أميرُ الجماعة ، والمهلّب على أهل البصرة .

فقدِم عتّاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلّب ، وهو بسابور — وهى من فتوح أهل البصرة — فكان المهلّب أميرَ الناس وعتّاب على أصحاب ابن مخنف ، والخوارج بأيديهم كِرْمان ، وهم بإزاء المهلّب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحى .

---

(١) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « وصفته » .

(٢) ركب الناس ، الركب ، بضمتين : جمع ركاب ؛ وهو مايعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما مايعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الغرز .

(٣) ج : « فضربت » .

(٤) المرافق هنا : معتمدات الأرجل من الحلق ؛ ويريد بمناكب الجمالة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجمالة ، مثلثة الجيم مخففة الميم : الطائفة من الجمال .

(٥) الكامل : « فتحه لأهل الكوفة » .

قال : ووجّه الحجّاج إلى المهلّب رَجُلَيْن يستحثّانه لمناجزة القوم : أحدُهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ،من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عَقِيل من رهط الحجاج، فضمّ المهلّب زيادا إلى ابنه حَبيب ، وضمّ الثّقَفِيّ إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيبا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتتلوا أشدّ قتال ؛ فقتِل زياد بن عبد الرحمن العامرىّ ، وفقد الثقفىّ . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ؛ وقد وُجِد الثقفىّ ، فدعا به المهلّب، ودعا بالغداء ، فجعل النَّبْل يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثقفىّ يَعْجَب من أمر المهلّب ؛ فقال الصَّلتان العبدىّ :

أَلَا يااصْبَحانِى قَبْلَعَوْقِ الْعَوَائِق[1] ... وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مثل الْعَقَائِقِ[2]

غــداةَ حبيبٍ فى الحديد يقودُنا ... يخوض المنــايا فى ظلال الخوافِقِ

حَرُونٌ إذا ما الحربُ طَار شَرَارُها[3] ... وَهـاجَ عَجَاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ[4]

فمَنْ مبلـــغُ الحجّاج أنّ أمينَه ... زياداً أطاحتـــهُ رماحُ الأزارقِ !

فلم يزل عتّاب بن وَرْقاء مع المهلّب ثمانية أشهر حتى ظهر شَبِيب بن يزيد ؛ فكتب الحجّاج إلى عتاب يأمُره بالمصير إليــه ليوجّهه إلى شَبيب ، وكتب إلى المهلّب يأمره أن يرزُق الجندَ ، فرزَق أهلَ البصرة ، وأبى أن يرزُقَ أهل الكوفة ، فقال له عتّاب : ما أنا ببارِحٍ حتى تَرْزُق أهلَ الكوفة، فأبى ، فجرتْ بينهما غِلْظة ،فقال له عتاب:قدكان يبلغنى أنّك شجاع ، فرأيتُك جَبَانًا ، وكان يبلغنى أنّك جوادٌ ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلّب : يابن اللَّخْناء ؛ فقال له عتّاب : لكنك مُعَمٌّ مُخْول !

(١) اصبحانى ؛ من صبحه إذا سقاه صبوحا من خمر أولبن . والعوائق : جمع عائقة ؛ وهى كل ماصرفك عما تريد .

(٢) فى الكامل : « قوله : وقبل اختراط القوم مثل العقائق ، يعنى السيوف ، والعقائق : جمع عقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برق ، أى كأنه لمعة برق ، ويقال : انعق البرق إذا تبسم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ،لأنه كان يحرن فى الحرب فلا يبرح ، وذلك مستعار من قولهم :فرس حرون لاينقاد ، وانظر رغبة الآمل ٤ : ٨٨ .

(٤) الكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلّب للحلْف ، ووثب نُعَيم بن هُبيرة ، ابن أخى مَصْقَلة ابن هُبيرة على عتّاب فشتَمه ، وقد كان المهلّب كارهاً للحلْف ، فلما رأى نُصرة بكْر ابن وائل له سرّه ، واغتبط به، فلم يزل يؤكّده ، وغضبت تميم البَصْرة لعتّاب ، وغضبت أزْدُ الكوفة للمهلّب ؛ فلما رأى ذلك المغيرةُ مشى بين أبيه وبين عتّاب ؛ وقال لعتّاب : يا أبا ورقاء ؛ إنّ الأميرَ يصيرُ إلى كلٍّ ماتحبّ ،وسأل أباه أن يرزُقَ أهل الكوفة، ففعل فصلَح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يَحْمَدون المغيرة بن المهلّب ، وكان عتاب يقول : إنّى لأعرف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزد ، من بنى إياد بن سُود :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا وَرْقَاءَ عَنَّا ... فَلَوْلَا أَنَّنَا كُنَّا غِضَابَا

على الشَّيْخ المهلّب إذْ جَفانَا ... لَلَاقَتْ خيلُكم مِنّا ضِرَابا

***

قال : وكان المهلّب يقول لبنيه : لا تبدءوا الخوارج بقتال حتى يبدءوكم ، ويَبْغُوا عليكم ، فإنهم إذا بَغَوْا عليكم نُصِرْتُم عليهم .

فشخص عَتّاب إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين ، فوجّهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلّب على حربهم ، فلما انقضَى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافترقت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أنّ رجلًا حداداً من الأزارقة ،كان يعمل نِصالًا مسمومة، فيُرمَى بها أصحابُ المهلّب ؛ فرُفِع ذلك إلى المهلّب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجّه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرىّ ، فقال له : ألقِ هذا الكتابَ فى العسكر والدّراهم ، واحذر على نفسك ــ وكان الحدّاد يقال له أبْزَى ــ فمضى الرجل. وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإن نصالَك قد وصلت إلىّ ، وقدوجّهتُ إليك بألف درهم فاقبِضْها وزدنا من هذه النِّصال .

فوقع الكتاب إلى قَطَرِىّ ، فدعا بأبْزَى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فَقُتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلًا على غير ثِقةٍ[1] ولاتبين ! قال قطرىّ : فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذبا ، ويجوز أن يكون حقًّا ، فقال قَطَرِىّ : إنّ قتلَ رجُلٍ فى صلاح الناس غير منكَر ، وللإمام أن يحكُم بما رآه صلاحا ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه . فتنكّر له عبدُ رَبّه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلّب فدسّ إليهم رجُلًا نصرانيًّا ؛ جعل له جُعْلًا يُرْغَب فى مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسجُدْ له ؛ فإذا نهاكَ فقل : إنّما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النّصرانىّ ، فقال قطرىّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال ما سجدتُ إلا لَكَ ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عَبَدَكَ من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[2] ؛ فقال قطَرىّ : إنّ النصارى قد عبدُوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئا . فقام رجل من الخوارج إلى النّصرانىّ فقتله ، فأنكر قطرىّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكارَه .

وبلغ المهلّب ذلك ، فوجّه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجُلَيْن خرجا مهاجريْن إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجُزِ المحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أمّا الميت فمؤمن من أهل الجَنّة ، وأما الذى لم يَجُزِ المِحنة فكافر حتى يُجيز المحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيز المحنة ؛ فكثر الاختلاف .

وخرج قطَرىّ إلى حدود إصطَخْر ؛ فأقام شهراً ، والقومُ فى اختلافهم . ثم أقبل فقال

---

(١) ج « وثيقة » .

(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم صالح بن مخراق : يا قوم ، إنكم أقررتم عين عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم [١] ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا — وهو من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم — فنادى : يأيها المحِلّون [٢] ؛ هل لكم فى الطِّرَاد فقد طال عهدى به ! ثم قال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّا مذْ ثلاثين ليلةً جَدِيبٌ وأعداء الكتاب على خَفْضِ [٣]

فتهايج القوم ، وأسرع بعضُهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلّب ، وصار فى وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطّه وترفَعُه ، واعتورتْ رأسَه السيوف ، وعليه ساعد حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئا ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرِع ، وكان الذى صَرَعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أنا ابن خيرِ قومِه هلالِ شيخٌ على دينِ أبى بلالِ

* وذاكَ دينِى آخرَ الليالى *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنّا نعجب كيف تُصْرَع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلّب لبنيه : إنَّ سَرْحَكُم [٤] لغارّ ، ولست آمنهم عليه ، أفوكّلتم به أحدا ؟ قالوا : لا ، فلم يستتمّ الكلام حتى أتاه آتٍ ، فقال : إن صالح بن مخراق قد أغارَ على السَّرْح ، فشقّ على المهلّب ، وقال : كل أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمّر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أرِحْ نفسك ؛ فإنْ كنتَ إنما تريد مثلك فوالله ما يعدِل خيرُنا شِسْعَ [٥] نعلك ،

(١) ج : « اختلافكم » .
(٢) المحلون : الذين لا يحفظون عهدا ولا يرعون حرمة ؛ فكأنما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن تستباح .
(٣) الخفض . الدعة ولين العيش .
(٤) السرح : المال السائم فى المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغار الذى يطمع الناس فى أخذه حيث لا راعى له يحفظه .
(٥) الشسع : قبال النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المغيرة ، ومدرك والمفضّل ابنا المهلّب؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يَشُلّ السَّرْح[1] ، وهو يقول :

نَحْن قَمعناكُمْ بشلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَأْنا القَرْحَ بَعْدَ القَرْحِ[2]

ولحقه المفضّل ومدرك ، فصاحا برجل من طيّئ : اكفِنا الأسود؛ فاعتوره الطائيّ وبشر ابن المغيرة فقتلاه ، وأسَرَا رجلًا من الأزارقة من هَمْدان ، واستردّا السَّرْح[3] .

قال : وكان عيّاش الكنديّ شجاعا بئِيساً[4] ، فأبلى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلّب : لا وألتْ[5] نفسُ الجبان بعد عَيّاش ! وقال المهلّب : ما رأيت تالله كهؤلاء القومِ ، كلما انتُقص[6] منهم يزيد فيهم !

* * *

ووجّه الحجاج رجلين إلى المهلّب يستحثّانه بالقتال : أحدهما من كَلْب ، والآخر من سُلَيم ، فقال المهلّب متمثّلا بشعر لأوس بن حَجَر :

ومستعجِبٍ مما يرى من أناتِنا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحربُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[7]

فقال المهلّب ليزيد ابنه : حَرِّك القوم ، فحرّكهم فتهايَجُوا ؛ وذلك فى قرية من قرى إصطخْر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب وطعنه ، فشكّ فخذه بالسَّرْج ، فقال المهلّب للسُّلميّ والكلبيّ : كيف يُقاتَل[8] قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) فى الكامل : « يشل السرح » ، أى يطرده » .

(٢) فى الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت القرحة ، مهموز ، ونكيت العدو غير مهموز ؛ من النكاية ، ونكأت القرحة نكأ ؛ قال ابن هرمة :

ولا أَرَاها تَزَالُ ظَالِمَةً تُحْدِثُ لِي قَرْحَةً وَتَنْكَؤُها

(٣) فى الكامل : « وخلى سبيله » .

(٤) البئيس ، من بؤس الرجل يبؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) لا وألت ، أى لا نجت .

(٦) الكامل : « ينقص » .

(٧) قال المبرد : قوله زبنته ؛ يقول : دفعته . ولم يترمرم : لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فما ترمرم .

(٨) الكامل : « نقاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرُّقاد ـ وهو من فرسان المهلب ـ وهو أحد بنى مالك بن ربيعة، على فرس له أدْهم ؛ وبه نَيِّف وعشرون جِراحة ، وقد وضع عليها القُطْن ، فلما حمل يزيد ولّى الجمع ، وحَمَاهم فارسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الْخُشَنِىّ ، مولى العتِيك : مَنْ لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليهما ، فعطف عليه أحدهما فطعنَه قيس فصرعه ، وحمل عليـه الآخر فتعانقا ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنىّ : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزُوا بينهما ، فإذا مُعانِق قيس امرأة ، فقام قيس مستحْيِياً، فقال له يزيد : ياأبا بشر ، أمّا أنتَ فبارزتَها على أنَّها رجل ، فقال : أرأيت لو قُتِلْتُ ، أما كان يقال : قتلته امرأة ! وأبلى يومئذ ابن المنجِب السَّدُوسىّ ، فقال غلام له يقال له خِلاج: والله لوددنا أنا فَضَضْنا عسكرهم حتى نصيرَ إلى مستقرّهم ، فأستلِب مما هناك جاريتين . فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمنّيت ويحك اثنتين ! فقـال : لأعطيَكَ إحداهما وآخـذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أخلاجُ إنكَ لَنْ تعانِقَ طَفْلَةً ... شَرِقًا بها الجـادىّ كالتِّمْثالِ[1]

حَتّى تلاقَ فى الـكَتِيبة مُعْلِماً ... عَمْرو القَنا وعبيدة بن هلالِ[2]

وترى المقعطَر فى الفَوارِس مقدِماً ... فى عُصْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضُّلاّلِ[3]

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء فقلت : طفلة ؛ فهى الصغيرة . والجادى : الزعفران » .

(٢) قال المبرد : « الـكتيبة : الجيش ؛ وإنما سمى الجيش كتيبة لانضمام أهـله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمى الـكتاب ؛ ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة، وكتبت القربة ؛ إذا خرزت ذلك الوضع . والمعلم. الذى قد شهر نفسه بعلامة ؛ إما بعمامة صبيغ ؛ أو بعشهرة ، وإما بغير ذلك . . وعمرو القنا من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بنى يشكر بن بكر بن وائل . والذى طعن صاحب المهلب فى فخذه فشكها مع السرج من بنى تميم ؛ قال : ولا أدرى : أعمرو هو أم غيره ؟ » .

(٣) فى الـكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقعطر : من عبدالقيس ، وقوله : « قسطوا » ، أى جاروا ؛ يقال: قسط يقسط فهو قاسط ؛ إذا جار ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَـكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ .

أو أنْ يعلّمَك المهلّب غَزْوَهُ وَتَرى جبالاً قد دَنَتْ لجبالِ

قال: وكان بدر بن الهُذيل من أصحاب المهلّب شجاعا، وكان لَحَّانة؛ كان إذا أحسّ بالخوارج ينادى: «يا خيلِ الله ارْكَبِي»؛ وإليه يشير القائل:

وَإذَا طَلَبْتَ إلَى المهلّب حاجَةً عَرَضَتْ توابعُ دُونَهُ وعَبِيدُ[1]

العبــــد كُرْدُسٌ وبَدرٌ مثلُه وعلاجُ باب الأحمرين شَدِيدُ[2]

قال: وكان بشر بن المغيرة بن أبى صُفرة أبلى يومئذ بلاء حسنا عُرِف مكانه فيه؛ وكانت بينه وبين المهلّب جَفْوة، فقال لبنيه: يا بنى عمّ، إنى قد قصرت عن شَكاةِ العاتب[3]؛ وجاوزتُ شَكَاةَ المستعتِب[4]؛ حتى كأنى لا موصول ولا محروم؛ فاجعلوا لى فُرْجَةً أعيش بها، وهبونى امرأً رجوتم نصره؛ أوخفتم لسانه. فرجعوا له ووصلوه، وكلّموا فيه المهلّب، فوصله.

وولّى الحجاج كَرْدماً فارس، ووجّهه إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلّب:

وَلَوْ رَآها كَرْدَمٌ لَكَرْدَمَا كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسّ الضَّيْغَمَا[5]

فكتب المهلّب إلى الحجّاج يسأله أن يتجافَى له عن إصطخر ودَارا بجرد لأرزاق الجند، ففعل. وقد كان قطرىّ هدم مدينة إصطخر، لأن أهلها كانوا يكاتِبون المهلب بأخباره؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فَسا، فاشتراها منه آزاذ مَرْد بن الهربذ بمائة ألف درهم

---

(١) قال المبرد: توابع، أراد به الرجال؛ فجاز فى الشعر؛ وإنما رده إلى أصله للضرورة؛ وما كان من النعوت على «فاعل» بجمعه «فاعلون»؛ لئلا يلتبس بجمع «فاعلة» التى هى نعت».

(٢) قال المبرد: كردوس: رجل من الأزد؛ وكان حاجب المهلب. وقوله: «وعلاج باب الأحمرين شديد»؛ العرب تسمى العجم الحمراء.

(٣) العاتب: الساخط.

(٤) المستعتب: الطالب الرضا.

(٥) فى الكامل: «الضيغم: الأسد، و الكردمة: النفور».

فلم يهـدمها . فواقعه وجهُ المهلّب فهزمه ، فنفاه إلى كِرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفا وجّه به الحجاج إلى المهلّب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه ، فسر المهلّب ، وقال : ما يسرُّنى أن يكونَ كنت دفعته إلى غيرك من ولدى ؛ وقال له : اكفِنِى جباية خراج هاتين الـكورَتَيْن ، وضم إليه الرُّقاد ، فجعلا يَجْبيان ، ولا يعطيان الجند شيئا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى تميم فى كلمة له :

وَلَوْ عَلِم ابنُ يُوسُفَ ما نُلاقِى ... من الآفاتِ والـكُرَبِ الشِّدَادِ
لفاضت عينُه جَزَعاً علينـــــا ... وأصلح ما استطاع مِن الفسَادِ
ألا قلْ لِلأمير جُزِيتَ خَيْراً ... أرِحْنـــا مِنْ مُغِيرَةَ والرُّقادِ
فـــا رزق الجنودَ بهم قفيزاً ... وقد سَاسَتْ مطاميرُ الحصَادِ[1]

أى وقع فيها السوس[2] .

قال : ثم حاربهم المهلّب بالسِّيرَجان[3] حتى نفـاهم عنهـا إلى جِيرَفْت[4] واتبعهم ونزل قريبا منهم .

***

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتُّهم بامرأة رجل نجّار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ، فأتى قَطَرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ؛ فقالوا : إنّا لا نقارّ على الفاحشة ، فقال:

---

(١) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهى حفرة تحت الأرض يوسع أسفلها ؛ تخبأ فيها الحبوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السيرجان ، بكسر السين وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيرفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

انصرفوا، ثم بعث إلى عبيدة ، فأخبره ، وقال له : أنالاأقارّ على الفاحشة، فقال: بَهَتُونى[1] ياأمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ، فلا تخضعْ خضوع المذنب ، ولا تتطاولْ تطاولُ البرىء ؛فجمع بينهم ، فتكلموا،فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات[2]، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ؛ وقالوا : استغفِر لنا. ففعل ؛ فقال عبدُ ربّهِ الصغير مولَى بنى قيس بن ثعلبة:والله لقد خدعَكم ، فتابَعَ عبدَ ربّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبَيدة فى إقامة الحدّ ثَبَتاً[3].

***

وكان قَطَرِىّ قد استعملَ رجلا من الدَّهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأتوا قَطَرِيًّا ؛ فقالوا : إنّ عمر بن الخطاب لم يكن يُقارّ عمّاله على مثل هذا ؛ فقال قَطَرِىّ :إنِّى استعملتُه، وله ضياع وتجارات ،فأوغَرَ ذلك صدورَهم؛ وبلغ المهلّبَ ذلك، فقال : اختلافهم أشدُّ عليهم مِنّى، ثم قالوا لقَطَرِىّ : ألا تخرج بناإلى عَدُوِّنا ؟ فقال : لا، ثم خرج فقالوا:قد كَذَبَ وارتدّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسّ بالشرّ ،ودخل دارا مع جماعة من أصحابه ،فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يادابّة ، فخرج إليهم ، فقال :أرجعتم بَعْدِى كفارا ! قالوا:أولستَ دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4]؛ ولكنّك قد كَفَرْتَ بقولك .« إنا قد رَجَعْنا كفارا »، فتب إلى الله .فشاور عبيدة فى ذلك ،فقال له:إن تبتَ لم يقبلوا منك، فقل : إنِّى استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدى كفارا؟ »فقال لهم ذلك، فقبلوا منه ، فرجع إلى منزله .

---

(١) بهتونى : قالوا على مالم أفعل .
(٢) سورة النور ١١ ــ ٢٠
(٣) ثبتا ؛ بالتحريك ؛ أى حجة .
(٤) سورة هود ٦ .

[عبد ربّه الصغير]

ومنهم عبد ربِّه الصغير ، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما[1] اختلفت الخوارج على قَطَرِىّ بايعه منهم جمع كثير ، وكان قَطَرِىٌّ قد عزم على أن يبايع للمقعطر العبدىّ ، ويخلع نفسه ، فجعله أمير الجيش فى الحرب قبل أن يعهدَ إليه بالخلافة ، فكرهه القوم وأبوْه ، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه : ابغِ لنا غير المقعطَر ، فقال لهم قَطَرِىّ : إنّى أرى طولَ العهد قد غيّركم ، وأنتم بصدد عدوّ ، فاتقوا الله وأقبِلوا على شأنكم ، واستعدّوا للقاء القوم ؛ فقال صالح : إنّ الناس قَبْلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزِل سعيد بن العاصى عنهم ففعل . ويجب على الإمام أن يُعفِيَ الرعيّة مما كرِهَتْ . فأبى قَطَرِىّ أن يعزل المقعطر ، فقال له القوم : فإنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصّغير ـ وكان عبد ربّه هذا مُعلّمَ كُتّاب ، وكان عبد ربِّه الكبير بائع رمان : وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة ـ فانفصل إلى عبد ربِّه الصغير أكثر من شَطْرِهم : وجلُّهم الموالى والعجم ، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القرّاء ، ثم ندم صالح بن مخراق ، وقال لقَطَرِىّ : هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفنا من المقعطر ، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوِّك ، فأبى قطرىّ إلا للقعطر ، وحمل فتًى من الشُّرَاة على صالح بن مخراق ، فطعنه فأنفذه ، وأوجرَه الرمح[2] .

فنشبت الحرب بينهم ، فتهايجوا . ثم انحاز كلُّ قوم إلى صاحبهم ، فلما كان الغد اجتمعوا ، فاقتتلوا ، فأجلَتِ الحرب عن ألفَىْ قتيل ، فلما كان الغد عاودوا الحرب ، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العربَ عن المدينة ، فأقام عبد ربه بها ، وصار قَطَرِىٌّ خارجًا من

(١) الكامل ٣ : ٣٩٢ وما بعدها .

(٢) قال المبرد : « ومعنى أوجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه ؛ قال عنترة :

وآخَرَ منهم أجررت رُمحى   وفى البَجلىِّ معبلةٌ وقيعُ

مدينة جِيرفْت بإزائهم ، فقال له عبيدة بن هلال : ياأمير المؤمنين ، إن أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلّا أن تخندق على نفسك ؛ فخندَق على باب المدينة وجعل يُناوشهم ، وارتحل المهلّب ، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثّه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجِلْهم قبل أن يصطلحوا ، فقال المهلّب : إنّهم لن يصطلحوا ؛ ولكن دَعْهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها ، ثم دسّ رجلا من أصحابه ، فقال : ائت عسكر قَطَرِيّ ، فقل : إنى لم أزل أرى قَطَرِيًّا يصيب الرأى؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أيقيم بين المهلّب وعبد ربّه ، يغاديه القتال هذا ، ويراوحه هذا ! فنُمِىَ الكلام إلى قَطَرِىّ، فقال : صدق: تنحّوْا بنا عن هذا الموضع ، فإن اتّبعَنا المهلّبُ قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربِّه رأيتم فيه ما تحبُّون .

فقال له الصّلت بن مرة : ياأميرَ المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقْدِم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، ثم قال :

قُلْ للمحِلّين قد قرّتْ عيونُكُمُ ... بفرقَةِ القومِ والبغضاءِ والهَرَبِ
كنّا أُناساً على دينٍ فغيّرَنا ... طولُ الجِدَالِ وخَلْطُ الجِدِّ باللعبِ
ما كان أغنى رجالا قَلّ جيشُهم[1] ... عن الجِدالِ وأغناهم عن الخُطَبِ
إنّى لأهونُكُم فى الأرض مضطرَبا ... مالى سوى فرسِى والرُّمح من نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قَطرىّ ، وبلغ ذلك المهلّبَ ، فقال لهُزَيم بن أبى طَحْمَة المجاشعىّ : إنى لا آمن أن يكونَ كاذبًا بترك موضعه ، اذهب فتعرّف الخبَر، فمضى الهُزَيم فى اثنى عشر فارسا ، فلم يرَ فى المعسكر إلا عبدا وعِلجًا مريضين، فسألهما عن قَطَرِىّ وأصحابه، فقالا:

---

(١) الكامل : « ضل سعيهم » .

مضوا يرتادون غيرهذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلّب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزلَ خندق قطرىّ ، فجعل يقاتل عبدَ ربّه أحيانا بالغداة ، وأحيانا بالعَشِىّ ، فقال رجل من سَدُوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شَهِدْنَنَا ورأيْنَنَا بالسَّفح ذى الأجبـال

فنكون أهل الجِدّ من فرساننا[1] والضاربين جماجم الأبطـال

ووجّه المهلّب يزيدَ ابنه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطَرِىّ ، وأنه مقيم على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجّه فى أثر قطَرِىّ رجلا جَلْدا . فسرّ بذلك الحجاج سرورا أظهره . ثم كتب إلى المهلّب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنك تتراخَى عن الحرب حتى تأتيَك رُسُلِى فيرجعون بعذْرِك ؛ وذلك أنك تُمسِك حتى تَبرأ الجراح ، وتُنْسى القتلى ، وتجمّ الكالّ[2] ثم تلقاهم ، فتحمل منهم ثِقَل مايحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدّ لكان الداء قد حُسِم ، والقَرْن[3] قد قُصِم ؛ ولعمرى ماأنت والقوم سواء ، لأنّ مِنْ ورائك رجالا ، وأمامك أموالًا ؛ وليس للقوم إلا مانعهد ، ولا يُدْرَك الوجيفُ[4] بالدبيب ، ولا الظفر بالتعذير .

فلما ورد عليه الكتاب ، قال لأصحابه : ياقوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة : قطرىّ بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير فى خُشار من خُشار[5] الشيطان ؛ تقتلونهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) الكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الغناء والكفاية فى الحرب .

(٢) الكامل : « ويجم الناس » .

(٣) قصم القرن ؛ أى كسر ؛ يكنى بذلك عن هلاك القوم .

(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .

(٥) الخشار : الردىء وما لا خير فيه .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدّثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض؛ فقال عبيد بن موهب للمهلّب : قد بان عذرُك ، فاكتب فإنى مخبرٌ الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى لم أعطِ رُسُلَك على قول الحقّ أجرا ، ولم أحتجْ منهم عن المشاهدة إلى تلقينٍ . ذكرتَ أنى أجِمّ القومَ ؛ ولابُدّ من وقتٍ راحة يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أنّ فى الجِمام ماينسى القتلى ، وتبرأ [منه] [1] الجراح ، وهيهات أن يُنسَى ما بيننا وبينهم ! تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ [2] ، وقروح لم تتقرّف [3] ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ ، إن طمعوا حاربوا ، وإن مَلّوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا . وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ، فإن تركتَنى والرأى ، كان القَرْنُ مقصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، وإن أعجلتَنى لم أُطِعْك ولم أعصِك ، وجعلتُ وجْهى إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

قال : ولما اشتدّ الحصار على عَبْد ربِّه ، قال لأصحابه : لا تفتقِروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحّ توحيدُه عَزّ بربِّه ؛ وقد أراحكم الله من غِلْظة قطَرِىّ ، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال، ووكَلَكم إلى بصائركم ؛ فالقَوْا عدوّكم بصبر ونيّة ؛ وانتقِلوا عن منزلكم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سَلِم من القتل فهو المحروم .

---

(١) من الكامل .
(٢) لم تجن : لم تدفن فى الجنن ؛ وهو القبر
(٣) لم تتقرف : لم تتقشر .

قال : وورد فى ذلك الوقت على المهلّب عبيدُ بن أبى رَبيعة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِيّ من عند الحجاج ، يستحثّه بالقتال، ومعه أمينان ، فقال للمهلّب: خالفتَ وصيّة الأمير، وآثرت المدافعة والمطاولة . فقال له المهلّب : والله ماتركتُ جهدا .

فلما كان العشيّ خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخِفَّ[1] متاعِهم لينتقلوا ؛ فقال المهلّب لأصحابه : الزموا مَصافّكم ، وأشرِعوا[2] رماحكم ، ودعوهم والذّهاب ؛ فقال له عُبَيْدة بن أبى ربيعة : هذا لعمرى أيسر عليك . فغضب وقال للناس: ردُّوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا فى الناس ؛ وقال لعُبيدة بن أبى ربيعة : كُنْ مع [يزيد، فخذه بالمحاربة أشدّ الأخذ؛ وقال لأحد الأمينيْن : كن مع][3] المغيرة، ولاتُرَخِّصْ له فى الفُتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقِرت الخيل[4]، وصُرِع الفرسان ، وقُتِلت الرَّجّالة[5]؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح[6] يؤخذ منها ، والسَّوْط والعَلَف والحشيش[7] أشدّ قتال .

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد ، من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كَثُر الجراح والقتل؛ وذلك مع المغرِبِ ، والمرادىّ يرتجز ، ويقول :

اللَّيـــلُ ليلٌ فيـه وَيلٌ وَيْلُ   قَدْ سَالَ بالقوم الشُّراةِ السَّيْلُ

* إن جاز للأعداء فيناَ قَوْلُ *

---

(١) الخف ، بالكسر : الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزلّ الغلام الخِفّ عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « الدواب » .

(٥) الكامل : « الرجال » .

(٦) الكامل « على القدح » .

(٧) الكامل : « والعلق الخسيس » .

فلما عظُم الخطب فى ذلك (١) الرمح بعث المهلّب إلى المغيرة : خَلّ لهم عن الرمح ؛ عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيرَفْت ، فدخلها المهلّب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وماخلّفوه من دقيق، وجُمّع عليه هو والثقفىّ والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قوىّ (٢) ، يأتى الرجل بالدلو قد شدّها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلُها ، فصادهم القتال ، وضمّ الثقفىّ إلى ابنه يزيد ، وأحدَ الأمينين إلى المغيرة ، فاقتتل القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلّب لأبى علقمة العبدىّ ـ وكان شجاعاً، وكان عانياً هازلا ـ : أمددنا ياأبا علقمة بخيل اليحْمَد، وقل لهم : فليعيرُونا جماجمهم ساعة ؛ فقال : أيُّها الأمير، إن جماجمهم ليست بفخّار فتُعار ، ولا أعناقُهم كَرَادِىَ (٣) فتنبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كُرّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لىَ الأميرُ بغــير علم ... تَقَدّمْ حين جَــدَّ به المِرَاسُ

فمالى إن أطعتُك منْ حيــاةٍ ... ومالِىَ غيرَ هــذا الرأس رَاسُ (٤)

وقال لمعْن بن المغيرة بن أبى صُفْرة: احمِلْ ، فقال : لا، إلّا أنْ تزوّجَنِى ابنتك أمّ مالك، فقال : قد زوّجتُك ، فحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْترى الحياة بمــالٍ ... مَلَكَهُ كان عنــدنا فَيَرانا (٥)

(١) الكامل : « فيه » .
(٢) الكامل : « على عين لا يشرب منها إلا قوى » .
(٣) فى الأصول : « كراث » ، وصوابه من الكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .
(٤) فى الكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء مقدم .
(٥) رواية الكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشْترِى الغداةَ بمال ... هلكه اليوم عنــدنا فيرانا

نصِلُ الكَرَّ عنـد ذاكَ بطعْنٍ إنّ للموتِ عنـدنا ألوانا

قوله : « مَلْكَةَ » ، أى تزويجا ونـكاحا .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارج ، فالتفت المهلّب ، فقال للمغيرة ابنه : مافعلَ الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قُتِل وهرب الثقفىّ ، فقال ليزيد : مافعل عُبيدبن أبى ربيعة ؟ قال : لم أره منذ كانت الجوْلة،فقال الأمين الآخر للمغيرة:أنت قتلتَ صاحبى ، فلما كان العشىّ رجع الثقفىّ ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مازلتَ ياثقَفِىّ تخطُبُ بيننـا ، وتُغُمُّنا بوَصيّـةِ الحجّاجِ
حتى إذا ماالموتُ أقبل زَاخِراً وَسَقَى لَنَا صِرْفاً بغـيرِ مِزاجِ
وَلّيْتَ ياثقفىُّ غَـيْرَ مناظِرٍ تنساب بين أحِزَّةٍ وفجَاجِ [1]
ليست مقارعةُ الـكُماة لَدَى الوغى شُرْبَ المُدامة فى إناء زُجاجِ

فقال المهلّب للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجّه مع ابنى حبيب فى ألف رجل ؛ حتى تبيّتُوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيها الأمير إلّا أن تقتلَنى كما فعلت بصاحبى ! فضحك المهلّب،وقال : ذاكَ إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فـكان كلٌّ حذِراً من صاحبه ؛ غير أنّ الطعام والعُدّة مع المهلّب ؛ وهو فى زُهاء ثلاثين ألفا ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وإنى لَأُغْنِى ذَا الخِمار وصنعتِى إذا راحَ أطواءَ بنىّ الأصاغِرُ [2]

(١) قال المبرد . « قوله : « بين أحزة » ، هو جمع حزيز ؛ وهو متن ينقاد من الأرض ويغلظ ، والفجاج : الطرق ، واحدها فج .

(٢) قال المبرد : « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ؛ قال جرير يهجو الفرزدق :

بيربوعٍ فخرتُ وآلِ سَعْدٍ فَلاَ مجدِى بَلَغْتَ ولا افتخارِى
بيربوعٍ فوارسُ كلَّ يومٍ يوارِى شمسَـه رَهَجُ الغُبارِ
عُتيْبةُ والأحيمِرُ وابنُ عمرٍو وَعَتّابٌ وفارِسُ ذى الخِمَارِ =

أُخَادِعُهُمَ عنه لِيَغْبُقَ دُونَهُمْ   وأَعْلَمُ غيرَ الظَّنِّ إنِّى مغـــاوِرُ
كأنِّى وأبدانَ السِّلَاحِ عشيّـــةً   يمرّ بنا فى بَطْنِ فَيْحَانَ طـائرُ(١)

فقال له : أتميمىٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحنظلىّ ؟ قال : نعم ، قال : أيربوعىّ ؟ قال: نعم ، قال : أمِنْ آلِ نُويرة ؟ قال: نعم ، أنا ولد مالك بن نويرة ؛ قال : قد عرفتك بالشِّعر .

قال أبو العباس : وذُو الخمار فرس مالك بن نويرة .

قال : فمكثوا أياما يتحاربون(٢) ودوابُّهم مسرَجة ، ولا خنادقَ لهم ؛ حتى ضَعُف الفريقان ؛ فلما كان الليلةُ التى قُتِل فى صبيحتها عَبْد رَبِّه ، جمع أصحابه ، فقال: يامعشرَ المهاجرين ؛ إن قَطَرِيًّا وعُبيدةَ هربا طلبا للبقاء ، ولا سبيلَ إلى البقاء ، فالقَوْا عدُوّكم غداً، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلِبُنّكم على الموت ؛ فتَلَقَّوُا الرِّماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا يهبْها لكم فى الآخرة .

فلما أصبحوا ، غَادوُا المهلَّب ، فاقتتلوا قتالا شديدا أنسى ما كان قَبْلَه ؛ وقال رجل من الأزد ، من أصحاب المهلّب : مَنْ يُبايِعُنى على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلا من الأزْد ، فصُرِع بعضهم ، وقتِل بعضهم ، وجرح بعضهم .

= وقوله : «أطواء ؛ يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياع ؛ وذلك قوله :

* أخادِعُهمْ عنـه ليغبُق دُونَهُمْ *

والغبوق : شرب آخر النهـار ؛ وهو شىء تفتخر به العرب » ، واللهنه : الطعام الذى يتعلل به قبـل الغداء ؛ وفى الكامل :

جزانِى دوائِى ذو الخمار وصَنْعَتِى   إذا باتَ أطواءً بَنِىّ الأصاغِرُ

قال المرصفى : دوائى ، بالكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعته الفرس : حسن القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الدرع القصيرة ، وفيحان : موضع أو واد فى بنى أسد .
(٢) الكامل : « يتحارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثىّ للمهلب : احملوا ، فقال المهلّب : أعرابىّ مجنون — وكان من أهْلِ نَجْران — فحمل وحْده ؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] ؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَعْلَته الأولى ، وتهايج الناس ، فترجَّلت الخوارج ، وعَقَروا دوابَّهم ، فناداهم عمرو القَنَا — ولم يترجّل هو ولا أصحابه[٢] ، وهم زهاء أربعمائة — فقال : موتوا على ظهور دوابّكم كراماً ، ولا تعقِرُوها ، فقالوا : إنّا إذا كُنَّا على الدواب ذكرنا الفِرار ، [فاقتتلوا][٣] ، ونادى المهلّب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ! وقال لبنيه : تفرّقوا فى الناس ليرَوْا وجوهكم ، ونادت الخوارج : ألا إنّ العيال لمنْ غَلَب ؛ فصبَر بنو المهلّب ؛ [٤] وقاتل يزيد بين يدى أبيه قتالا شديدا[٤] ، أبْلَى فيه ، فقال له أبوه : يابنىّ ، إنى أرى موطناً لا ينجُو فيه إلا مَنْ صَبَر ، وما مَرّ بى يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب .

وكسرت الخوارجُ أجفانَ سيوفها ، وتجاوَلُوا ، فأجلت جَوْلتُهم عن عبد ربّه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابُه ، واستأمن قوم ، وأجْلَت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور ، وأمرَ المهلّب أن يُدفَع كلُّ جريح إلى عشيرته ، وظفِرَ بعسكرهم ، فحوى مافيه ، ثم انصرف إلى جِيرَفْت ، فقال : الحمد لله الّذى ردّنا إلى الخفضِ والدّعة ، فما كان عيشنا ذلك العيش[٥] .

ثم نظر المهلّب إلى قوم فى عسكرِه ولم يعرفْهم ، فقال : ماأشد عادة السلاح[٦] ! ناولنى دِرْعى ، فلبِسها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ؛ فلما صيّرهم إليه ، قال : ما أنتم ؟ قالوا : جئنا لنطلب غِرّتك للفتك[٧] بك . فأمر بهم فقتلوا .

---

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « هو وأصحابه » .
(٣) من الكامل .
(٤ — ٤) الكامل : « وصبر يزيد بين يدى أبيه ، وقاتل قتالا شديدا » .
(٥) الكامل : « فما كان عيشنا بعيش » .
(٦) وكذا فى الكامل ، ويرى السيد جاسم أن الأنسب : « ماأشد عادة لبس السلاح » .
(٧) الكامل : « لنفتك بك » .

[طُرَفٌ من أخبار المهلب وبنيه]

ووجه كعبَ بن مَعدان الأشقريّ[1] ومرة بن بليد الأزديّ ، فوردا على الحجاج،فلما طلعا عليه ، تقدم كعب فأنشده[2] :

* ياحَفصُ إنّى عَدانِى عنكُم السّفرُ[3] *

فقال الحجاج : أشاعر أم خطيب ؟ قال : شاعر ؛ فأنشده القصيدة ؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال : خبِّرنى عن بنى المهلّب ، قال : المغيرة سيدُهم وفارسهم ، وكفى بيزيد فارساشجاعا !

(١) الأشقرى : منسوب إلى الأشقر ؛ بطن فى الأزد .

(٢) قصيدة طويلة ؛ يذكر فيهـا يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرفت ، أوردها الطبرى فى تاريخه ٦ : ١٠٤

(٣) وبقيته :

* وقد أرِقتُ فـآذى عينىَ السّهرُ *

ومنها :

عُلِّقْتَ يا كعبُ بعدَ الشّيبِ غانيةَ ... والشيبُ فيـــه عن الأهواء مُزْدَجَرُ

أَمُمسِكٌ أنت عَنْهَا بالّذِى عَهِدَتْ ... أم حَبْلُهـــا إذْ نأتكَ اليوم منبترُ

عُلِّقْتَ خَوْداً بأعْلَى الطَّفِ مَنْزِلُهـا ... فى غرفةٍ دونها الأبواب والحجَرُ

دُرْمًا مَنَا كِبُا رَيَّا مآ كِمُهـــا ... تـكاد إذ نَهضَتْ للمشى تَنْبَتِرُ

وَقَدْ تَرَكْتُ بِشَطِّ الزابيَيْنِ لَهـا ... داراً بها يَسْعَدُ البادونَ والحَضَرُ

واخترْتُ داراً بِهَا حَىٌّ أُسَرُّ بهِمْ ... مازال فيهمْ لمن تَخْتَارُهُمْ خِيَرُ

لما نبتْ بى بلادى سِرْتُ مُنْتَجِعاً ... وطالب الخـــيْرِ مرتادٌ وَمُنْتَظِرُ

أبا سعيدٍ فإنى جئتُ مُنْتَجِعـاً ... أرجو نوالَكَ لَمّا مَسَّنِى الضَّرَرُ

لولا المهلّبُ مازرْنا بلادَهُمُ ... مادامَتِ الأرض فيها الماء والشّجَرُ

فمـا من النّاسِ من حَىٍّ عَلِمتَهُمُ ... إلّا يُرى فيهمُ من سَيْبِكمْ أثَرُ

وجوادُهم وسَخيُّهم قَبيصة ، ولا يستحيِى الشجاعُ أنْ يفِرَّ من مُدْرِك ، وعبدُ الملك سمٌّ ناقع ، وحَبيب مَوت ذُعاف ، ومحمدليثُ غاب ، وكفاك بالفضل نَجْدة ! فقال له : فكيف خلّفتَ جماعة الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمِنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُمَاة السَّرْح فإذا أليلوا ففُرسان البَيات،قال: فأيُّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفرَغة ، لا يُدرَى [أين] طرفاها ، قال:فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنا إذا أخذْنا عفوْنا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمِعنا فيهم . قال الحجاج : إنّ العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتَكم قَطَرِى؟قال: [٢] كدناه وظنّ أن قد كادنا ، بأن صِرْنا منه إلى التى نحبّ[٢] . قال : فهلاّ اتبعتموه؟قال: كان حربُ الحاضر آثرَ عندنامن اتباع الفَلّ[٣]،قال : فكيف كان المهلّب لكم وكنتم له ؟ قال : كانَ لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منّا برّ الولد ، قال : فكيف كان اغتباطُ الناس به؟ قال : نشأ[٤] فيهم الأمن ، وشَمِلهم النَّفَل[٥] ، قال : أكنت أعددت [لى][٦] هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال: هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلمَ بذلك حيث بعثك .

هذه رواية أبى العباس[٧] .

وروى أبو الفرج فى الأغانى[٨] أنّ كعبا لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التى أولها :

---

(١) من الكامل .
(٢ ـ ٢) الكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب » .
(٣) الكامل : « كان الحد عندنا آثر من الفل »
(٤) الكامل : « فشا » .
(٥) النفل : الغنيمة .
(٦) من الكامل .
(٧) الكامل ٦٩٥ (طبع أوربا) .
(٨) الأغانى الجزء الرابع عشر ٢٨٤ ـ ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يَاحَفْصُ إِنِى عَدَانِى عَنْكُمُ السَّفَرُ ... وقد سهرتُ وآذَى عيــنِىَ السَّهَرُ[١]

يذكر فيها حروبَ المهلّب مع الخوارج ، ويصف وقائعه فيهم فى بلد ؛ وهى طويلة ، ومن جملتها[٢] :

كنا نهوّن قبل اليوم شأنَهمُ ... حتى تفاقم أمرٌ كان يُحتقَرُ[٣]

لَمَّا وَهَنَّا وَقَدْ حَــلُّوا بساحَتِنا ... واستنفرَ الناسُ تاراتٍ فما نَفَرُوا[٤]

نَادَى امرؤٌ لا خلافٌ فى عشيرَتِه ... عَنْه ، وَلَيْسَ بِهِ عن مثله قِصَرُ

خَبُّوا كمينَهمُ بالسَّفْح إذْ نزلوا ... بكازَرُون فما عَزُّوا ولا نَصَرُوا[٥]

باتَتْ كتائبنا تَرْدِى مُسوَّمةً ... حَوْلَ المهلّب حتى نوّر القمرُ[٦]

هُنَاكَ وَلَّوْا خَزَايا بَعْدَ ما هُزِمُوا ... وحال دونهمُ الأنهار والجُدُرُ

تأبى علينا حزازاتُ النُّفوس فما ... نُبْقِى عَلَيْهِمْ ولا يُبْقُونَ إن قَدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إنّك لمنصِف يا كعب ، ثم قال له : كيف كانتْ حالكم مع عدوّكم ؟ قال : كنّا إذا لقيناهم بعفوِنا وعفْوهم يئسنا[٧] منهم ، وإذا لقيناهم بجِدّنا وجِدّهم[٨] طمِعْنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلّب ؟ قال : حماةَ الحريم نهارا ، وفُرسان الليل تيقظا[٩] ؛ قال : فأين السّماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان ، قال :

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه .

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد أبياتا منها : « وهى قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة فى الخبر ؛ فتركت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) فى الأغانى قبل هذا البيت :

فَمَا يجاوز باب الجسْر من أحــــدٍ ... قد عَضّتِ الحربُ أهل المصر فانجحروا

(٤) استنفر الناس : استنجدهم .

(٥) فى الطبرى ، « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتيبة : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بحوافرها .

(٧) الأغانى : « فعفوهم تأنيس لهم » .

(٨) الأغانى . « بجهدنا وجهدهم » .

(٩) الأغانى : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا . قال : المغيرة فارسهم وسيّدهم ، نار ذاكية ، وصَعْدَة[١] عالية . وكفى بيزيدَ فارسا شجاعا ! ليثُ غاب ، وبحرٌ جَمّ العُباب . وجوادهم قَبيصة ، ليث المَغار ، وحامى الذِّمار ؛ ولا يستحى الشجاع أن يفِرّ من مُدرِك ؛ وكيف لا يفرّ من مدرك ، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر ، والأسد الخادِر[٢] ! وعبد الملك سَمّ ناقع ، وسيف قاطع ؛ وحبيب الموت الذّعاف[٣] ، طود شامخ ، وبحر باذخ[٤] ؛ وأبو عيينة البطل الهمام ، والسيفُ الحسام ؛ وكفاك بالمفضّل نَجْدَة ، ليثٌ هَدّار وبحر مَوّار[٥] ! ومحمد ليث غاب ، وحُسام ضِراب . قال : فأيّهم أفضل ؟ قال : هم كالحلقة المفرَغة لا يعرف طرفاها[٦] ؛ قال : فكيف جماعة الناس ؟ قال : على أحسنِ حال ، أرضاهم العدلُ ، وأغناهم النفَل . قال : فكيف رضاهم بالمهلّب ؟ قال : أحسن رضا ، لا يعدمون[٧] منه إشفاق الوالد ، ولا يعدم منهم برّ الولد[٧] . وذكر تمام الحديث .

وقال : إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم ، وحمله على فَرَس ، وأوفده على عبد الملك ؛ فأمر له بعشرين ألفا أخرى .

قال أبو الفرج : وكعب[٨] الأشقرىّ من شعراء المهلّب ومادحيه ؛ وهو شاعر مجيد . قال عبد الملك بن مروان للشعراء[٩] : تُشبّهوننى مرةً بالأسد ، ومرة بالبازى ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى للمهلب وولده :

بَرَاكَ اللهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَـــاراً غِزَارا

---

(١) ذكت النار : اشتد لهبها ، والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك .

(٢) أسد خادر : مقيم فى عرينه داخل فى الخدر .

(٣) الذعاف : السريع .

(٤) الباذخ : العالى .

(٥) موار : مضطرب .

(٦) فى الأصول : « طرفها » ، وما أثبته من الأغانى .

(٧ — ٧) الأغانى : « وكيف لايكونون كذلك ؛ وهم لايعدمون رضا الوالد ، ولا يعدم منهم برالولد »

(٨) الأغانى ١٤ : ٢٨٦ ، ٢٨٧

(٩) الأغانى : « كان يقول للشعراء » .

بَنُوكَ السابِقونَ إلى المعــــالى إذا ماأعظمَ النّاسُ الخِطـارا[1]

كأنهمُ نجـومٌ حَوْلَ بَــدْرٍ تـكمّل إذ تـكمّل فاستدارا[2]

مُلوكٌ يـــنزِلُون بكُلِّ ثَغرٍ إذا ماالهامُ يَوْمَ الرّوْعِ طارا[3]

رِزَانٌ فى الخطوب تَرَى عليهم من الشّيخ الشمائل والنِّجارا[4]

نجومٌ يُهتــدَى بهمُ إذا ما أخُو الغَمَراتِ فى الظلماء حارا[5]

قال أبو الفرج : وهــذا الشعر من قصيدة لـكعب ، يمدح بها المهلّب ؛ ويذكر الخوارج[6] ، ومنها :

سَلُوا أهلَ الأباطحِ مِنْ قُرَيْشٍ عن المجدِ المؤثّلِ أيْنَ صارَا[7]

---

(١) الخطار : المراهنة .

(٢) الأغانى :

* درارىٌّ تـكمّل فاستدارا *

(٣) الهام : الرؤس .

(٤) فى الأغانى : « رزان فى الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل

(٥) فى الأغانى : « أخو الظلماء » .

(٦) ذكر صاحب الأغانى ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهاَج لى ذاكَ ادِّكارَا بكَشٍّ وقد أطَلْتُ به الحِصَارَا

وكنتُ ألَذُّ بعضَ العَيْشِ حَتّى كبِرتُ وصــار لى هَمِّى شعارَا

رأيتُ الغانياتِ كَرِهْن وَصْلِى وأبْدَيْنَ الصّريمة لى جهارَا

(٧) الأغانى ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

غرِضْنَ بمجْلِسِى وكرِهْنَ وَصْلى أوانَ كُسيتُ من شَمَطٍ عِذارَا

زَرَيْنَ عَلَىّ حِينَ بَدَا مَشيبى وَصارَتْ ساحَتِى للهمِّ دارَا

أتانى والحديث له نمــــاء مقــالة جائرٍ أحْفَى وجارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يحمى الثّغور إذا استحرّتْ حروبٌ لايَنون لهــا غرارَا

لَقَوْمُ الأزْدِ فى الغمرات أمضَى ... وأوفى ذمَّةً وأعـزّ جـارا[١]

هُمُ قادُوا الجيـــادَ عَلَى وجاها ... من الأمصار يَقذفن المِهارا[٢]

إلَى كِرْمَـانَ يَحْمِلْنَ المَنـايَا ... بـكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُورِـدْنَ نَارَا[٣]

شَوازب ماأصبنا الثـار حتى ... رددنـاهـا مكلّمـةً مرارا[٤]

غَدَاة تركْنَ مَصْرَعَ عَبْدِ رَبٍّ ... نَثَرْنَ عليه مِنْ رَهجٍ غُبارا[٥]

ويوم الزّحْفِ بالأهوازِ ظلْنَا ... نُرَوِّى منهمُ الأَسَلَ الحِرَارا[٦]

فقرّت أعـينٌ كانت حَزِينـاً ... قليـلًا نومُهـا إلا غِرارا[٧]

ولولا الشيـخُ بالمِصْرَينِ يَنْـفِى ... عـدوّهُمُ لقـد نزلُوا الدِّيارا[٨]

ولـكنْ قارعَ الأبطـال حتّى ... أصابوا الأمْنَ واحْتَلّوا القَرَارا[٩]

(١) الأغانى : « لقومى الأزد » .

(٢) الوجى : الحفى ، وذكر بعده :

بـكلِّ مَفازةٍ وبـكلِّ سَهْبٍ ... بَسابِسَ لايَرَوْنَ لَهَا مَنـارَا

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل .

(٤) مكلمة : مجروحة ، وفى الأغانى : « لم يصبن » ، وبعده :

وَيَشْجُرْنَ العَوالى السُّمْرَ حَتّى ... تَرَى فيهـا عن الأَسَلِ ازورارا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقة المذكور قبلا ؛ بعد قطرى . وفى الأغانى : « يثرن عليه من رهج عصاراً » ، والعصار هو الغبار .

(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .

(٧) حزين ؛ فعيل ، مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وفى الأغانى : « حديثا » ، وبعده فى الأغانى :

صنائعنـا السّوابغُ والمذاكِى ... ومَنْ بالمِصْرِ يحتلبُ العِشارا

فهنّ يُبِحْنَ كلّ حِمًى عـزيزٍ ... ويحمِينَ الحقـائقَ والذِّمارا

طُوالاتُ المتونِ يُصَنّ إلّا ... إذا سارَ المهلّبُ حيث سارا

(٨) المصران : البصرة والـكوفة . وفى الأغانى : « تركوا الديارا » .

(٩) الأغانى :

* أصابُوا الأمْنَ واجْتَنَبُوا الفِرَارَا *

إذا وَهَنُوا وحَلَّ بهمْ عَظِيمٌ ... يَدُقّ العظمَ كانَ لهم جُبارا
وَمُبْهَمةٍ يحِيدُ الناسُ عنهـا ... تشُبّ الموت شَـدّ لها إزارا
شهابٌ تنجلى الظلماء عنـه ... يرَى فى كلِّ مُظلِمَةٍ منـارا[1]
براكَ الله حـينَ برَاكَ بَحْراً ... وفجّر منك أنهـاراً غِزارا

الأبيات المتقدمة .

* * *

قال أبو الفرج : وحدّثنى[2] محمـد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أنّ الحجّاجَ لما كتب إلى المهلّب يأمُره بمناجزة الخوارج حينئذ ، ويستبطئه، ويضعّفه ويعجّزه من تأخيره أمرَهم ، ومطاولته لهم ، قال المهلّب لرسوله قل له: إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنتَ نصبتَنى لحرب هؤلاء القوم ـ على أن أدبّرها كما أرى ، فإذا أمكنتْنِي فرصة انتهزتُها ، وإن لم تمكّنّى توقفت ـ فأنا أدبِّر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب ـ فإن كانَ صوابا فلك ، وإن كان خطأً فعلىّ ـ فابعثْ مَنْ رأيتَ مكانى ؛ وكتب من فَوْرِهِ بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج : لا تعارض المهلّب فيما يراه ، ولا تُعجله ودَعْه يدبّر أمره .

قال : وقام كعب الأشقرىّ إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إنّ ابنَ يوسفَ غرّه من أمرِكُمْ ... خَفْضُ المُقام بجانب الأمصارِ[3]
لو شهدَ الصَّفّين حيثُ تلاقيَا ... ضاقتْ عليـه رَحِيبَةُ الأقطار
من أرض سابورِ الجنود وخيلُنا ... مثـلُ القداح برَيْتَهَا بشِفارِ

---

(١) الأغانى : « فى كل مظلمة » .
(٢) الأغانى ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢
(٣) الأغانى : « غره من غزوكم » .

مِن كُلِّ صِنديدٍ يُرى بِلَبانِهِ   وَقْعُ الظُّباةِ مع القَنا الخطَّارِ(١)
لَرَأى مُعاوَدَةَ الرِّباعِ غَنيمةً   أزمانَ كانَ مُحالِفَ الإقتارِ
فدع الحروبَ لِشِيبِها وشَبابِها   وعليك كلَّ غَريرةٍ مِعْطارِ(٢)

فبلغت أبياتُه الحجاج ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبٍ الأشقريّ إليه ، فأعلم [المهلب](٣) كعبا بذلك، وأوفده إلى عبدالملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبُه منه ؛ فقدم كعب على عبدالملك برسالة المهلّب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفدَه إلى الحجاج ؛ وكتب إليه يُقسم عليه أن يصفحَ ، ويعفو عمّا بلغه من شعره ؛ فلما دخلَ قال : إيه يا كعب !

* لَرأى مُعاوَدَةَ الرِّباعِ غنيمة *

فقال : أيها الأمير ، والله لوددتُ في بعض ماشاهدتُه من تلك الحروب، وما أوردَناه المهلّب(٤) من خطرها ، أنْ أنجُوَ منها وأكون حجّاماً أو حائكا ، قال : أولَى لك ! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول ؛ الحقْ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب(٥) .

* * *

قال أبو العباس : وكان(٦) كتاب المهلّب إلى الحجاج ، الذى بشره فيه بالظفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم](٧)؛ الحمد لله الكافى بالإسلام فَقْدَ ماسواه ، الحاكم بألّا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطعَ الشكر من عباده ؛ أما بعد :

---

(١) اللبان هنا : الصدر ، والظباة : جمع ظبة ؛ وهى حدالسيف . ورمح خطار : ذو اهتزاز شديد.
(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتعهد نفسها بالطيب وتكثر منه .
(٣) من الأغانى .
(٤) الأغانى : « يوردناه » .
(٥) الأغانى : « من وقته » .
(٦) الكامل ٣ : ٤٠٤ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .
(٧) من الكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلَغك ، وكُنّا نحنُ وعدوُّنا على حالَيْن مختلفَيْن ، يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم مِنّا أكثر مما يسرّهم ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان عَلا أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونُوّم به الرّضيع ، فانتهزتُ الفرصة منهم فى وقت إمكانها ؛ وأدنَيتُ السّواد من[1] السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه ، فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أمّا بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خَيْراً ، وأراحهم من بأسِ الجلاد ، وثِقَلِ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قِبَلك ؛ فالحمدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وَرَد عليك كتابى فاقْسِم فى المجاهدين فيْئهم ، وَنَفِّل[2] الناس على قدر بلائهم ، وفَضّل مَن رأيت تفضيلَه ؛ وإن كانت بقيَت من القوم بقية نخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمِلْ على كِرمان مَنْ رأيت ، وَولِّ الخيل شَهْماً من ولدك ، ولا ترخّص لأحدٍ فى اللحاق بمنزله دون أن تَقْدَم بهم علىّ ، وعجّل القدوم إن شاء الله .

فولّى المهلب يزيد ابنه كِرْمان ، وقال له : يا بنىّ ، إنك اليومَ لست كما كنت ؛ إنما لك من كِرْمان ما فَضَل عن الحجّاج ؛ ولن تحتمل إلا عَلَى ما احتمل عليه أبوك ، فأحْسِنْ إلى مَنْ تبعك ؛ وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجّه إلىّ ، وتفضّل على قومك ، [إن شاء الله][3]

---

(١) أى قربت ما بين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله : « نفل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالغنائم على عباده ؛ قال لبيد :

إنّ تقْوَى رَبِّنا خَيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ الله رَيْثْ وَعَجَلْ

وقال جل جلاله له : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عنِ الأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال : نَفَّلْتُكَ كذا وكذا ؛ أى أعطيتك ، ثم صار النفل لازما واجبا . (٣) من الكامل

ثم قدم المهلب على الحجاج ، فأجلَسه إلى جانبه ، وأظهر بِرّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أنتم عَبيدُ قِنٍّ للمهلب ؛ ثم قال : أنت والله كما لقيط[1] :

فقَلِّدُوا أمرَكُمْ لله دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بأمرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعا[2]

لا يطعَمُ النــومَ إلا رِيْثَ يبعثُه ... هَمٌّ يـكاد حشاه يَقْصِمُ الضِّلَعا[3]

لا مترَفاً إن رخاءُ العيش ساعَدَهُ ... ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا[4]

مازال يحلب هذا الدّهرَ أشْطُرَهُ ... يـكون متَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا[5]

حتى استمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُه ... مستحكِمَ الرَّأْي لا قَحْماً وَلَا ضَرَعَا[6]

وروى أنه قام إليه رجل فقال : أصلح الله الأمير ! والله لـكأنى أسمع الساعة قطَرِيًّا وهو يقول لأصحابه : المهلب والله كما قال لقيط الإيادىّ ، ثم أنشد هذا الشعر . فسُرّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلب : أما والله ما كُنّا أشدّ من عدوّنا ولا أحَدّ ، ولـكن دَمَغَ الحقّ الباطل ، وقهرتِ الجماعة الفتنة ، والعاقبة للمتقين[7] ؛ وكان ما كرِهْناه من المطاولة خَيراً لنا مما أحببناه من المعاجلة .

---

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادى ؛ من قصيدة طويلة ؛ ذكرها ابن الشجرى فى مختاراته ١ — ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بغز وكسرى ؛ وكان كاتبا فى ديوانه ؛ وأولها :

يا دار عَمْرةَ من محتلها الجرَعا ... هاجتْ لى الهمّ والأحزان والوجَعا

تامَتْ فؤادِى بذات الجزع خِرْعبةٌ ... مرّتْ تريدُ بذات العذبةِ البِيَعا

(٢) رحب الذراع : يريد واسع الصدر متباعد مابين المنكبين ، كناية عن قوته وشدة مراسه ، ومضطلعا : أى يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) ريث يبعثه ، أى مقدار مايبعثه .

(٤) المترف : المتنعم السادر فى ملاذه .

(٥) يحلب أشطره ؛ أى أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) المريرة من الحبال : ماطال واشتد فتله ؛ واستمرت استحكمت ، والشزر : الفتل إلى فوق ؛ خلاف اليسر ؛ وهو الفتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم الفتلين ؛ ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته . والضرع : الصغير الضعيف ، والقحم : آخر سن الشيخ .

(٧) الـكامل : « للتقوى » .

فقال الحجاج : صدقت ، اذْكر لى القوم الّذين أبْلَوْا ، وصف لى بلاءهم ، [فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ماذَخَر اللهُ لكم خيرٌ لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله] [١] ، فذكرهم [٢] المهلب على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغَنَاء ، وقدّم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقَبيصة ، والمفضّل ، وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : والله لو واحد يقدمُهم فى البلاء لقدّمتهُ عليهم ، ولولا أنْ أظلِمهم لأخرتُهم . فقال الحجاج : صدقت ، وما أنت أعلم بهم منى ، وإن حضرتَ وغبتُ إنهم لسيوفٌ من سيوف الله . ثم ذكر مَعن بن المغيرة والرُّقاد وأشباههما .

فقال الحجاج : مَن الرُّقاد [٣] ؟ فدخل رجل طويل أجْنأ [٤] ، فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرُّقاد للحجاج : أيها الأمير ، إنى كنت أقاتِل مَعَ غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزِمنى الصبر ، ويجعلنى أسوةَ نفسه وولدِه ، ويجازينى على البلاء ، صرت أنا وأصحابى فُرسانا .

فأمر الحجّاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولد المهلّب ألفيْن ألفيْن ، وفعل بالرُّقاد وبجماعة شبيها بذلك .

وقال يزيد بن حَبْناء من الأزارقة :

دَعِى اللَّوْمَ إنَّ الْعَيْشَ ليس بدائم ... ولا تعجلى باللَّوْم يا أمَّ عاصِم [٤]

فإنْ عَجِلتْ منك الملامةُ فاسمعِى ... مقالةَ مَعْنِيٍّ بحقِّك عالِمِ

ولا تعذُلينا فى الهَدِيّة إنما ... تكونُ الهدايا من فُضُول المغانم

---

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « ثم ذكرهم » .

(٣) الكامل : « أين الرقاد » .

(٤) أجنأ ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل فى الظهر .

(٤) الكامل ٣ : ٤٠٩ ، ٤١٠

وليس بمُهْدٍ مَنْ يكون نهارُه جِلاداً ، ويُمسى ليلَه غيرَ نائمِ [1]

يُريد ثوابَ الله يوما بطعنةٍ غَمُوسٍ كشِدْقِ العنبرىّ ابن سالِمِ [2]

أبيتُ وسِرْبَالِى دِلَاصٌ حَصِينَةٌ ومِغفرُها ، والسّيفُ فوقَ الحيازِمِ [3]

حلفتُ بربِ الواقِفِين عَشِيّةً لدى عرَفاتٍ حَلْفَةً غيرَ آثِمِ

لقد كانَ فى القوم الذين لقيتُهُمْ بِسابُورَ شغلٌ عن بُزوز اللَّطائِمِ [4]

تَوَقّدُ فى أيديهِمْ زاعِبيّةٌ ومُرْهَفةٌ تَفْرِى شُؤون الجماجِمِ [5]

وقال المغيرة الحنظلىّ من أصحاب المهلّب :

إنى امرؤٌ كَفّنِى رَبِّى وأكرمنى عن الأمور التى فى غِبّها وَخَمُ [6]

وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما عاشتْ رجالٌ وعاشت قبلها أمَمُ

ماعاقَنِى عَنْ قفولِ الجُندِ إذ قَفَلُوا عِىٌّ بما صَنَعُوا حولِى ولا صَمَمُ [7]

ولَوْ أردتُ قُفُولًا ماتجهّمَنِى إذنُ الأمير ولا الكُتّابُ إذ رَقَمُوا

إنّ المهلّب إن أشتَقْ لرؤيتِهِ أو أمتدحْهُ فإن الناس قد عَلِمُوا

أنهُ الأريبُ الذى تُرْجَى نوافلُهُ والمستنيرُ الّذى تُجْلَى به الظُلَمُ

والقائلُ الفاعلُ الميمونُ طائرُه أبو سعيدٍ إذا ماعُدّتِ النّعَمُ

أزمانَ كَرْمانَ إذ غصّ الحديدُ بهم وإذ تَمَنّى رجالٌ أنّهُمْ هُزِموا

---

(١) قال المبرد : « يريد يمسى هو فى ليله ، ويكون هو فى نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السعة ؛ وفى القرآن : ﴿ بل مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهار ﴾ والمعنى : بل مكركم فى الليل والنهار » .

(٢) قال المبرد : قوله غموس ؛ يريد واسعة ، والعبرى ابن سالم : رجل منهم كان يقال له الأشدق .

(٣) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

(٤) اللطائم ، واحدتها لطيمة ؛ وهى الإبل التى تحمل البز والعطر .

(٥) زاعبية ؛ يعنى الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفرى : تقد .

(٦) الكامل . « فى رعيها وخم » .

(٧) الكامل . « عى بما صنعوا عجز ولا بكم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب :

أبا سعيدٍ جزَاكَ اللهُ صالِحَةً   فقد كَفيتَ ولَمْ تَعنُفْ على أحَدِ[1]

داويتَ بالحِلمِ أهلَ الجهلِ فانْقمَعُوا   وكنتَ كالوالدِ الحانِى على الوَلَدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجىّ يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِى فترفعُه الرِّماحُ كأنّه   شِلْوٌ تَنَشَّبَ فى مخالِبِ ضَارِ[2]

يَهْوِى صريعاً والرِّماح تَنُوشه   إن الشُّراة قصيرة الأعمـــارِ[3]

* * *

[شبيب بن يزيد الشيبانىّ]

ومنهم[4] شبيب بن يزيد الشيبانىّ ؛ وكان فى ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرّح ؛ أحد الخوارج الصُّفْرية ؛ وكان ناسكا مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرِئهم القرآن ، ويفقّهم ويقصّ عليهم[5] ؛ ويقدَم الكوفة ، فيقيم بها الشهرَ والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فرَغ من التّحميد والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأثنى عليه ، وثَنّى بعُمَر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمَه الرجالَ فى دين الله ؛ ويتبرأ من عثمان وعلىّ ، ثم

---

(١) لم تعنف ، من العنف ، وهو الشدة .

(٢) الشلو : العضو .

(٣) الكامل : « فثوى صريعاً » .

(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبرى ٥ : ٢١٦ وما بعدها ، أحيانا بنصها ، وأحيانا مع تصرف واختصار.

(٥) فى الطبرى : « فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق السموات والأرض . . . . . » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أورده المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسَّرُوا ياإخوانى للخروج من دَار الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّحاق بإخواننا المؤمنين ؛ الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ؛ ولا تجزَعُوا من القتل فى الله ، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم ؛ تدخلوا الجنة ... وأشباه هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضرُه من أهل الكوفة سُوَيد والبَطِين ؛ فقال يوما لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما يَزيد أئمةُ الجوْر إلا عتوّا وعلوّا ، وتباعداً من الحق ، وجراءةً على الرّبّ ؛ فراسِلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر فى أمورنا مانحن صانعون . وأىّ وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينما هو كذلك إذ أتاه المحلّل بن وائل [1] بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخوص ، وقد][2] كنتَ دعوتَنى إلى أمرٍ أستجيب[3] لك ؛ فإن كان ذلك[4] من شأنك ، فإنّك شيخ المسلمين ، ولم يعدِلْ بك منّا أحد[5] ؛ وإن أردت تأخير ذلك أعلمنى[6] ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تخترِمَنى المنية ؛ ولمّا أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا وياله فضلا !][2] ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين فى دار السلام][2] . والسلام عليك .

---

(١) ب : « قائد » ؛ وما أثبته عن ا ، ج والطبرى .
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى .
(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .
(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .
(٥) الطبرى : « ولن نعدل بك منا أحدا » .
(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتنى » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه [1] : إنه لم يمنعنى من الخروج ـ مَعَ ما أنا فيه من الاستعداد ـ إلا انتظارك؛ فاقْدَم علينا ، ثم اخرج بنا، فإنك ممّن لاتقضى الأمور دونَه؛ والسلام عليك [1] .

فلما ورد كتابُه على شَبِيب ؛ دعا القرّاء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمحَلّل بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم [٢] ؛ ثم خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح ؛ وهو بداراتِ [٣] أرض الموصل ؛ فبثّ صالح رسله ، وواعدهم بالخروج ؛ فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدّث فَرْوَة بن لَقِيط [٤] ؛ قال : إنى لمعهم تلك الليلة عند صالح [٥] ؛ وكان رأيى استعراض الناس ؛ لِمَا رأيتُ من المنكر والفساد فى الأرض ، فقمت إليه ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، كيف ترَى السِّيرَة فى هؤلاء الظلمة ؛ أنقتلهم قبل الدعاء ، أم ندعوهم قبل القتال ؟ فإنّى أخبرُك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاغِين ؛ قد تركوا أمر الله ، أو راضين بذلك، فأرى أن نضعَ السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوهم ؛ ولعمرى لا يجيبُك إلا مَنْ يرى رأيَك ؛ وليقاتلنّك مَنْ يُزْرِى عليك؛ والدعاء أقْطَعُ لحجتهم ، وأبلغ فى الحجّة عليهم لك . فقلت:

(١ ـ ١) الكتاب كما فى الطبرى : « أمابعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطأعنى ؛ حتى أهمنى ذلك ؛ ثم إن أميرا من أمراء المسلمين نبأنى بنبــأ مخرجك ومقدمك ؛ فنحمد الله على قضاء ربنــا ؛ وقد قدم على رسولك بكتابك ؛ فكل مافيه قد فهمته ، ونحن فى جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لايستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والســلام » .

(٢) فى الطبرى : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بنى محلم والفضــل بن عامر من بنى ذهل بن شيبــان » .

(٣) فى حواشى ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل مااستدار ، معه وجمعه دارات ودور » ، وفى الطبرى : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة بن لقيط » .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى : « قال ـ أى فروة ـ والله إنى لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنــا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج ، فــكان رأيى استعراض الناس . . . . » إلى آخر الخبر مع اختلاف فى الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وماتقول فى دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلناوغنمنا فلَنا وإن تجاوزْنا وعفونا فوسّع علينا .

ثم قال صالح [1] لأصحابه ليلتَه [2] تلك : اتقُوا اللهَ عبادَ الله ، ولا تعجَلُوا إلى قِتَالِ أحدٍ من الناس ؛ إلّا أن يكونوا [قوما] [3] يريدونكم [وينصبون لكم] [3] ؛ فإنكم إنما خرَجْتُم غضَبًا لله حيث انتُهِكَتْ محارمُه ؛ وعُصِى فى الأرض ، [4] وسُفِكَت الدماء بغيرَ حقّها ، وأُخذت الأموال غَصْبًا [4] ، فلا تَعيبُوا على قومٍ أعمالا ثم تعملونها [5] ؛ [فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة] [3] ، وهذه دوابّ لمحمد بن مروان فى هذا الرُّستاق [6] ؛ [7] وابدءوا بها فاحملوا عليها راجلَكم ، وتَقَوَّوْا بها على عدوّكم [7] .

ففعلوا ذلك ، وتحصّن منهم أهلُ دارا [8] .

وبلغ خبرُهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخفّ بأمرهم ؛ وبعث إليهم عدىّ بن عميرة فى خمسمائة ، وكان صالح فى مائة وعشرة ؛ فقال عدىّ : أصلح الله

(١) الخبر فى الطبرى عن أبى مخنف أيضا عن رجل من بنى محلم .
(٢) الطبرى : « ليلة خرج » .
(٣) من الطبرى .
(٤ ـ ٤) الطبرى : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .
(٥) الطبرى : « تعملون بها » .
(٦) الرستاق ـ فيما ذكره حمزة بن الحسن ـ مشتق من « روذه فستا » ، وروذه : اسم للسطر والصف والسماط . وفستا : اسم للحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : « والذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد » معجم البلدان ١ : ٣٧ .
(٧ ـ ٧) الطبرى : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحملوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .
(٨) الطبرى : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار ، وخرج صالح ليلة خرج فى مائة وعشرين ، وقيل : فى مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثُنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة][1]،ومعه رجالٌ سُمّوا لِى [كانوا يعازّوننا][1] ؛ وإنّ الرجل منهم خير من مائة فارس فى خمسمائة ! فقال له : إنى أزيدُك خمسمائة ، فسرْ إليهم فى ألف فارس .

فسار مِنْ حَرّان فى ألف رجل ؛ وكأنّمـا يُساقون إلى الموت ـ وكان عدىّ رجلاً ناسكا [2] ـ فلما نزل دَوغان[3] نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه فقال : إنّ عديًّا بعثنى إليك يسألك أن تخرُج عن هـذا البلد ، وتأتِى بلدا آخر فتقاتل أهله ؛ فإنى للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك مانعرف ، ثم نحن مُدْلِجُون[4] عنك، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمة السوء، رَأَيْنا رأينا ، فإمّا بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه،فقال له عدىّ : ارجعْ إليه فقل له: إنّى والله لاأرى رأيَك ، ولـكنّى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين [5] .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجلَ عنده ، ومضى بأصحابه حتى أتى عديًّا فى سوق دَوْغَان ؛ وهو قائم يصلِّى الضّحى ، فلم يشعر إلا بالخيل طالعة عليهم ؛ فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غـير تعبية [6] ، وقد تنادَوْا ، وبعضُهم يجولُ فى بعض ، فأمرَ شبيبا فحمل عليهم فى كتيبة ، ثم أمرَ سُوَيْداً فحمل فى كتيبة ، فـكانت هزيمتُهم ،

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « يتنسك » .

(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سوقا لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة فى كل شهر . (مراصد الاطلاع) .

(٤) الدلج والدلجة : السير آخر الليل .

(٥) فى الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .

(٦) عبأ الجيش للحرب تعبئة : هيأه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وأتى عدىٌّ بدابّته فركبها ، ومضى على وجهه ، واحتوى صالح على عسكره وما فيه ، وذهب فَلُّ عدىّ حتى لحِقُوا بمحمّد بن مروان ، فغضب ، ثم دعا بخالد بن جَزْء السُّلمىّ فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جَعْوَنَة فى ألف وخمسمائة ، وقال لهما : اخرجا إلىّ هذه الخارجةَ القليلةَ الخبيثة ، وعجِّلا [الخروج ، وأغِذّا السّير][1] فأيّكما سَبَق ، فهو الأمير على صاحبه ، فخرجا وأغَذّا[2] فى السير ، وجعلا يسألان عن صالح ، فقيل لهما : توجّه نحو آمِد[3] ، فاتّبعاه حتى انتهيا إليه بآمِد ، فنزلا ليلا ، وخندقا وهما متساندان ؛ كلٌّ واحدٍ منهما على حِدَتِه ، فوجّه صالح شبيبا إلى الحارث بن جَعْوَنة فى شطْر أصحابه ، وتوجّه هو نحو خالدٍ السُّلَمىّ ، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم ، حتى حَجَز بينهم الليل ؛ وقد انتصف بعضُهم من بعض .

فتحدّث بعضُ أصحابِ[4] صالح ، قال : كنا إذا حمَلْنا عليهم استقبلْنا رجالَهم بالرماح ، ونَضَحنا[5] رُماتَهم بالنّبل ، وخيلُهم تطاردنا فى خلال ذلك ، فانصرفنا عند الليل ، وقد كَرِهْناهم وكَرِهونا ، فلما رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكِسَر[6] ، دعانا صالح وقال : ياأخِلاّئى ، ماذا تَرَوْن ؟ فقال شبيب : إنّا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم ، لم نَنَلْ منهم طائلا ، والرأى أن نَرْحَل عنهم ، فقال صالح : وأنا أرى ذلك ؛ فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة ، وأرض الموصل ، ومَضَوْا حتى قطعوا أرض الدَّسْكرة . فلما بلغ ذلك الحجّاج سَرّح عليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف ،

---

(١) من الطبرى .
(٢) أغذ فى السير : أسرع فيه .
(٣) آمد ، بكسر الميم : بلد قديم حصين ، تحيط دجلة بأكثره . مراصد الاطلاع .
(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : « فحدثنى المحلمى قال ... » ، وأورد الخبر باختلاف فى الرواية .
(٥) النضح : الرمى بالنبل .
(٦) الكسرة : القطعة من الخبز ، وجمعه كسر .

فسار وخرج صالح نحو جلُولاء وخانِقين [١] واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج [٢] ، وصالح يومئذ فى تسعين رجلا ، فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة ، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرادِيس وهو فى كُردوس [٣] ، وشبيب فى مَيْمَنة فى كُرْدُوس ، وسُوَيْد بن سُلَيم فى كُرْدُوس فى ميسرته ؛ فى كلّ كُرْدُوس منهم ثلاثون رجلا؛فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم ، وثبت صالح فقُتِل ، وضارب شبيب حتى صُرِع عن فرسه ، فوقع بين رجاله ، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح ، فوجَدَه قتيلا فنادى : إلىّ يامعشر المسلمين ! فلاذوا به ، فقال لأصحابه : ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه ، وليطاعِنْ عدوَّه إذا قدم عليه ؛ حتى ندخل هذا الحِصْن ، ونرى رأينا .

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحِصْن؛وهم سبعون رجلا مع شبيب،وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً ، وقال لأصحابه : أحرقوا الباب،فإذا صار جَمْراً فدَعوه،فإنهم لايقدرون على الخروج حتى نصبح [٤] فنقتلهم ، ففعلوا ذلك بالباب ؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم .

فقال شبيب لأصحابه : ياهؤلاء ، ماتنتظرون ! فوالله إن صَبَّحوكم غُدْوَة [٥] إنه لهلاككم ، فقالوا له : مُرْنا بأمرك ، فقال لهم : [إن الليل أخفى للويل] [٦] ؛ بايعونى إن شئتم ، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم ، ثم اخرجوا بنا حتى نشُدّ عليهم فى عسكرهم ، فإنهم آمنون منكم ، وإنى أرجو أنْ ينصرَكم الله عليهم. قالوا : ابسط يدك، فبايعوه ، فلماجاءوا

---

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان ، بينه وبين خانقين سبعة فراسخ ، وخانقين : فى نواحى السواد فى طريق همذان .

(٢) فى الطبرى : « المدبج : من أرض الموصل ، على تخوم مابينها وبين أرض جوخى » .

(٣) الكردوس : القطعة من الخيل ، وجمعه كراديس .

(٤) الطبرى : « نصبحهم » .

(٥) صبحوكم : أغاروا عليكم صباحاً .

(٦) من الطبرى .

إلى الباب ، وجدُوه تَجْرا ، فأتوْه باللُّبود [١] فبَلُّوها بالماء ، ثم ألقوْها عليـه وخرجوا ، فلم يشعُر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربُونهم بالسيوف فى جوف عسكرهم ، فضارب الحارث حتى صُرِع ، واحتمله أصحابه ، وانهزموا وخلُّوا لهم المعسكر ومافيه ، ومضَوْا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أولَ جيش هزمه شبيب [٢] .

* * *

[دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع فى أدانى أرض الموصل [٣] ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يَجْبِى الخراج ، وكان سفيان بن أبى العالية قد أمِر أن يحارب صاحب طَبَرِسْتَان ، فأمر بالقفول نحو شبيب ، وأن يصالح صاحب طَبَرِسْتان ، فصالحه ، فأقبل فى ألف فارس ، وقد ورد عليـه كتاب من الحجاج :

[٤] أما بعد ، فأقِمْ بالدَّسْـكرة فيمن معك؛ حتى يأتيَك جيش الحارث بن عميرة قاتل صالح بن مسرّح ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزه [٤] .

ففعل سفيان ذلك ، ونزل إلى الدّسْـكرة حتى أتوْه ، وخرج مرتحلا فى طلب شبيب ، فارتفع شبيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم ؛ وقد أكْمَنَ لهم أخاه مَصاداً فى خمسين رجلا ، فى هَضْم [٥] من الأرض ، فلما رأوْا شبيبا جمع أصحابه ، ومضى فى سَفْح من الجبل

---

(١) اللبد : كل شعر أو صوف متلبد ، سمى به للصوق بعضه ببعض ، وجمعه لبود .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثـلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) فى الطبرى بعدها : « وتخوم أرض جوخى » .

(٤ ــ ٤) الـكتاب كما فى الطبرى : « أما بعـد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمدانى بن ذى المشعار ، وهو الذى قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شبيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : المـكان المطمئن من الأرض ، وفى الطبرى : « هزم من الأرض » ، وهما بمعنى .

مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله ،واتبعوه . فقال لهم عَدِىّ بن عميرة الشيبانىّ : أيّها الناس؛ لاتعجَلوا عليهم حتى نَضْرِب فى الأرض ونستبرِئَها[1] ؛ فإن يكونوا أكَنُوا كمينا حَذِرْناه؛ وإلا كان طلبُهم بين أيدينا لن يفوتَنا . فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا فى آثارهم .

***

فلما رأى شبيب أنّهم قد جازوا الكمين ، عَطَف عليهم ، فحَمَلَ من أمامهم ، وخرج الكَمِين من ورائهم ؛ فلم يقاتل[2] أحد ؛ وإنما كانت الهزيمةُ ، وثبت سُفيان بن أبى العالية فى مائتى رجل ؛ فقاتل[3] قتالا شديدا حتى انتصفَ من شبيب[3] ؛ فقال سويد بنُ سليم لأصحابه : أمِنْكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبى العالية[4] ؟ فقال له شبيب : أنا مِنْ أعرف النّاس به ،أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغرّ الذى دونه المرامية ؟ فإنه هو ،[5] فإن كنتَ تريده فأمهِلْه قليلا .

ثم قال : ياقَعْنَب، اخرُج فى عشرين ، فأْتِهم من ورائهم . فخرج قَعْنَب فى عشرين فارتفع عليهم ، فلما رأوْه يريد أنْ يأتيَهم من ورائهم ، جعلوا ينتقصون ويتسلَّلُون ، وحَمَل سويد بن سُلَيم على سُفيان بن أبى العالية يطاعِنُه[6] ، فلم تصنع رماحُهما شيئا ، ثم اضطربا بسيفيهما ، ثم اعتنق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرضِ يعترِكان ، ثم تحاجزا ، وحَمَل عليهم شبيب ؛ فانكشف مَنْ كان مع سفيان ؛ ونزل غلام له يقال له غَزْوان عن بِرْذَوْنه ، وقال لسفيان : اركب يامولاى ، فركب سُفيان ، وأحاط به أصحابُ شبيب ، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل ، وكان معه رايته ، وأقبل سفيان منهزما ؛ حتى انتهى

---

(١) يقال : استبرأ أرض بنى فلان ، إذا سار فيها وانتهى إلى آخرها . وفى الطبرى : « نسير بها » .
(٢) الطبرى : « فلم يقاتلهم أحد » .
(٣ — ٣) الطبرى : « فقاتلهم قتالا شديدا حسنا حتى ظن أنه انتصف من شبيب وأصحابه » .
(٤) فى الطبرى بعدها : « فوالله لئن عرفته لأجهدن نفسى فى قتله » .
(٥) الطبرى : « فإنه ذلك » .
(٦) الطبرى : « فطاعنه » .

إلى بابل مَهْرُوذ ، فنزل بهـا ؛ وكتب إلى الحجـاج[(١)] ، وكان الحجاجُ أمَرَ سَوْرة ابن أبجر أن يلْحَق بسفيان ، فـكاتَبَ سورةُ سفيانَ ،وقال له : انتْظِرنى ؛ فلم يفعل وتَجِل نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ،قال للناس : مَنْ صنع كما صنع هـذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه يعـذره[(٢)] ، ويقول : إذا خَفَّ عليكَ الوَجَع فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك . وكتب إلى سورة بن أبجر :

[(٣)] أما بعد يابن أمّ سورة ، فما كنتَ خليقا[(٣)] أن تجترئَ على تركِ عهدى ،وخذلان جُندى ، فإذا أتاكَ كتابى فابعث رجلا مِمّن معك صَليبا إلى[(٤)] المدائن ، فلينتخبْ من جنـدها خمسائة رجل ، ثم ليقدم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم][(٥)] حتى تَلْقَى هـذه المارقة ، واحزم أمركَ ، وكِدْ عَدُوّك ؛ فإنّ أفضَـل أمر الحروب حُسْنُ المـكيدة . والسلام .

فلمـا أتى سَوْرةَ كتابُ الحجاج بعث عدىّ بن عمير إلى المدائن ، وكان بهـا ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحـل بهم[(٦)] حتى قدِم على سَوْرة ببابل مَهْرُوذ ،

---

(١) كتابه إلى الحجاج كما فى الطبرى : « أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ! إنى اتبعت هـذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إد أتاهم قوم كانوا غيبا عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت فى رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خررت بين القتلى ، فحملت مرتثا ، فأتى بى بابل مهروذ، فها أنا بها والجند الذين وجههم الأمير وافوا إلا سورة بن أبجر ، فإنه لم يأتنى ، ولم يشهد معى ، حتى إذا ما نزلت بابل مهروذ أتانى يقول مالا أعرف ، ويعتذر بغير العذر والسلام » .

(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما فى الطبرى : « أما بعد ، فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذى عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك . والسلام » .

(٣ ــ ٣) الطبرى : « أما بعد فيابن أم سورة ، ما كنت خليقاً أن تجترئ على » .

(٤) الطبرى : « إلى الخيل التى بالمدائن » .

(٥) من الطبرى .

(٦) عبارة الطبرى : « ثم دخل على عبد الله بن أبى عصيفير ، وهو أمير المدائن إمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثوابا، ثم إنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه حتى قدم بهم على سورة . . . »

فخرج بهم فى طلب شبيب ، وخرج شبيب يَجُول فى جُوخى[1] ، وسَوْرة فى طلبه، فجاء شبيب إلى المدائن فتحصّنَ منه أهلُها فانتهب المدائن الأولى ، وأصاب دوابَّ من دوابّ الجند ، وقتل مَنْ ظَهر له ،ولم يدخل البيوت ، ثم أتى فقيل له : هذا سَوْرة قد أقبل إليك ،فخرج فى أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان ، فنزلوا به وتوضئوا وصلوا ، ثم][2] أتوْا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علىّ بن أبى طالب ،فاستغفروا لهم ،وتبرءوا من علىّ وأصحابه،وبكوْا فأطالوا البكاء ، ثم عَبَرُوا جسر النهروان ، فنزلوا جانبه الشرقىّ ، وجاء سَوْرة حتى نزل بنفطرانا[3] وجاءته عيونه ،فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان ،فدعا سورة رءوس أصحابه، فقال لهم : إنّ الخوارج قَلّما يُلقَوْن فى صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا ، وقد حُـدّثت أنّهم لايزيدون على مائة رجل ؛ وقد رأيتُ أنْ أنتخِبكم، وأسير فى ثلاثمائة رجل منكم ، من أقويائكم وشجعانكم فأبيّتهم [4] فإنهم آيسون من بَيَاتكم [4] ، وإنى والله أرجو أن يصرَعهم الله مَصَارع إخوانهم فى النهروان مِن قَبْل ، فقالوا : اصْنَعْ ماأحببت .

فاستعمَل على عسكره حازم بن قُدامة ، وانتخب ثلاثمائةمن شجعان أصحابه ، ثم أقبل بِهِمْ حتى قَرُب من النهروان ، وبات وقد أذْكَى الحرس ، ثم بيّتهم ؛ فلما دنا أصحاب سورةمنهم نَذِروا[5] بهم ؛ فاستوَوْا على خيولهم، وتعبّوْا تَعْبِيَتَهم ؛فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم وقد نذِرُوا ، فحمل عليهمسَوْرة ، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم

---

(١) جوخى ، بالقصر وقد يفتح: نهر عليه كورة واسعة فى سوادبغداد ، بالجانب الشرقى منه الرذان، وهو بين خانقين وخوزستان ، قالوا : ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم ، حتى صرفت دجلة عنها فخربت ، وأصابهم بعـد ذلك طاعون شيرون فأتى عليهم ، ولم يزل السواد فى إدبار من ذلك الطاعون . مراصد الاطلاع ١ : ٣٥٥

(٢) من الطبرى .

(٣) كذا فى الأصول وفى الطبرى : « قطرانا » .

(٤ ـ ٤) الطبرى : « فآتيهم الآن فإنهم آمنون لبياتكم » .

(٥) نذروا بهم : علموا بهم . وفى ج : «حذروا » .

حتى تركوا له العَرْصة ، وحمل شبيب ، وجعل يضرب ويقول :

* مَنْ يَنِكِ الْعَيْرَ يَنِكْ نَيًّا كا[1] *

فرجع[2] سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه ، وأقبل نحوَ المدائن ، وتَبِعه شبيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شَبيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوتَ ، وخرج ابن أبى عصيفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ فى جماعة ، فلقِيَهم فى شوارع المدائن ، ورماهم النّاسُ بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شبيب إلى تَكْرِيت[2] ، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرْجَف[3] الناس فقالوا : هذا شبيب قد أقبلَ يريد أن يبيّت أهل المدائن ، فارتحل عامّةُ الجند ، فلحِقوا بالكوفة ،[4] وإنّ شبيبا بتَكْرِيت ، فلما أتى الحجاج[5] الخبرُ ، قال : قبح الله سَوْرة ! ضيّع العسكرَ وخرج يُبَيِّت الخوارج ؛ والله لأسوءنّه[6] .

---

(١) بقيته فى الطبرى :

* جَنْدَلتَانِ اصْطَكّتَا اصْطِكَا كَا *

(٢ ـ ٢) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم الفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتعدى الطريق الذى فيه شبيب ، واتبعه شبيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره ، ويصيب بهزيمته أهل العسكر ؛ فأغذ السير فى طلبهم ، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها ، وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل النـاس ، وخرج ابن أبى عصيفير فى أهل المدائن ، فرماهم بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن ، فمر على كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير فى أرض جوخى ثم مضى نحو تكريت ... » .

(٣) أرجف القوم ، أى خاضوا فى الأخبار السيئة ، وذكر الفتن ، على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء ، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فى المدينةِ ﴾ .

(٤) فى الطبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمى : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليلة ، وإن شبيبا لبتكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج ، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الكندى »

(٥) فى الطبرى : « عن فضيل بن خديج الكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال . . . »

(٦) فى الطبرى : « وكان قد حبسه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجَزْل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسّر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتَهم فلاتعجل عجَلَة الخرِق النَّزِق[1] ، ولا تحجم إحجام الوانى الفَرِق[2] ، أفهمت[3] ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛ قال : فاخرج وعَسْكِرْ بدَيْرِ عبدالرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلحَ الله الأمير ! لا تبعثْ معى أحداً من الجند المهزوم المفلول ، فإنّ الرعبَ قد دخل قلوبَهم ، وقد خشيت ألّا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنْتَ الرأى ، ووُفِّقت ؛ ثم دعا أصحابَ الدواوين ، فقال ؛ اضربوا عَلَى النَّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعةَ آلاف من الناس ، وعجّلوا ، فجمعت العُرَفاء ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضَرَبوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللّحاق بالعسكر ؛ ثم نودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِئت الذِّمّة مِنْ رجل أصبْنَاه من بعث الجَزْل متخلِّفًا .

فمضى بهم الجَزْل ، [وقد قدّم بين يديه عياض بن أبى لينة الكندىّ على مقدمته فخرج][4] ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثًا ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبى عصيفير بفَرَس وبِرْذَوْن وألفى درهم ، ووضع للناس من الحطب[5] والعلَف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأصاب الناس ماشاءوا من ذلك .

***

ثم إنّ الجزل خرج بالناس إثرَ شبيب ، فطلبه فى أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتَاق إلى رُسْتاق ، ومن طَسُّوج إلى طَسُّوج [ولا يقيم له][4] ،

---

(١) الخرق : الرجل الأحمق ، والنزق : الطائش الخفيف عند الغضب .

(٢) الفرق : الشديد الفزع .

(٣) فى الطبرى بعدها : « لله أنت يا أخا بنى عمرو بن معاوية » .

(٤) من الطبرى .

(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرّق الجَزْل أصحابَه ،ويتعجّل إليه فيَلْقاه فى عَدَدٍ يسير على غيرِ تعبية؛ فجعل الجزْل لا يسير إلّا على تَعبِيَة ؛ ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شبيب ، دعا يوما أصحابه ، وهم مائة وستون رجلا ، هو فى أربعين ، ومصاد أخوه فى أربعين ، وسويد بن سليم فى أرْبعين ، والمحلّل بن وائل فى أربعين ، وقد أتته عيونه [فأخبرته][1] ، أنّ الجزْل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد[2] . فقال لأخيه وللأُمراء الذين ذكرناهم : إنى أريد أن أبيِّت الليلة هذا العسكر ، فأْتِهم أنت يامصاد من قِبَل حُلْوان[3] ، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبَل الكوفة ، وأْتِهمْ أنت ياسُوَيْد من قِبَلِ المشرق ، وأْتِهمْ أنت يامحلّل ، من قِبل المغرب ، وليَلِجْ كلُّ امرئٍ منكم على الجانب الذى يحمل عليه ، ولا تقلعوا عنهم حتى يأتِيَكم أمرى .

قال فروة بن لقيط[4] : وكنتُ أنا فى الأربعين الذين كانوا معه[5] ، فقال لجماعتنا : تيسَّرُوا ، وليسِرْ كلُّ امرئٍ منكم مع أميره ، ولْيَنظُر مايأمره به أميره فليتبعْه ، فلما قضمت دوابّنا ـ وذلك أول ماهدأت العيون ـ خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا القوم عليهم مَسْلحة بن أبى لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شَبيب حتى حمل عليهم فى أربعين رجلا ؛ وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيَهم من ورائهم ، كما أمره[5] .

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) تطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد مما يلى العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعد البصرة والكوفة ، وواسط بغداد أكبر منها . (مراصد الاطلاع).

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥ ـ ٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضمت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ماهدأت العيون، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا للقوم مسلحة ، عليهم عياض بن لينة ، فما هو إلا أن انتهينا إليهم، فحمل عليهم مصاد أخو شبيب فى أربعين رجلا ـ وكان أمام شبيب ـ وقد كان أراد أن يسبق شبيبا حتى يرتفع عليهم ويأتيهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِىَ هؤلاء قاتلهم ، فصبروا له ساعة وقاتلوه . ثم إنّا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدَجِرد إلا نحو ميل[1] ، فقال لنا شبيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملظّين[2] بهم ، ملحِّين عليهم ، ما نُرفِّهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همّة إلا عسكرهم .

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، وَرَشَقُوهم[3] بالنَّبْل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خَنْدَق عليهم وتحرّز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخرّارة][4] ، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حُلوان .

فلما اجتمعت المسالح ، ورشقوهم بالنبل ، ومنعونا من خَنْدَقهم ، رأى[5] شبيب أنّه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ، فلما سار عنهم أَخَذَ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فأقضموا دوابّكم ، وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك . ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التى التى عبّأتكم عليها أوّل الليل ، وأطيفوا[6] بعسكرهم كما أمرتكم . فأقبلنا[7] معه ، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم ، وأَمِنُوا ، فما شعروا حتى سَمِعُوا وقع حوافر الخيل ، فانتهينا إليهم قبيل الصبح ، وأحطْنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنَّبْل ؛ فقال شبيب[8] لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

---

(١) الطبرى : « قريب من ميل » .
(٢) ملظين : ملحين .
(٣) الطبرى : « ورشقونا » .
(٤) من الطبرى .
(٥) الطبرى : « ثم أطيفوا بعسكرهم » .
(٦) فى الأصول : « نظر » ، والأجود ما أثبته من تاريخ الطبرى .
(٧) الطبرى : « فأقبلوا » .
(٨) الطبرى : « ثم أن شبيبا » .

الذى يلى الـكوفة : خَلِّ لهم سبيل [طريق] [١] الـكوفة ، فخلى لهم ، وقاتلناهم من [تلك][١] الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح[٢] ، ثم سرنا وتركناهم ، لأنا لم نظفرْ بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل فى أثره يطلبه ، وجعل لا يسيرُ إلا على تعبية وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب فى أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمرُه على الحجاج ، فـكتب إلى الجزل كتاباً قرِئ على الناس وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتك فى فرسان [أهل] [١] المِصْر ووجوه الناس ، وأمرتك باتّباع هذه[٣] المارقة ، وألّا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها[٣] ؛ فجعلتَ[٤] التعْرِيس فى القُرى ، والتخييم فى الخنادق ، أهونَ عليك من المضىِّ لمناهضتهم ومناجزتهم . [والسلام][٥] .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزْل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لَبِث الناس أنْ بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميرا بدله ، وعَهِد إليه : إذا لقى المـارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صُنْع الجزل[٦] ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى فى طلب شبيب إلى النّهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الـكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيبا ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهلَ الـكوفة ، إنـكم قد عجزتم وَوَهَنْتم ، وأغضبْتم عليكم أميرَكم ، أنتم فى طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين ، قد أخربوا بلادكم ، وكسروا خراجـكم ؛ وأنتم

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .

(٣ ـ ٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها » .

(٤) الطبرى : « فوجدت » .

(٥) فى الطبرى ، بعدها : « فقرئ الـكتاب علينا ، ونحن بقطرثا ودير أبى مريم » .

(٦) بعدها فى الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع » .

حَذِرون فى جوف هذه الخنادق لا تُزايلونها إلّا أن يبلغَكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم ، ونزلوا بلداً سوى بلدكم ؛ اخرجوا على اسم الله إليهم .

ثم خرج وخرج الناس معه[1] ، فقال له الجزْل : ماتريد أن تصنع ؟ قال : أقدمُ على شبيب وأصحابه فى هذه الخيل ؛ فقال له الجزل : أقِمْ أنت فى جماعة الناس[2] ، فارسهم وراجلهم[3] ؛ ولا تفرّق أصحابك ، ودعنى أُصْحِرُ له[4] ؛ فإن ذلك خيرٌ لك وَشرٌّ لهم[3] .

فقال سعيد : بل تَقِفُ أنت فى الصفّ ، وأنا أُصْحِرُ له ، فقال الجزل : إنى برئٌ من رأيك هذا ؛ سمع الله ومَنْ حضر من المسلمين ! فقال سعيد : هو رأيى ؛ إن أصبتُ فيه ، فالله وَفّقنى ، وإن أخطأتُ[5] فيه فأنتم برآء .

فوقف الجزل فى صَفّ [أهل][6] الكوفة ، وقد [أخرجهم من الخندق و][6] جعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينةَ الكِنْدىّ ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الراسبىّ[7] ؛ ووقف الجزْل فى جماعتهم ، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج [وأخرج][6] الناس معه ؛ وقد أخذ شبيب إلى بَرَاز الروز[8] ، فنزل قَطْفُتا[9] ، وأمر دِهقانها أن يشوِىَ لهم غنما ، ويعدّ لهم غداء ففعل ، وأغلق مدينة قَطْفُتا ، ولم يفرغ

(١) فى الطبرى بعدها : « وجمع إليه خيول أهل العسكر » .
(٢) الطبرى : « الجيش » .
(٣ – ٣) عبارة الطبرى : « وأصحر له ، فوالله ليتقدمن عليك ؛ فلا تفرق أصحابك ؛ فإن ذلك شر لهم وخير لك » .
(٤) أصحر القوم ؛ إذا برزوا فى الصحراء ؛ لايواريهم شىء .
(٥) الطبرى : « وإن يكن غير صواب » .
(٦) من الطبرى .
(٧) فى الأصول : « وأبا حميد » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .
(٨) براز الروز ، بالزاى ، وألف ولام وراء مضمومة : من طساسيج السواد ببغداد ؛ من الجانب الشرقى من أستان البهقباذ ، كان للمعتضد به أبنية جليلة . (مراصد الاطلاع) .
(٩) قطفتا : محلة غربى بغداد .

الدِّهقان من طَعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعِد الدِّهقان ، ثم نزل ، وقد تغيَّر لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أَبَلَغ[1] شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دَعْهُ يبلغ ، ثم أشرف الدِّهقان إشرافة أخرى ، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجوْسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترِث بهم ولا فَزِع ، فلما فَرَغ قال لأصحابه ، قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرِجُوا لى بغلتى ، فقال أخوه : أفى مثل هذا اليوم تركب[2] بغلة ؟ قال: نعم ، أسْرِجوها ، فركبها ، ثم قال : يافلان ، أنت على الميمنة ، وأنت يا فلان على الميسرة ، وأنت يا مَصاد ـ يعنى أخاه ـ على القلب ، وأمر الدِّهقان ففتح الباب فى وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكِّم[3] ، وحمل حملة عظيمة ، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرى ، حتى صار بينهم وبين الدَّيْرِ ميل ، وشبيب يصيح : أتاكم الموت الزؤام ! فاثبتوا ، وسعيد يَصيح : يامعشر هَمْدان ، إلىّ إلىّ ، أنا ابن ذى مرّان ! فقال شبيب لمصاد : وَيْحَكَ ! استعرضهم استعراضا ؛ فإنهم قد تقطّعوا ، وإنى حامل على أميرهم ، وأثكلَنيكَ الله إن لم أُثْكِلْه ولده ؛ ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ فسقط[4] ميّتا وانهزم أصحابه، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتلُ سعيد إلى الجزْل ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ؛ وصاح عياض ابن أبى لينة : أيها الناس ، إن يكن أميركم هذا القادم هَلك ، فهذا أميركم الميمون النقيبة ، أقبلوا إليه ؛ فمنهم مَنْ أقبل إليه ، ومنهم مَنْ ركب فرسه منهزما ، وقاتل الجزْل يومئذ قتالا شديدا حتى صُرِع ، وحامى عنه خالد بن نَهِيك ، وعياض بن أبى لينة ؛ حتى استنقذاه

(١) الطبرى : « أبلغ الشواء » وبلوغ الشواء : نضجه .
(٢) الطبرى : « تسرج » .
(٣) التحكيم : قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » .
(٤) فى الأصول : « ثم سقط » ، والأجود ما أثبته من الطبرى .

مرتثًا ، وأقبل النـاس منهزمين حتى دخلوا الـكوفة ، وأتى بالجزْل جريحا حتى دخل المدائن ، فـكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى خرجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وَجَّهنى فيه إلى عدوّه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهم ورأيه ؛ فـكنت أخرجُ إلى المارقين[1] إذا رأيت الفرصة ، وأحبس [الناس] [2] عنهم إذا خشيت الورْطـة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر ، وأرفقُ فى التدبير ؛ وقد أرادنى العدوّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرّة ، حتى قدم علىّ سعيد بن مجالد ، فأمرتُه بالتؤدة ، ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألّا يقاتلهم إلا فى جماعة النـاس عامّة ، فعصانى وتعجّل إليهم فى الخيل ، فأشهدْتُ الله عليه وأهلَ المِصْرَيْن أنّى برىء من رأيه الذى رأى ، وأنّى لا أهوَى الذى صنع ، فمضى فقُتل ، تجاوز الله عنه ! ودَفَع[3] الناس [إلىّ][2] فنزلت ودعوتُهم إلى نفسى[4] ورفعتُ رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعت ، فحملنى أصحـابى من بين القتلى ، فـما أفقت إلّا وأنا عَلَى أيديهم ؛ عَلَى رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمـدائن ، وفىّ جِراحات[5] قد يموتُ الإنسان من دونها ؛ وقد يعافَى من مثلها ؛ فليسأل الأميرُ أصلحَه الله عَنْ نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدتى عدوّه ، وعن موقفى يوم البـأس ؛ فإنه سيبين[6] له عند ذلك أنّى صدقتُه ونصحت له . والسلام .

فـكتب إليه الحجّاج :

---

(١) الطبرى : « إليهم » .
(٢) من الطبرى
(٣) دفع الناس ، أى جاءوا مرة مجتمعين .
(٤) الطبرى : « ودعوتهم إلى » .
(٥) الطبرى : « جراحة » .
(٦) الطبرى : « يستبين » .

أما بعد ، فقد أتانى كتابُك وقرأته ، (١) وفهمت كلّ ماذكرتَه فيه من أمر سَعِيدوأمر نفسِك ، وقدصدّقْتُك فى نصيحتك لأميرك وحَيْطتك على أهل مِصْرك ،وشدّتك على عدُوِّك ، وقد رضيتُ عَجلةَ سعيد وتؤدتَك (١) . فأما عجلتُه فإنها أفضَتْ به إلى الجنة ، وأما تؤدتك (٢) فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم (٢) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنتَ عندِى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصتُ إليك حيّان بن أبجر (٣) الطبيب ليداويَك ، ويعالج جراحاتك ؛ وقد بعثتُ إليك بألفَىْ درهم نفقةً تصرفهـا فى حاجتك وما ينوبك (٤) . والسلام .

وبعث عبد الله بن أبى عصيفر والى المـدائن إلى الجَزْل بألف درهم ؛ وكان يعوده ويتعاهَدُه بالألطاف والهدايا .

وأما شبيب ، فأقبل حتى قَطَع دِجْلة عند الـكَرْخ ، وأخذ بأصحابه نحو الـكوفة . وبلغ الحجّاج مكانُه بحمّام أعين ؛ فبعث إليـه سويد بن عبد الرحمن السعدىّ ، فجهزه بألفَىْ فارس منتخَبين ، وقال له : اخرُج إلى شبيب فالْقَه ولا تَتْبعه ؛ فخرج بالنـاس بالسَّبَخة (٥) ؛ وبلغه أنّ شبيبا قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجّاج عثمان بن قَطَن ، فعسكر بالنـاس فى السَّبَخة ، ونادى : ألا برِئت الذِّمّةُ من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالـكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَن بالسَّبَخة ، فبينا سويد بن عبد الرحمن يسيرُ فى الألفين الذين معه ؛ وهو يعبّيهم ويحرّضهم ؛ إذْ قيل له :

(١-١) الطبرى : « وفهمت كل ماذكرت فيه ، وقد صدقتك فى كل ماوصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ماذكرت من أمر سعيـد وعجلته إلى عدوه وتؤدتك . »

(٢-٢) الطبرى : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمـكن حزم » .

(٣) ب : « جبار بن الأعز » .

(٤) فى الطبرى بعـدها : « فقدم عليـه حيان بن أبجر الـكنانى ، من بنى فراس ؛ وهم يعالجون الـكى وغيره ، فـكان يداويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيَكَ شبيب؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته ؛ فأخبر أنّ شبيبا لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضةً(١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذى سويد ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراهم ! فنادى فى أصحابه ، فركبوا فى آثارهم ، فأتى شبيب دارَ الرزق فنزلها ، وقيل له : إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكانُ شبيب ، ماجَ الناس بعضُهم إلى بعض ، وجالوا وهمّوا بدخول الكوفة ، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن فى آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم فى الخيل ، ومضى شبيب حتى أخذَ عَلَى شاطئ الفرات ، ثم أخذ عَلَى الأنبار ، ثم دخل دَقُوقَاء(٢) ، ثم ارتفع إلى أدانى أذرَبيجان .

وخرج الحجاجُ من الكوفة إلى البصرة حيث بَعُدَ شبيب ، واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المغيرة بن شعبة ، فما شعر الناس إلا بكتاب [من](٣) مادارست(٤) ، دِهْقان بابل مهروز إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أنّ تاجراً من تجار [الأنبار من](٣) أهل بلادى

---

(١) المخاضة : موضع الخوض فى الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين إربل وبغداد معروفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر فى الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبى حمام الذهلى يرثيهم :

شَبَابٌ أَطَاعُوا اللهَ حَتى أحَبَّهُمْ ... وَكُلُّهُمْ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ

فَلَمَّا تَبَوَّوْا من دَقُوقا بِمَنْزِلٍ ... لميعَادِ إخْوَانٍ تَدَاعَوْا فَأَجْمَعُوا

دَعَوْا خَصْمَهُمْ بالمحكماتِ وبَيَّنُوا ... ضلالتَهُمْ ، واللهُ ذُو الْعَرْشِ يَسْمَعُ

بِنَفْسِيَ قَتْلَى فى دَقُوقَاءَ غُودِرَتْ ... وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهَا رُءوسٌ وَأَذْرُعُ

لِتَبْكِ نِسَاءُ المسلمينَ عليهمُ ... وَفِي دُونِ مالاَقَيْنَ مَبْكًى وَمَجْزَعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ماذ رواسب » .

أتانى يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هذا الشهر المستقبل ، وأحببت إعلامك [ذلك][1] لترى رأيك ؛ [2] وإنى لم ألبث بعد ذلك إذ جاءنى اثنان من جيرانى [2] فحدّثانى أنّ شبيبا قد نزل خانيجار[3] .

فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جادًّا [4] إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] [1] حتى انتهى إلى قرية حَرْبَى[5] على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال[6] لأصحابه : يا هؤلاء ، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شىء إن شاء الله . فسيروا بنا ، فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج : إن شبيبا قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فالعجلَ العجلَ .

فطوَى الحجاج للنازلَ مسابقا[7] لشبيب إلى الكوفة، فسبقه و نزلها صلاة العصر، ونزل شبيب السَّبَخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئا يسيرا ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة فى أصحابه حتى انتهى إلى السوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدّث جماعة[8] أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

---

(١) من الطبرى

(٢ — ٢) الطبرى : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءنى جابيان من جباتى » .

(٣) خانيجار : بليدة قريبة من دقوقاء .

(٤) الطبرى : « جوادا » .

(٥) قال ياقوت : « حربى مقصور ، والعامة تتلفظ به ممالا : بليدة فى أقصى دجيل ، بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة » . .

(٦) فى الطبرى بعدها : « فقال : مااسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربى ، فقال : حرب يصلى بها عدوكم، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؛ إنما يتطير من يقوف ويعيف . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقرقوفا ، فقال له سويد بن سليم : ياأميرالمؤمنين ؛ لو تحولت بنا من هذه القرية المشئومة الاسم ؟ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحول عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم ، تحملون عليهم فيها فالعقر لهم » .

(٧) « واستبقا إلى الكوفة » .

(٨) الطبرى : « قال أبو المنذر ؛ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَأَنَّ حَافِرَهَا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ فَرَقٌ يَكِيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُعْدِمُ[1]

[2] ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلّون[2] فيه ، فقتل منهم جماعة، ومرّ هو بدار حَوْشب ـ وكان هو على شُرْطة الحجاج ـ فوقف على بابه فى جماعة ، فقالوا: إنّ الأمير ـ يعنون الحجاج ـ يدعو حوشبا، وقد أخرج ميمون غلامه برْذَونه ليركب ، [فكأنه أنكرهم ، فظنوا أنه قد اتّهمهم] [3] فأراد أن يدخل إلى صاحبه ، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبُك إليك، فسمع حوشب الكلام ، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجِلوا نحوه ، فأغلق الباب دونه ، فقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا بِرْذَونه ، ومضوا حتى مرُّوا بالجحّاف بن نبيْط الشيبانىّ، من رهط حَوْشب. فقال له سويد : انزل إلينا ، فقال : ما تصنع بنزولى! فقال : انزل، إنى لم أقضِك ثمن البَكْرة التى ابتعتَها منك بالبادية ، فقال الجحّاف : بئس ساعة القضاء هذه ! وبئس المكان لقضاء الدَّيْن هذا . ويحك ! أماذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم ، وأنت على مَتْن فرسك ! قبح الله ياسُوَيد دينا لا يصلُح ولا يتمّ إلا بقتل الأنفس[4] وسَفْك الدماء . ثم مَرُّوا بمسجد بنى ذُهْل، فلقُوا ذهل بن الحارث، وكان يصلّى فى مسجد قومه ، فيطيل الصلاة إلى الليل، فصادفوه منصرفا إلى منزله فقتلوه[5] ثم خرجوا متوجّهين نحو الردمة[6] ؛ وأمر الحجاج المنادى : يا خيل الله اركبى وأبشرى، وهو فوق باب القصر ؛ وهناك[7] مصباح مع غلام له قائم .

---

(١) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا . وفى الطبرى : « كيل يكيل به » ؛ وبعده :

عَبْدٌ دَعِىٌّ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ لَا بَلْ يُقَالُ أَبو أَبِيهِمْ يَقْدُمُ

(٢ ـ ٢) الطبرى : « ثم اقتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان لايفارقه قوم يصلون فيه » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) فى الطبرى : « فشدوا عليه ليقتلوه ؛ فقال : اللهم إنى أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم إنى عنهم ضعيف فانتصر لى منهم ؛ فضربوه حتى قتلوه » .

(٦) الطبرى : « المردمة » . (٧) الطبرى : « وثم » .

وكان أوّل مَنْ جاء من النّاس عثمان بن قَطَن ، ومعه مواليه وناس من أهله ، وقال : أعلموا الأميرَ مكانى ، أنا عثمان بن قَطَن ، فليأمرنى بأمره . فناداه الغلام صاحب المصباح : قِفْ مكانك حتى يأتيَك أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلّ جانب ، وبات عثمان مكانَه فيمن اجتمع إليه من الناس ؛ حتى أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مَرْوان بعث محمد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتانَ ، وكتب له عهدَه عليها ، وكتب إلى الحجاج: إذا قدِم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهِّز معه ألفَيْ رجل ، وعجِّل سَرَاحَه إلى سِجِسْتَان .

فلما قدم الكوفة ، جعل يتجهّز[1] ؛ فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجّل أيها الرجل إلى عَمَلك ، فإنك لا تدرِى ما يحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخولُه الكوفة ، فقيل للحجاج : إنّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهْره لأمير المؤمنين عبد الملك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه ، منعك منه. قال : فما الحيلة ؟ قالوا : أنْ تذكُر له أنّ شبيبا فى طريقه وقد أعياك ، وأنك ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنّك عامل على كل بلد مررت به ، وهذا شبيب فى طريقك تجاهده ومَن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عملك ؛ فاستجاب له .

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسديّ فى ألفَيْ رجل ، وزياد بن قدامة فى ألفين ، وأبا الضَّريس مولى تميم فى ألفٍ من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولًى لبشر بن مروان فى ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعتْ تلك الأمراء فى أسفل الفرات ، وترك شبيب الوجهَ الذى فيه جماعة هؤلاء القُوّاد ، وأخذ نحو القادسيّة ، فوجه الحجاج زَحْر بن قيس

(١) الطبرى : « جعل يتحبس فى الجهاز » ، والتحبس : التوقف والتباطؤ .

فى جَريدة خيل ، نُقاوة[١] ، عدّتها ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : اتبع شبيبا حتى تواقعه حيثما أدركته ؛ فخرج زحْر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[٢] ، وبلغ شبيبا مسيرُه إليه فأقبل نحوه ، فالتقيا ، وقد جعل زحْر على ميمنته عبد الله بن كنّاز ، وكان شجاعا ، وعلى ميسرته عدىّ بن عدىّ بن عُميرة الكندىّ ، وجمع شبيب خيله كلها كبْكَبة[٣] واحدة ، ثم اعترض بها الصفّ يُوجِف[٤] وجيفا ، حتى انتهى إلى زحْر بن قيس ،فنزل زَحْر ، فقاتل حتى صُرِع وانهزم أصحابه ، وظن أنه قد قتل .

فلما كان الليل وأصابه البرد ؛ قام يمشى حتى دخل قرية ، فبات بها وحُمِل منها إلى الكوفة ، وبوجهه أربع[٥] عشرة ضربة ، فمكث أياما ، ثم أتى الحجّاج ، وعلى وجهه [وجراحه][٦] القُطْن ، فأجلسه معه على السرير[٧] . وقال أصحابُ شَبيب لشَبيب ؛

---

(١) نقاوة الشىء : خياره .

(٢) قال ياقوت : « ذكر سيلحين فى الفتوح وغيرها من الشعر يدل على أنها قرب الحيرة ضاربة فى البر قرب القادسية ؛ ولذلك ذكر الشعراء أيام القادسية مع الحيرة والقادسية ؛ فقال سليمان بن ثمامة حين سير امرأته من اليمامة إلى الكوفة :

فمرّتْ بِبابِ القَادِسِيَّةِ غَدْوَةً ... وراحتها بالسَّيْلَحِين العبــائرُ

فلما انتهتْ دون الخورنقِ عَادَهَا ... وَقَصْرُ بنِى النُّعْمَانِ حيثُ الأواخرُ

إلَى أهْلِ مِصْرٍ أصْلَحَ اللهُ حَالَهُ ... بِهِ المُسْلِمُونَ والجُهُودُ الأكابرُ

فَصَارَتْ إلى أرضِ الجِهَادِ وَبَلْدَةٍ ... مُبارَكَةٍ والأرضُ فيها مَصَائِرُ

فألْقَتْ عَصَاهَا واسْتَقَرَّ بها النَّوَى ... كَمَا قَرَّ عيْناً بالإيابِ المُسَافِرُ

(٣) الكبكبة : الجماعة من الناس

(٤) أوجفت الخيل فى السير : سارت سيرا فسيحا واسعا . وفى الطبرى : « فوجف وجيفاً » .

(٥) الطبرى : « وبوجهه بضع عشرة جراحة ؛ من بين ضربة وطعنة » .

(٦) من الطبرى .

(٧) فى الطبرى بعدها : « وقال لمن حوله : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين الناس وهو شهيد ؛ فلينظر إلى هذا » .

وهم يظنون أنّهم قد قتلوا زَحْراً : قد هزمنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيما ؛ فانصرِفْ بنا الآن موفورين[١] . فقال لهم : [٢] إنّ قتلَكم هذا الرجل[٣] وهزيمتَكم هذا الجند قد أرعب هؤلاء الأمراء[٢] ؛ فاقصِدوا بنا قَصْدهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قَتْلِ الحجاج وأخْذ الكوفة شيء . فقالوا له : نحن طوعٌ لأمرك ورأيك ، فانقضّ بهم جادًّا[٤] ؛ حتى أتى ناحية عين[٥] التمر ؛ واستخبَر عن القوم، فعرف اجتماعهم في رُوذْبار[٦] في أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فَرْسخا من الكوفة .

وبلغ الحجاجَ مسير شبيب إليهم ، فبعث إليهم[٧] : إنْ جَمَعَكم قِتال ، فأميرُ الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى[٨] إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عَبّى كلّ أمير أصحابه على حِدَة ، وهو واقف في أصحابه ، فأشرَف شبيبٌ على الناس ، وهو على فرس أغرّ كُمَيت[٩] ؛ فنظر إلى تعبيتهم ، ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف[١٠] بها ، حتى إذا دنا من الناس مضتْ كُتيبة فيها سويد بن سليم ،

---

(١) الطبرى : وافرين » .

(٢ — ٢) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التي بعث في طلبهم » .

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شيء وأخذ الكوفة إن شاء الله » .

(٤) الطبرى : « جواداً » .

(٥) في الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر » . ونجران الكوفة ، على يومين منها ؛ فيما بينها وبين واسط « على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم . وعين التمر : بلدة في طرف البادية على غربي الفرات ؛ أكثر نخلها القسب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مراصد الاطلاع) .

(٦) روذبار ؛ ضبطه صاحب مراصد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة ، وآخره راء ؛ قال : ويطلق على عدة مواضع .

(٧) في الطبرى : « فبعث إليهم عبد الرحمن بن الفرق ، مولى ابن أبي عقيل ، وكان على الحجاج كريما » .

(٨) الكلام في الطبرى ، عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) الكميت من الخيل : مابين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان بجبهته غرة .

(١٠) في الطبرى : « يوجفون بها » .

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العَتَكِىّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفتْ بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسدىّ ، وجاء شبيب فى كَتيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم فى القَلْب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير فى الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرِّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطَّيِّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون؛فاصبِروا جعلت لكم الفداء ! إنّما هى حَمْلتان أو ثلاث؛ثم هو النصر ليس دونه شىء؛ألا تَرَوْنهم والله لا يكونون مائتى رجل ، إنما هم أ كَلَة رأس[1] وهم السُّرّاق المرّاق ؛ إنما جاءوكم ليُهرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فُرْقة وأنتم أهلُ جماعة ، غُضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى آمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سُويد بن سليم على زياد بن عمرو العَتَكىّ،فكشف صَفّه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كَرّ عليهم ثانية[2] .

فقال فروة بن لَقِيط الخارجىّ[3] : اطَّعَنّا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا[4] ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لا يعرِض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ، فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا تَرَوْنهم يتقوّضون! احمِلُوا[5] عليهم، فأرسل إلينا شَبيب : خَلّوهم لا تحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ، وإنه ليضرَبُ بالسيوف[6] ،ومامن سيف يُضرَبُ به

---

(١) يقولون : هم أ كلة رأس ؛ أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .

(٢) فى الطبرى بعدها : « فاطعنوا ساعة »

(٣) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة »

(٤) فى الطبرى بعدها : « وجعل ينادى : ياخيلى ، ويشد بالسيف ، فيقاتل قتالا شديدا » .

(٥) الطبرى : « احمل عليهم » . (٦) الطبرى : « بالسيف » .

إلّا نَبَا عنه ؛ ولقد اعتوره أكثرُ من عشرين سيفا وهو مجفّف ، فما ضرّه شىء منها ، ثم انهزم [(١)] .

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجِسْتَان عند المغرب؛ وهو قائم فى أصحابه؛ فقاتلناه قتالا شديدا ، وصَبَر لنا .

ثم إن مصاداً حَمَل [(٢)] على بِشْر بن غالب فى الميسرة فَصبَر وكَرُم وأبْلَى ، ونزل معه رجال من أهل البَصْرة نحو خمسين ، فضاربوا بأسيافهم [(٣)] حتى قتلوا ، ثم انهزم أصحابهُ فشدَدْنا على أبى الضريس فهزمناه ، ثم انتهينا إلى موقف أعين ، ثم شددنا على أعْيَن ؛ فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة ، فلما انتهوْا إليه ، نزل ونادى : ياأهلَ الإسلام ، الأرضَ الأرض ! ألا لايكونُون على كفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم . فقاتلوا عامّة الليل إلى السَّحَر .

ثم إن شبيباً شدّ على زائدة بن قدامة فى جماعة من أصحابه ، فقتله وقتل رِبْضَةً [(٤)] حوله من أهل الحفّاظ ، ونادى شبيب فى أصحابه : ارفعوا السيف ، وادعُوهم إلى البيعة ، فدعَوْهم عند الفجر إلى البيعة .

قال عبد الرحمن [(٥)] بن جندب : فكنتُ فيمَنْ تقدّم فبايعه بالخلافة، وهو واقف على

---

(١) فى الطبرى بعدها . « وقد جرح جراحة يسيرة ؛ وذلك عند المساء ، قال : ثم شددنا على عبد الأعلى ابن عبدالله بن عامر ؛ فهزمناه وما قاتلنا كثير قتال ؛ وقد ضارب ساعة ؛ وقد بلغنى أنه كان جرح ثم لحق بزياد بن عمرو فمضيا منهزمين ؛ حتى انتهينا إلى محمد بن موسى . . . » .

(٢) الكلام من هنا فى الطبرى عن هشام عن أبى مخنف ، عن عبد الرحمن بن جندب وفروة بن لقيط .

(٣) فى الطبرى بعدها : « حتى قتلوا عن آخرهم ؛ وكان فيهم عروة بن زهير بن ناجذ الأزدى ، وأمه زرارة ؛ امرأة ولدت فى الأزد ، فيقال لهم بنو زرارة ، فلما قتلوه وانهزم أصحابه ، مالوا فشدوا على أبى الضريس » .

(٤) فى الطبرى : « وتركهم ربضة حوله » ، والربضة : كل قوم قتلوا فى موقعة واحدة ؛ وفى الحديث : « الذين قتلوا يوم الجماجم كانوا ربضة واحدة » .

(٥) فى الطبرى بعدها عن أبى مخنف : « وحدثنى عبد الرحمن بن جندب قال : سمعت زائدة بن قدامة ليلتئذ رافعا صوته ، يقول : ياأيها الناس ، اصبروا وصابروا ؛ ياأيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ثم مابرح يقاتلهم مقبلا غير مدبر حتى قتل » .

فرسٍ أغرّ كُمَيت ؛ وخيله واقفة دونه وكلُّ مَنْ جاء ليبايِعَه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحُه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلّمُ عليه بإمْرة المؤمنين ؛[١] ثم يبايع ؛ فإنا كذلك إذ أضاء الفجر[٢] ومحمد بن موسى بن طلحة فى أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجّاج قد جَعَل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلِّها ، فأمر محمد مؤذِّنه فأذّن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ما هذا ؟ قيل : هذا ابنُ طلحة لم يبرحْ ، قال : ظننتُ أنّ حمقه وخُيَلاءه سيحملانه على هذا ، نحُّوا هؤلاء عنّا ، وانزلوا بنا فلنصلِّ ، فنزلَ وأذّن هو ؛ ثم استقدم فصلَّى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، و ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بالدِّين ﴾ ، ثم سلّم وركب[٣] ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤ مخدوع قد اتّقَى بك الحجاج المنيّة ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حقّ فانطلقْ لما أُمِرتَ به ؛ ولك الله ألّا أسوءك[٤] ؛ فأبى محاربته[٥] فأعاد عليه الرسول فأبى إلّا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأنى بأصحابك لو التقتْ حَلَقَتا[٦] البِطان قد أسلموك ، وصُرِعتَ مصرَع أمثالك ؛ فأطِعْنى وانصرفْ

---

(١) فى الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) فى الطبرى : « إذ انفجر الفجر » .

(٣) فى الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، وثبتت طائفة ؛ قال فروة : فما أنسى قوله ؛ وقد غشيناه وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسمعت أصحابى يقولون: إن شبيبا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ما كان فى العسكر من شىء ، وهرب الذين كانوا بايعوا شبيبا ، فلم يبق منهم أحد . . . . » .

(٤) الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرحل أو القتب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقة ؛ يصعب التقاؤهما؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غايته ؛ يريدون أن الشدة بلغت منتهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وَإِذَا الْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْــــوامٍ وَطَارَتْ نُفُوسُهُمْ جَزَعَا

لشأنِك ؛ فإنى أنفسُ بك عن القَتْل ؛ فأبى وخرج بنفسه ؛ ودعا إلى البِراز ، فبرز له البَطين ثم قَعْنَب بن سويد ؛ وهو يأبى إلا شبيباً . فقالوا لشبيب : إنّه قد رَغِبَ عَنّا إليك ؛ قال : فما ظنُّكم بمَنْ يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يا محمد فى دمك ، فإنّ لك جواراً ! فأبى إلّا قتاله ، فحمل عليه بعموده الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطْلًا ، فهشم رأسَه وبيضةً كانت عليه فقتله ؛ ونزل إليه فكفّنه ودفنه ، وتَتَبّع ما غنم الخوارجُ من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِى بالكوفة ؛ ولى أنْ أهبَ ما غنمت . فقال له أصحابه : ما دون الكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فَشَا فيهم الجِراح ؛ فقال : [1]ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم[1] .

وخرج بهم على نِفّر[2] ، ثم خرج بهم نحو بغداد[3] ؛ يطلب خَانيجار[4] . وبلَغ الحجّاج أنّ شَبِيباً قد أخذ نحو نِفّر ؛ فظنّ أنّه يريدُ المدائن ؛ وهى باب الكوفة ؛ ومَنْ أخَذَ المدائن كان ما فى يديه من أرض الكوفةِ أكثر ؛ فهالَ ذلك الحجّاج ، وبعثَ إلى عثمان بن قَطَن ، فسرّحه إلى المدائن ، وولّاه مِنْبَرها والصلاة ومعونة جُوخَى كلّها ، وخراج الأسْتان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجّاجُ ابنَ أبى عصيفير عن المدائن ، وكان الجَزْل مقيماً بها يُدَاوِى جِراحاته ، وكان ابن أبى عصيفير يعوده ويكرمه ، ويُلْطِفه[5] ، فلما قدِم عثمان بن قَطَن لم يكن يتعاهده ولا يُلْطِفُه بشىء ، فكان الجزل يقول : اللّهم زد ابن أبى عصيفير فَضْلاً وكرما ، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلا .

* * *

(١ ــ ١) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتحه وراء : بلدة أو قرية على نهر النرس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديما جاز ، فأما الآن فهو من نواحى بابل بأرض الكوفة (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بغداد » .

(٤) بعدها فى الطبرى : « فأقام بها » .

(٥) ألطف فلان فلانا : أكرمه وبره وأتحفه .

ثم إنّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَة ؛ وأخرج من سائر الناس ستّة آلاف ، واستحثّه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استتمّوا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قُرِئ عليهم :

أما بعدُ فقد اعتدتم عادة الأذِلّاء ، ووليّتم الدُّبُر يوم الزَّحْف ؛ دأبَ الكافرين[1] وقد صفحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإنى أقسم بالله قَسَماً صادقا لئن عُدْتم لذلك لأوقِعَنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدوّ الذى تنهزمون[2] منه فى بطون الأودية والشِّعاب ، وتستترون منه بأثناء[3] الأنهار وألواذ[4] الجبال ؛ فليخَفْ مَنْ كان له معقولٌ[5] على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلا ، فقد أعْذَر مَنْ أنذر . والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس حتى مَرّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشترِيَ أصحابُه منها حوائجهم ؛ ثم نادى فى الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودّعا ؛ ثم أتى الجَزْل عائداً ، فسأله عن جِرَاحته ، وحادثه ، فقال الجزل : يابن عَمّ ؛ إنك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحْلاس[6] الخيل ؛ والله لكأنما خُلِقوا من ضُلوعها ؛ ثم رُبُّوا[7] على ظهورها ؛ ثم هم أُسْدُ الأجَم ؛ الفارسُ منهم أشدُّ من مائة ؛ إن لم يَبْدَأْ به

---

(١) الطبرى : « وذلك دأب الكافرين » .
(٢) الطبرى : « تهربون » .
(٣) الأثناء : جمع ثنى ، وهو المنعطف .
(٤) الألواذ : جمع لوذ ، وهو جانب الجبل .
(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التى وردت على اسم المفعول ، كالمجهود والميسور ، وفى المثل : « ماله حول ولا معقول » .
(٦) الحلس فى الأصل : كل شىء ولى ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج ، كالمرشحة تكون تحت اللبد . ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها ، على التشبيه بالحلس .
(٧) فى الطبرى : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجْهِجَ[1] أقْدَم ؛ وإنى قد قاتلتُهم وبلوتُهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنّى ؛ وكان لهم الفضل علىّ ، وإذا خندقتُ أو قاتلت فى مَضِيق نلت منهم ما أحبّ ؛ وكانتْ لى عليهم؛ فلا تَلْقَهُم وأنت تستطيع إلا وأنت فى تعبية أو خندق ؛ ثم ودعه، وقال له: هـذه فرسى الفسيفساء خذها فإنهـا لاتجارَى ؛ فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع شَبِيب عنه إلى دَقُوقاء وشهرزور ؛ فخرج عبدُ الرحمن فى طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام ، وقال : إنّما هو فى أرض الموصل ؛ فليقاتِلْ أميرُ الموصل وأهلُها عن بلادهم أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجّاج ، فـكتب إليه :

أما بعدُ فاطلب شبيبـا واسلُكْ فى أثره[2] أينَ سلك حتى تدرِكه فتقتـله أو تنفيَه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجند جندُه . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ فى طلب شبيب ، فـكان شبيب يَدَعُه ، حتى إذا دنا منـه ليبيّته فيجده قد خندق وحَذِر ، فيمضى ويتركه ، فيتبعه عبـد الرحمن فإذا بلغ شبيبا أنّه قد تحمّل وسار يطلبه كَرّ فى الخيل نحوه ، فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيلَه ورجّالته المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ولا غفلة[3] ، فيمضى ويَدَعه .

ولما رأى شبيبٌ أنّه لايصيب غِرّته ، ولا يصل إليه ، صار يخرج كلّما دنا منه عبدالرحمن ، حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا ، ثم يقيم فى أرض غَلِيظة وَعْرَة ، فيجىء عبدُ الرحمن فى ثَقَلِه وخيله ، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل ، فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخا ؛ فنزل منزلا غَلِيظاً خشنا ، ثم يقيم حتى يبلُغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ، ثم يرتحل ، فعذّب العسكر ، وَشَقّ عليهم ، وأحْفَى دوابّهم ، ولَقُوا منه كلّ بلاء .

---

(١) هجهج : صيح به .

(٢) ج : « واسلك أينما سلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانِقِين وجَلولاء ، ثم أقبل على تامَرّا [١] ، فصار إلى البَتّ [٢] ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلايا [٣] ، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بشرقيّ حَوْلايا ، وهم في راذان [٤] الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل في عواقيل [٥] من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهي تعجبه ، يرى أنها مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتُم أن توادعونا حتى تمضِيَ هذه الأيام فعلتم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شيء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنّى أخبرُ الأمير أصلحه الله ؛ أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جُوخَى كلّها عليه خندقا واحدا ، وخلّى شبيبا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ماذكرت ؛ وقد لَعمرِى فَعل عبد الرحمن ، فسِرْ إلى الناس ، فأنت أميرُهم ، وعاجل المارِقة حتى تلقاهم ، [فإن الله إن شاء ناصرك عليهم] [٦] ، والسلام .

وبعث الحجاج على المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدِم على

---

(١) تامرا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقيها ، مخرجه من جبال شهرزور . (مراصد الاطلاع) .

(٢) البت : قرية من قرى الموصل (الطبرى) .

(٣) حولايا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهروان خربت بخرابه . (مراصد الاطلاع) .

(٤) فى الأصول : « ذاذان » تصحيف ، وصوابه من الطبرى ، قال فى مراصد الاطلاع : راذان بعد الألف ذال معجمة وآخره نون : راذان الأعلى وراذان الأسفل : كورتان ببغداد تشتمل على قرى كثيرة » .

(٥) العواقيل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٦) من الطبرى .

عبد الرحمن ومَنْ معه ؛ وهم معسكرون على نهر حوْلايا ، قريبا من البتّ ؛ وذلك يوم التروية [1] عشاء ؛ فنادى فى الناس ، وهو على تَلْعة [2] : أيها الناس ، اخرجوا إلى عَدُوّكم. فوثبوا إليه ، وقالوا: ننشدُك الله ! هذا المساء قد غُشِينا، والناس لم يوطّنوا أنفسَهم على القتال فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبية ، فجعل يقول : لأناجِزَنّهم الليلة ، ولتكونَنّ الفرصة لى أو لهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ بعنان بَغْلته ، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شَدّاد السلولىّ : إنّ الذى تريدُه من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خيرلك وللناس ، إنّ هذه ساعة ريح قداشتدّت مساء ،فانزل ، ثم أبكِرْ بنا غدوة.

فنزل وسَفَت عليه الريح ، وشقّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجا ، فبنوْا له قُبّة ، فبات فيها ؛ ثم أصبح نخرج بالناس ؛ فاستقبلتْهم ريح شديدة وغَبَرة ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : ننشدك الله ألّا تخرج بنا فى هذا اليوم ! فإنّ الريح علينا، فأقام ذلك اليوم.

وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لايخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبّى الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا: خالد بن نَهِيك بن قيس الكِندىّ على ميسرتنا ، وعَقيل بن شَدّاد السلولىّ على ميمنتنا ، فدعاهما وقال لهما : قفافى مواقفكما التى كنتما بها، فقد ولّيتُكما المُجَنّبتَيْن ، فاثبتا ولا تفرّا،فوالله لاأزولُ حتى تَزُولَ نخيل راذان عن أصولها . فقالا : نحن والله الذى لا إله إلا هو لانفرّ حتى نظفرأو نقتل ؛ فقال لهما: جزاكما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلّى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيل ، فنزل يمشى فى الرّجال ، وخرج شبيب ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو فى ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل فى القلب مصادا أخاه وزحفوا ، وكان عثمان بن قَطَن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

---

(١) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفى الطبرى : « على بغلة » .

يَنفَعَكُمُ الفِرارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إلا قَلِيلاً ﴾ (١) .

ثم قال شبيب لأصحابه : إنى حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يَلِي النهر ؛ فإذا هزمتُها فليحمِلْ صاحبُ ميسرتى على ميمنتهم ،ولا يبرحْ صاحبُ القلب حتى يأتيَه أمرى ،ثم حمل فى ميمنة أصحابه مما يلى النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شدّاد مع طائفة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وقتلوا معه (٢) .

ودخل شبيب عسكرَهم ،وحمل سويد بن سليم فى ميسرَة شبيب على ميمنة عثمان بن قَطَن فهزمها ، وعليها خالد بن نَهيك الـكِنْدىّ ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه شبيب مِنْ ورائه ، فلم يَنْثَنِ حتى علاه بالسيف فقتَله ، ومشى عُثمان بن قَطَن ؛ وقد نزلت معه العُرَفاء والفُرْسان وأشرافُ الناس نحو القلب ، وفيه أخو شَبيب فى نحو من ستين رجلا ، فلمّا دَنَا منهم عثمان ، شَدَّ عليهم فى الأشراف وأهل الصبر ، فضربهم مَصاد وأصحابه ، حتى فرّقوا بينهم ، وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل ، فما شعَرُوا إلّا والرِّماح فى أكتافهم تَـكُبّهم لوجوههم ؛وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً فى خيله ، وقاتل عثمان فأحسنَ القتال .

ثم إن الخوارجَ شَدُّوا عليهم ؛ فأحاطوا بعُثمان ، وحَمَل عليه مَصاد أخو شبيب : فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها ،وسقط ،وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ (٣) ، فقتل وقُتِل معه العُرَفاء ووجوه الناس ، وقُتِل مِنْ كِنْدة يومئذ مائة وعشرون رجلا ، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض،فعرَفه

---

(١) سورة الأحزاب ١٦

(٢) فى الطبرى : وقتل يومئذ مالك بن عبد الله الهمدانى ، ثم المرهبى ، عم عياش بن عبدالله بن عياش المنتوف ، وجعل يومئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجالدهم :

لأضربنّ بالحُسَـــامِ الباتِرِ ضَرْبَ غـلامٍ من سَلولٍ صابِرِ

(٣) سورة الأحزاب ٣٣

ابن أبى سَبْرة ، فنزل وأركبه ، وصار رديفاً له[1]. وقال له عبدُ الرحمن : نادِ فى الناس ، الحقوا بدَيْر ابن أبى مريم ؛ فنادى بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابَه ، فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بَقِىَ من الرجال ، فبايعوه ، وبات عبدُ الرحمن بدير اليَعار ، فأتاه فارسان ليلًا ، فخلا به أحدُهما يناجيه طويلا ، وقام الآخر قريبا منهما ، ثم مَضَيا ولم يعرفا ؛ فتحدّث الناس أن المناجىَ له كان شبيبا ؛ وأنّ الذى كان يرقُبُهما كان مصادا أخاه ؛ واتّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبى مريم ؛ فإذا هو بالناس قَبْله قد سَبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبى سبرة صُبَر الشعير والقتّ[2] كأنها القصور ؛ ونحر لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة ؛ قد تفرّق الناس عنك ، وقُتِل خيارهم ، فالحق أيّها الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفةَ مستترا من الحجاج ، إلى أن أخِذ له الأمان بعد ذلك .

***

ثم إن شبيبا اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابه ، فأتى ماه بهراذان، فصيّف[3] بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

---

(١) فى الطبرى : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينا الرديف ؟ قال ابن أبى سبرة : سبحان الله ! أنت الأمير تكون المقدم ، فركب » .

(٢) فى الأصول : « القيت » ، وما أثبته من الطبرى ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمكان : أقام به صيفا ، وفى الطبرى : « تصيف » ، وهما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة[١] ، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبدالله بن عوف، كان قتل دِهْقانين من أهل نهر درقيط ، كانا أساءا إليه ، ولحق بشبيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك ، وله مقام عند الحجاج ، وكلام سَلِم به من القتل ، وهو أنّ الحجاج بعد هلاك شبيب ،أمّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ ،أو تبعة ،فخرج إليه الحرّ فيمن خرج ،فجاء أهل الدهقانين يستعدُون عليه الحجّاج ، فأحضره ، وقال : ياعدوّ الله ، قتلت رجلَين من أهل الخراج ؛ فقال : قد كان أصلحك الله مِنى ماهو أعظم من هذا ، قال : وما هو ؟ قال : خروجى عن الطاعة ، وفراق الجماعة ، ثم إنك أمّنت كلّ من خرج عليك ، وهذا أمانِى وكتابك لى .

فقال الحجاج : قد لَعَمْرِى فعلتُ ، ذلك أوْلى لك ! وخَلّى سبيله .

ثم لما باخ الحرّ[٢]، وسكن عن شبيب خرج من ماه نهروان فى نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن ،وعليها المطرّف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة[٣] بن اليمان فـكتب ما ذراسب[٤] وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدومه إلى قناطر حذيفة ، فقام الحجاج فى الناس وخطبهم ، وقال :

أيها الناس، لتقاتِلُنّ عن بلادكم وفيئكم ، أولأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع ،وأصبر على البلاء[٥] منكم ، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم ـ يعنى جند الشام .

فقام إليه الناس من كلّ جانب ، يقولون : بل نحن نقاتلهم ، ونعتِبُ[٦] الأمير ، فليندبْنا إليهم ، فإنّا حيث يسرّه .

---

(١) فى الطبرى : « التباعات » .
(٢) باخ الحر : سكن وفتر . وفى الطبرى : « انفسح » .
(٣) قناطر حذيفة : بسواد بغداد .
(٤) فى الطبرى : « ماذرواسب » .
(٥) الطبرى : « اللأواء » .
(٦) الطبرى : « ونعتب » .

وقام إليه زُهرة بن حَوِّية ـ وهو يومئذ شيخ كبير لا يَستتِمّ قائما ، حتى يؤخذ بيده ـ فقال : أصلح الله الأمير ! إنك إنما تبعث النـاس متقطعين ، فاستنفِر إليهم الناس كافة ، وابعث عليهم رجلا متيناً شجاعا مجرّبا ، يرى الفِرار هَضْما وعارا ، والصبر مجدا وكرما .

فقال الحجاج : فأنت ذاك ، فاخرج .

فقال : أصلح الله الأمير ! إنّما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدِّرْع ، ويَهُزّ السيف ، ويثبُت على مَتْن الفرس ، وأنا لا أطيق ذلك ، قد ضعفت وضَعُف بصرى (١) ولـكن ابعثنى مع أميرٍ تعتمده ، فأكون فى عسكره ، وأشير عليه برأيى (١) .

فقال : (٢) جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيرا (٢) ، لقد نصحت وصدَقت ، وأنا مخرج الناس كافة ، ألا فسيرُوا أيها الناس .

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون ، ولا يدرون مَنْ أميرهم .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك :

أما بعد ، فإنى أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله ، أنّ شبيبا قد شارفَ المدائن ، وإنما يريدُ الـكوفة ، وقد عَجَز أهل العراق عن قِتاله فى مواطنَ كثيرة ، فى كلّها تُقتَل أمراؤهم ويُفَلّ خيولهم (٣) وأجنادهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلىّ جنداً من جند الشام ليقاتلوا عدوّهم ، ويأكلوا بلادهم فعل إن شاء الله .

فلما أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سفيان بن الأبرد فى أربعة آلاف ، وبعث إليه حبيب ابن عبد الرحمن [الحَكَمىّ] (٤) من (٥) مذحِج فى ألفين وسَرّحهم نحوه حين أتاه الـكتاب (٦) .

(١ ـ ١) الطبرى : « ولـكن أخرجنى فى الناس مع الأمير ، فإنى إنما أثبت على الراحلة ، فأكون مع الأمير فى عسكره ، وأشير عليه برأيى » .

(٢ ـ ٢) الطبرى : « جزاك الله عن الإسلام وأهله فى أول الإسلام خيرا ، وجزاك الله عن الإسلام فى آخر الإسلام خيرا » .

(٣) الطبرى : « جنودهم » .

(٤) من الطبرى .

(٥) فى الأصول . « ابن » ، وما أثبته من الطبرى .

(٦) بعدها فى الطبرى : « من الحجاج » .

وقد كان الحجّاج بعث إلى عَتّاب بن ورقاء الرِّياحيّ ليأتيه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة ، منهم زُهرة بن حَوِيّة ، وقبيصة بن والق ، فقال : مَنْ ترون أنْ أبعثَ على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضلُ ؛ قال: إنّى قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زُهرة بن حَوِيّة : أصلَحَ الله الأمير ! رميتَهم بحَجَرهم ، لا والله لا يرجعُ إليك حتّى يظفَرَ أو يقتل .

فقال قبيصة بن والق : وإنّى مشيرٌ عليك أيها الأمير برأيٍ اجتهدته ، نصيحةً لك ولأمير المؤمنين ولعامّة المسلمين ؛ إنّ الناس قد تحدّثوا أنّ جيشاً قد وَصَل إليك من الشام؛ لأنّ أهل الكوفة قد هُزِموا ، وهان عليهم الفِرار والعار من الهزيمة ، فكأنّما قلوبهم فى صدور قوم آخرين ، فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إلى الجيش الذى قد أُمدِدْتَ به من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم ، ولا يبيتوا بمنزلٍ إلا وهم يرون أنهم يبيتون فعلت،فإن فعلت فإنك إنما تحارب حُوّلاً قُلّباً ظَعّاناً رحّالاً[1] ؛ إنّ شبيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارّون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كلّه .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ماأحسنَ مارأيت ! وما أصحّ ما أشرت به ! فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرءوه وقد نزلوا هِيت ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإذا حاذيتم هِيت ، فدَعُوا طريق الفرات والأنبار ، وخذوا عَلَى عين التمر، حتى تقدموا الكوفة ، إن شاء الله[2] .

فأقبل القوم سِراعا ، وقدم عَتّاب بن ورقاء فى الليلة التى قال الحجاج إنه فيها قادم؛ فأمَره الحجّاج ؛ فخرج بالنّاس ، وعسكر بحمّام[3] أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

(١) الطبرى : « ظعانا رحالا » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذركم وعجلوا السير ، والسلام » .

(٣) حمام أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلْوَاذى[١] ، فقطع منها دِجْلة ،وأقبل حتى نزل بَهُرَسير[٢] ،وصار بينه وبين مطرّف ابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، فقطع مطرّف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كادَ به شبيباً ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أنّه بعث إليه : أن ابعثْ إلىّ رجالاً من فقهاء أصحابك وقرّائهم ؛ وأظهر له أنّه يريدأن يدارسَهم القرآن، وينظر فيما يدعون إليه ، فإن وجدحقا اتّبعه ؛ فبعث إليه شبيب رجالا ؛ فيهم قَعْنب وسويد والمحلّل، ووصّاهم ألّا يدخلواالسفينة حتى يرجع رسولُه من عند مطرّف ، وأرسل إلى مطرّف : أن ابعثْ إلىّ من أصحابك ووجوه فُرسانك بعدّةأصحابى ؛ ليكونوا رَهْناً فى يدى ، حتى تردّ علىّ أصحابى . فقال مطرّف لرسوله : القه ، وقل له : كيف آمنك الآن على أصحابى ، إذ أبعثهم إليك،وأنت لا تأمنُنى على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد عَلِمت أنّا لا نستحلّ الغَدْر فى ديننا ، وأنتم قوم غُدُر تستحلّون الغَدْر وتفعلونه . فبعث إليه مطرّف جماعةً من وجوه أصحابه ، فلما صارُوا فى يد شبيب ، سرّح إليه أصحابه ، فَعَبَرُوا إليه فى السفينة ، فأتَوْه ، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون ، ولم يتفقُوا على شىء ، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبّى للمسير ، وجَمع إليه أصحابه، وقال لهم : إنّ هذا الثقفىّ قطعنى عن رأيى منذ أربعة أيام ، وذلك أنّى هممت أن أخرُج فى جريدة من الخيل ، حتى ألْقَى هذا الجيش المقبل من الشام ، وأرجُو أن أُصادِفَ غِرّتَهم قبل أن يحذَرُوا ، وكنت ألقاهم منقطعين عن المِصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصْرٌ كالكوفة يعتصمون به ، وقد جاءنى عيون[٣] أنّ أوائلَهم قد دخلوا عَيْنَ التمْر ، فهم الآنقدشارفوا الكوفة ، وجاءنى أيضا عُيون من نحو عتّاب[٣]أنه نزل بحمام أَعْيَن بجماعةأهل الكوفة[٤] وأهل البصرة ، فما أقربَ مابيننا وبينهم ! فتيسَّرُوا بنا للمسير إلى عتّاب .

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد .

(٢) بهر سير : من نواحى بغداد قرب المدائن .

(٣) الطبرى . « عيونى » .

(٤) الطبرى : « بجماعة أهل الكوفة المصراة » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرَج معه خمسين ألفا من المقاتلة،وهدّدهم الحجاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة ، وتوعَّدَهم ، وعرَض شبيب أصحابه بالمدائن ، فكانوا ألفَ رجل فخطبهم وقال : يامعشرَ المسلمين ، إنّ الله عَز وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان ، واليوم فأنتم مئون [ومئون] [1] ، ألَا وَإنّى مصلّ الظهر ، ثمّ سائر بكم إن شاء الله .

فصلّى الظهر ، ثم نادى فى النّاس ، فتخلّف عنه بعضُهم .

قال فروة بن [2] لقيط : فلما جاَز ساباط ، ونزلْنا معه ، قَصّ علينا،وذكّرنا بأيام الله، وزهّدَنا فى الدنيا ، ورَغّبنا فى الآخرة . ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر ، ثم أقبل حتى أشرف على عَتّاب بن ورقاء ، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته،وأمر مؤذّنه ، فأذّن ثم تقدّم ، فصلّى بأصحابه صلاةَ المغرب [3] ، وخرج عتّاب بالناس كلّهم فعبّأهم ، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل .

وجعل على ميمنته محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانىّ؛قال له : يابن أخى إنّك شريف ، فاصبر وصابر ، فقال : أما أنا فوالله لأقاتلنّ ماثَبَت معى إنسان .

وقال لقبيصة بن والق التغلَبىّ [4] : اكفنى الميسرة ، فقال : [5] أنا شيخ كبير،غايتى أنْ أثبتَ تحت رايتى،أما ترانى لاأستطيع القيام إلّا أن أُقام،وأخى نعيم بن عليم ذُو غناء، فابعثه على الميسرة . فبعثه عليها [5] . وبعث حنظلة بن الحارث الرياحىّ ابن عمه ، وشيخ

---

(١) من الطبرى .

(٢) راوى الخبر فى الطبرى .

(٣) فى الطبرى : « وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيبانى » .

(٤) فى الطبرى : « وكان على ثلث بنى تغلب »

(٥ ــ ٥) الطبرى : « أناشيخ كبير ، كثير منى أن أثبت تحت رايتى ، قد انبت من القيام ، ماأستطيع القيام إلا أن أقام ، ولكن هـذا عبيد الله بن الحليس ، ونعيم بن عليم التغلبيان ، وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب ، ابعث أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعثن ذا حزم وعزم وغناء ، فبعث نعيم بن عليم على ميسرته » .

أهل بيته على الرجّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف : صفٌّ فيه الرجّالة ومعهم السيوف، وصفٌّ هم أصحاب الرماح ؛ وصفٌّ فيه المرامية .

ثم سار عَتّاب بين الميمنة والميسرة يمرّ بأهل راية راية، ؛ فيحرّض مَنْ تحتها على الصّبر ؛ ومن كلامه يومئذ : إنّ أعظمَ الناس نصيباً من الجنة الشهداء ؛ وليس الله لأحَدٍ أمقتَ منه لأهل البغى ؛ ألا ترون عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؛ لا يرى ذلك إلا قربةً لهم ! فهم شرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصّاص يقصّون على الناس ، ويحرّضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يَرْوِى شعر عنترة ، فيحرّك الناس ؟ فلم يجبه أحد ولا ردّ عليه كلمة ؛ فقال : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ والله لكأنى بكم وقد تفرّقتم عن عتاب وتركتموه تسفِى فى استِه الريح ؛ ثم أقبل حتى جلس فى القلب ، ومعه زهرة بن حَوِيّة ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأقبل شبيب فى ستمائة ، وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة ، فقال : إنّه لم يتخلّفْ عَنِّى إلا مَنْ لا أحبّ أنْ أراه معى ؛ فبعث سويد بن سليم فى مائتين إلى الميسرة ، وبعث المحلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب، ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة ؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة ؛ حين أضاء القمر ؛ فناداهم : لمن هذه الرايات ؟ قالوا : رايات هَمْدان . فقال: رايات طالمَا نَصرَت الحقَّ، وطالما نصرت الباطل؛ لها فى كلٍّ[1] نصيبٌ ؛ أنا أبو المدلّه اثبتوا إن شئتم . ثم حمل عليهم ؛ وهم على مسنّاة أمام الخندق ، ففضّهم ، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق .

فجاء شبيب فوقف عليه ، وقال لأصحابه : مَثَل هـذا قولُه تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) بعدها فى الطبرى : « والله لأجاهدنكم محتسباً للخير فى جهادكم ، أنتم ربيعة وأنا شبيب ، أنا أبو المدله لاحكم إلا لله »

نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ، [١]

ثم حمل على الميسرة ففضّها ، وصمد نحو القلب ، وعتّاب جالس على طِنْفِسةٍ ، هو وزهرة ابن حَوِيّة ، فغشيَهم شبيب ، فانفضّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يازُهرة ، هَذَا يومٌ كَثُرَ فيه العدد ؛ وقلّ فيه الغَنَاء ، لهفى على خمسمائة فارسٍ من وُجُوه الناس ؛ ألا صابرٌ لعدوه ! ألا مواسٍ بنفسه ! فمضى الناس عَلَى وجوههم ، فلما دنا منه شبيب وَثَب إليه فى عصابة قليلة صبرت مَعَه ، فقال له بعضهم : إنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب ؛ وانصفق معه ناس كثير ، فقال : أما إنه قد فرّ قبل اليوم ، وما رأيت مثل ذلك الفتى ؛ مايبالى ماصنع ، ثم قاتلهم ساعة ، وهو يقول : مارأيتُ كاليوم قطّ موطنا لم أبلَ بمثله ، أقلّ ناصرا ، ولا أكثر هاربا خاذلا ؛ فرآه رجلٌ من بنى تَغْلب من أصحاب شبيب ـ وكان أصاب دما فى قومه ، والتحق بشبيب : فقال : إنى لأظُنّ هذا المتكلّم عتّاب ابن ورقاء ، فحَمَل عليه فطعنه ؛ فوقع وقُتِل ، ووطئت الخيل زُهرة بن حَوِيّة ، فأخذ يذبّب بسيفه ؛ وهو شيخ كبير لايستطيع أن ينهض ؛ فجاءه الفضل بن عامر الشيبانىّ فقتله ، وانتهى إليه شبيب ؛ فوجده صَرِيعا فعرفه ، فقال : مَنْ قتل هذا ؟ قال الفضل : أنا قتلته ، فقال شبيب : هذا زَهرة بن حَوِيّة ؛ أما والله لئن كنتَ قُتلتَ عَلَى ضلالةٍ ؛ لربّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك ، وعظم فيه غناؤك ، ولربّ خيلٍ للمشركين هزمتَها ، وسَرِيّةٍ لهم ذعرتَها ، ومدينةٍ لهم فتحتَها ! ثم كان فى علم الله أن تُقتل ناصراً للظالمين .

وقتل يومئذ وجوهُ العرب من عسكر العراق فى المعركة : واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر ، فقال: ارفعُوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البَيْعة ، فبايعه الناس عامّة من ساعتهم ، واحتوى على جميع مافى العسكر ، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين ، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبىّ ، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما

(١) سورة الأعراف ١٧٥

إلى الكوفة ، فشدُّوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بهِمْ عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عتّاب وعسكره ، فَصَعِد المنبر ، فقال : ياأهلَ الكوفة ؛ لا أعزَّ الله مَنْ أراد بكم العزَّ ، ولا نَصَر مَنْ أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، (١ ولا يقاتلنّ معنا إلّا مَنْ لم يشهد قتال عتّاب بن ورقاء ١) .

وخرج شبيب يريد الكوفة ، فانتهى إلى سورا[٢] ، فقال لأصحابه : أيُّكم يأتيني برأس عاملها ، فانتدب إليه قَطِين ، وقَعْنب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شَبِيب ، فكانوا خمسة ، وساروا حتى انتهوْا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجيبوا الأمير ؛ فقال الناس : أيّ أمير ؟ قالوا : أمير قد خرج من قِبَل الحجاج ، يريد هذا الفاسق شبيبا ، فاغترّ بذلك عامل سُورَا ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شَهَرُوا السيوف ، وحكّموا وخَبَطُوه بها حتى قتلوه ، وقبضوا ما وجدوا فى دار الخراج من مالٍ ؛ ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البدرَ ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلمّ ياغلام الحربة ، فخرّق بها البِدر ، وأمر أن تنخَسَ الدوابّ التى كانت البدَر عليها ، فمرّت رائحة ، والمال يتناثر من البدَر ، حتى وردت الصَّراة ، فقال : إن كان بقىَ شىء فاقذفوه فى الماء .

* * *

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج : ابعثْنِى إلى شَبِيب أستقبله قبل أنْ يَرِد الكوفة ، فقال : لا ؛ ما أحبّ أن نفترق حتى ألقاه فى جماعتكم ، والكوفة فى ظهرنا ؛ وأقبل شبيب حتى نزلَ حَمّام أعين ؛ ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبى زرعة بن مسعود الثقفىّ فوجّهه فى ناس لم يكونوا شهدُوا يوم عتاب . فخرج فى ألف رجل ؛ حتى انتهى إلى شبيب ليدفعه عن الكوفة ؛ فلما رآه شبيب حَمَل عليه فقتَله ؛ وفَلّ أصحابه . فجاءوا حتى دخلوا

(١-١) الطبرى : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .

(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الـكوفة ، و بعث شبيب البَطِين فى عَشَرة فوارس يرتادون له منزلا على شاطئ الفرات ، فى دار الرزق، فوجّه الحجاج حوشب بن يزيد ، فى جمع من أهل الـكوفة، فأخذُوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يَقْوَ عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حَوْشب وهزموه ، فنجا بنفسه ، ومضى البَطِين إلى دار الرزق فى أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجّه إليه الحجاج أحداً ، فابتنى مسجدا فى أقصى السَّبَخة ، وأقام ثلاثا لم يوجّهْ إليه الحجاج أحداً ، ولا يخرج إليه من أهل الـكوفة ، ولا من أهل الشام أحَدٌ ، وكانت امرأته غزالة نَذَرت أن تصلّىَ فى مسجد الـكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران [1] .

***

فجاء شبيبٌ مع امرأته حتى أوفَتْ بنذرها فى المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرُج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إنّى خارج ، فاخرج أنت ، فارتدْ لى معسكرا ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المَدَى سهلا ، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجّاج بنفسه ، ومرّ على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال: ألقُوا لى هنا بساطا ، فقيل له : إنّ الموضع قَذِر ، فقال : ما تدعونى إليه أقذر ، الأرضُ تحته طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبى الورد، وعليه تِجْفَاف [2]، وأحاط به غِلْمان كثير ؛ وقيل: هذا الحجاج؛ فحمل عليه شبيب فقتله ؛ وقال: إن يكن الحجاج ، فقد أرَحْتُ الناس [3] منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى ميمنته مطر بن ناجية ، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو فى زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيها الأمير لا نعرفَ

---

(١) بعدها فى الطبرى : « ففعلت » .

(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس فى الحرب للوقاية ؛ كأنها درع .

(٣) الطبرى : « أرحتكم » .

شبيبا بمكانك ، فتنكّر ، وأخفى مكانه ، وتشبه به مولى آخر للحجاج فى هيئتـه وزيه ، فحمل عليه شبيب ، فضرب به بالعمود فقتله ؛ ويقال إنه قال لما سقط : « أخ » بالخاء المعجمة فقال شبيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالحاء المهملة .

ثم تشبّه بالحجاج أعْيَن صاحب حَمّام أعيَن ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شبيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ،فأتِىَ ببغل محجّل ؛ وقيل : أيها الأمير ، أصلحك الله إنّ الأعاجم كانت تتطيّر أن تركب مثل هذا البغل فى مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه منى فإنّه أغر محجّل ؛ وهذا يومٌ أغرّ محجّل ، فركبه ، ثم سار فى الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لى عَباءة ، فطرِحَتْ له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : ائتونى بكرسىّ ، فأتِىَ به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهلَ الشام ، فقال : ياأهلَ الشام ؛ يا أهلَ السمع والطاعة ، لا يغلِبَنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقّـكم ؛ غُضُّوا الأبصار ، واجثوا على الرُّكَب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنّة ، فجثوا على الرُّكَب ، وكأنهم حَرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركدت ريح شبيب ، وأذِن الله تعالى فى إدبار أمره ، وانقضاء أيامه فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عَبّى أصحابَه ثلاثة كراديس ، كَتِيبة معه ، وكَتِيبة مع سُويد بن سُلَيم وكتيبة مع المحلّل بن وائل ، وقال لسُوَيد : احمل عليهم فى خيلك ،فحَمَل عليهم فثبتوا له حتى إذا غَشِى أطراف أسنّتهم ، وثبوا فى وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ؛ ثم طاعنوه ؛ قُدُما قُدُما ؛ حتى ألحقوه بأصحابه .

فلما رأى شبيب صبرَهم ، نادى : ياسُوَيد ، احمل فى خيلك فى هذه الرايات الأخرى ، لعلّك تزيل أهلها ؛ فتأتِى الحجاجَ من ورائه ، ونحمِل نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران الـكوفة ، فرمى بالحجارة من سطوح البيوت ، ومن أفواه السّـكك ، فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهام ، وقد كان الحجاج جعله فى ثلاثمائة رامٍ من أهل الشام رِدْءاً له كى لا يؤتى من ورائه ، فصاح شبيب فى أصحابه :

ياأهلَ الإسلام ! إنما شَرَيْتُمْ لله ، ومن يكن شراؤه لله لم يضرّه ما أصابه من ألم وأذى [(١)] ، لله أبوكم االصبرَالصبر ، شَدّة كشدّاتكم الكريمة فى مواطنكم المشهورة .

فشدّوا شَدّة عظيمة ، فلم يزُل أهل الشام عن مراكزهم ، فقال شبيب : الأرضَ ! دبّوا دبيبا تحت تِراسكم ، حتى إذا صارت أسِنّة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذْلِقُوها صُعُداً ، وادخلوا تحتها ، واضرِبُوا سوقهم وأقدامهم ، وهى الهزيمةُ بإذن الله . فأقبلوا يدبُّون دبيبا تحت الحَجَف : صمْدا صمْدا ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء : أيّها الأمير ، أنا موتور ، ولا أتّهم فى نصيحتى [(٢)] ، فأذَنْ لى حتى آتِيَهم من ورائهم ، فأغيرَ على معسكرهم وثَقَلهم ، فقال : افعل ذلك [(٣)] ، فخرج فى جَمْع من مَواليه وشاكِريّته [(٤)] وبنى عمّه ، حتى صار من ورائهم ، فالتقى بمصَاد أخى شبيب فقتله ، وقتَل غزالةَ امرأة شبيب ، وألقى النار فى معسكرهم ، والتفت شبيب والحجّاج ، فشاهدا النار ، فأمّا الحجّاج فكبّر وكبّر أصحابُه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكلُّ راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين ، فقال الحجّاج لأصحابه : شُدّوا عليهم ، فقد أتاهم ماأرعبهم؛ فشدُّوا عليهم ، فهزموهم ، وتخلّف شبيب فى خاصّة الناس ، حتى خرج من الجسر ، وتبعه خيل الحجّاج ، وغَشِيَه النُّعاس ، فجعل يخفق برأسه ، والخيل تطلبه .

قال أصغر الخارجيّ [(٥)] : كنت معه ذلك اليوم ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، التفتْ

(١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى » .

(٢) الطبرى : « فى نصيحة »

(٣) الطبرى : « ما بدالك » .

(٤) الشاكرية : جمع شاكرى . وهو الأجير .

(٥) فى الطبرى : « قال هشام : فحدثنى أصغر الخارجى ، قال : حدثنى من كان مع شبيب . . . »

فانظر مَنْ خلفك؛فالتفتَ غير مكترث ، وجعل[١] يخفِق برأسه . قال : ودنَوْا منا،فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، قد دنا القوم منك ، فالتفت والله ثانية غيرَ مكترث بهم ، وجعل يخفِق برأسه ، وبعث الحجاج خيلا تركُض تقول : دعوه يذهب فى حرق الله ، فتركوه وانصرفوا عنه[٢] .

ومضى شبيب بأصحابه ، حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْراً هناك ، وخالد بن عتاب يَقْفُوهم ، فحصرهم فى الدير،فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه نحوا من فرسخين ، حتى ألْقَى خالد نفسه فى دجلة هو وأصحابه بخيولهم ، فمرّ به شبيب ، فرآه فى دجلة، ولواؤه فى يده ، فقال : قاتله الله فارسا ، وقاتل فرَسه! فرس هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى فرسٍ فى الأرض ، وانصرف،فقيل له بعد انصرافه : إنّ الفارس الذى رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء ، فقال : معرق فى الشجاعة ! لو علمت لأقحمت خَلْفه ، ولو دخل النار .

ثم دخل الحجاج الكوفة بعدهزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال:والله ماقُوتل شبيب قطّ قبل اليوم ، ولّى هاربا ، وترك امرأته يُكْسر فى استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه فى أثره فى ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال : احذر بيَاته ، وحيثما لقيته فنازله ؛ فإنّ الله تعالى قد فَلّ حَدَّه ، وقصم نابه . فخرج حبيب فى أثره ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب ؛ مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة فى دين الخوارج ، ممن هزّه[٣] القتال . وكرهه ذلك اليوم يجىء فيؤمن . وقبل ذلك كان الحجّاج نادى يومَ هُزِم شبيب : من جاءنا فهو آمن ، فتفرّق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

(١) الطبرى : « ثم أكب يخفق برأسه » .
(٢) الطبرى : « ورجعوا » .
(٣) الطبرى : « هده القتال » .

وبلغ شبيباً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السَّكسكي[١] : كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلةَ جاءنا شبيب ، فبيّتنا ، فلما أمسينا جمعَنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلَنا أرباعا ، وجعل على كلّ رُبْعٍ أميرا ، وقال لنا : ليَحْمِ[٢] كلّ رُبْعٍ منكم جانبَه ، فإن قُتِل هذا الربع فلا يُعِنْهم الرُّبْع الآخر ، فإنه بلغني أنّ الخوارج منكم قريب؛ فوطّنوا أنفسَكم على أنكم مبيّتون فمقاتَلون ، قال : فما زلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيّتنا ، فشدّ على [٣]رُبْعٍ منّا فصابرهم طويلا ، فما زالت قدمُ إنسان منهم . ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر، فقاتلهم طويلا فلم يظفر بشيء ، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبْعاً رُبْعاً ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل[٣] ولصِق بنا[٤] حتى قلنا : لا يفارقنا ، ثم ترجّل فنازَلَنا راجلا نزَالا طويلا هو وأصحابه ، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل ، وفُقِئت الأعين ، وكثُرت القتلى ، فقتلنا منهم نحو ثلاثين ، وقتَلوا منّا نحو مائة ، وايمُ الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا ، ثم فارقونا وقد مَلِلْناهم ومَلّونا ، وكرهناهم وَكرهونا ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضرّه من الإعياء والضعف ، ولقد رأيتُ الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ما يستطيع أن يقومَ من الإعياء والبُهْر . حتى ركب شبيب ، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه : اركَبوا ؛ وتوجّه بهم مُنصرِفاً عنا .

فقال فروة بن لقيط الخارجي ـ وكان شهد معه مواطنه كلها ـ قال لنا ليلتئذ ،وقد رأى

---

(١) في الطبري : « قال أبو مخنف ، فحدثني أبو يزيد السكسكي قال » .

(٢) الطبري : « ليجز كل ربع » .

(٣ ـ ٣) الطبري : « فشد على ربع منا، عليهم عثمان بن سعيد العذري ، فضاربهم طويلا ، فمازالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامري ، فقاتلهم فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميري ، فما قدر منهم على شيء . ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر الخثعمي ، فقاتلهم طويلا ، فلم يظفر بشيء ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .

(٤) الطبري : « وألز بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة : ما أشدّ هذا الذى بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا فى طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابُه : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

قال فَرْوة بن لقيط : وسمعتُه تلك الليلة يحدِّث سوَيد بن سُلَيم ، ويقول له : لقد قتلت منهم أمسِ رَجُلَين من أشجع[1] الناس ، خرجت عشيّة أمس طليعة لكم ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلُوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشترى أحدُهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لى : أراك لم تشتر عَلَفًا[2] ! فقلت : إنّ لى رُفقاء قد كفونى ذلك ، ثم قلت له : أين ترَى عَدُوّنا [هذا نزل][3] ؟ فقال : بلغنى أنه قد نزل قريبا منّا ، وايمُ الله لوَدِدْتُ أنى لقيتُ شبيبهم هذا ، قلت : أفتحبّ ذلك ؟ قال : إى والله ، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتا [فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات][3] فانصرفت راجعا ، فاستقبلت الآخر خارجًا من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التى يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلّمه ، ومضيت ، فنفرتْ بى فرسى ، وذهبت تتمطّر[4] ، فإذا به فى أثَرِى حتى لحقنى ، فعطفت عليه ، وقلت : ما بالك ؟ قال : أظنك والله من عَدُوّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلنى ؛ فحملت عليه وحَمَل علىّ ، فاضطربنا بسَيْفينا ساعة ، فو الله ما فَضلتهُ فى شدّة نفَس ولا إقدام ، إلّا أنّ سيفى كان أقطع من سيفه فقتلته .

***

وبلغ شبيبا أنّ جند الشام الذى مع حبيب حملوا معهم حَجَراً ، وحلفوا لا يفرّون حتى يفرّ هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذِّبهم ، فعمَد إلى أربعة أفراس ، وربط فى أذنابها ترِسَة ،

---

(١) الطبرى : « قتلت منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .

(٢) الطبرى : « كأنك لم تشتر علفا » .

(٣) من الطبرى.

(٤) تتمطر : تسرع فى جريها .

فى ذنَب كل فرس تُرْسين، ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيّان ـ كان شجاعا فاتكا ـ وأمره أن يحمل معه إدَاوةً من ماء ، ثم سار ليلا حتى أتى ناحيةً من عَسْكر أهل الشام ، فأمر أصحابه أن يكونوا فى نواحى العسكر الأربع ، وأن يكون مع كلّ رجلين فرس : ثم يلبدوها الحديد حتى تَجِدَ حَرّه ، ثم يخلُّوها فى العسكر ، وواعدهم تَلْعَةً قريبة من العسكر ، وقال : مَنْ نجا منكم ؛ فإن موعدَه التَّلعة ؛ فكرِه أصحابُه الإقدام على ماأمرهم ؛ فنزل بنفسه حتى صَنَع بالخيل ماأمرهم به ؛ حتى دخلتْ فى العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشدّ خلفها شَدًّا محكما ؛ فتفرّقت فى نواحى العسكر ، واضطرب الناس ، فضرب بعضُهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيبُ بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزَموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شبيب بينهم ، فلزم الأرضَ معهم ، حتى رآهم قد سكنوا ، وقد أصابتْه ضربة عمود أوْهَنَتْه .

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج فى غُمارهم ، حتى أتى التّلعة ، فإذا مولاه حيّان ؛ فقال : أفرغ وَيْحَك على رأسى مِنْ هذه الإداوة ! فلمّا مدّ رأسه لِيَصُبّ عليه من الماء هَمّ حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لاأجِدُ مكرمة لى ، ولاذِكْراً أرْفَعَ من هذا فى هذه الخلْوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرّعْدة حين هَمّ بما همّ به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : وَيحك ! ماانتظارُك بحلِّها ! ناولْنِيها، وتناول السِّكين من مَوْزِجه[1] فخرقها به ، ثم ناوله إيّاها ، فأفرغ عليه من الماء ، فكان حيّان بعدذلك يقول : لقد هممت فأخذَتْنِى الرّعدة فجبُنت عنه ؛ وما كنتُ أعهد نفسى جَبَاناً .

***

ثم إنّ الحجاج أخرج الناس إلى شبيب ، وقَسّم فيهم أموالًا عظيمة ، وأعطى الجرْحَى وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ بهم ، فشقّ ذلك على حبيب

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفيان إلى رجل قد فلأته ، وقتلتُ فرسانَه ! وكان شبيب قد أقام بِكَرْمَان حتى جبر، واستراش هو وأصحابه ؛ فمضى سفيان بالرِّجال، واستقبله شبيب بدُجيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فعبر إلى سفيان ، فوجده قد نزل بالرجال ، وجعل مهاصر[1] بن صيفيّ على خيله ، وبشر بن حسان[1] الفِهْرِيّ عَلَى ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزارى على ميسرته ، وأقبل شبيب فى ثلاثة كراديس ؛ هو فى كَتِيبة ، وسويد بن سليم فى كَتِيبة ، وقَعْنب فى كَتِيبة ، وخلف المحَلّل فى عسكره ؛ فلما حَمَلَ سُوَيد وهو فى ميمنته على ميسرة سُفيان وقَعنب وهو فى ميسرته على ميمنة سفيان ، حَمَـــل هو على سفيان ، ثم اضطربوا مليًّا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذى كانوا فيه .

فقال يزيد السَّكسكى- وكان من أصحاب سفيان يومئذ: كَرّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرّة ، ولا يزول من صفّنا أحـدٌ ، فقال لنا سفيان : لاتحملوا عليهم متفرقين ؛ ولـكن لتزحفْ عليهم الرجال زحفا ، ففعلنا ، ومازلنا نطاعِنُهم حتى اضطررناهم الى الجسر ، فقاتلونا عليه أشدَّ قتال يكون لقوم قَطّ . ثم نزل شبيبٌ ، ونزل معه نحومائة رجل ؛ فمـا هو إلا أن نَزَلُوا حتى أوْقَعُوا بنا من الضَّرْب والطعن شيئا مارأينا مثله قطّ ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفيان أنّه لايقدر عليهم ، ولا يأمَنُ ظفرهم ، دعا الرّماة فقال: اشْقُوهم بالنَّبل ؛ وذلك عنـد المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهـار ، فرشَقهم أصحابُه ؛ وقد كان سفيان صَفّهم على حِدَة ، وعليهم أمير ، فلمـا رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم ، فشدَدْنا نحن ، وشغلناهم عنهم ، فلمـا رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحـابه ، وكَرّوا على أصحاب النَّبل كَرّة شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح ، حتى اختلط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه:

---

(١) ب : « مضاض » .

ياقوم ، دعوهم لا تَتَّبعوهم ؛ ياقوم دَعُوهم لا تَتَّبعوهم حتى نُصَبِّحَهم . قال : فكففنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجيّ : فلما انتهينا إلى الجسر ، قال شبيب : اعبرُوا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلّف فى آخرنا ، وأقبل يعبُر الجسر ، وتحته حصان جَمُوح ، وبين يديه فرس أُنْثى ما ذيانة ، فنزا حصانُه عليها وهو على الجسر ؛ فاضطربت الماذيانة ، وزَلّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة ، فسقط فى الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [1] واغتمس [2] فى الماء ثم ارتفع فقال : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [3] ثم اغتمس فى الماء ، فلم يرتفع .

هكذا روى أكثرُ الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه فى الوقائع التى كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتُهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب عشائرهم وساداتهم ؛ فهم منه موتورون ، فلما تخلّف فى أُخْرَيات الناس يومئذ ، قال بعضهم لبعض : هل لكم أنْ نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هذا هو الرأى ، فقطعوا الجسر ، فمالت به السفينة ، ففزِع حصانُه ونَفَر ، فسقط فى الماء وغَرِق .

والرواية الأولى أشهر ؛ لحدث قومٌ من أصحاب سُفْيان ، قالوا : سمعنا صوتَ الخوارج يقولون : غَرِق أمير المؤمنين ، فعبَرْنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر [4] ولا أثر ؛ فنزلنا فيه ، وطلبنا شَبيبا حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدِّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

---

(١) سورة الأنفال ٤٢

(٢) الطبرى : « ارتمس » ، وهما بمعنى .

(٣) سورة يس ٣٨

(٤) هو مثل ، يقال : « مابالدار من صافر » أى أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قَلْبَهَ فكان مجتمعا صُلْبا كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض فينبُو ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها ، وقد كان قيل لها مرارا إنه قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكتْ ؛ فقيل لها فى ذلك ، فقالت : رأيت فى المنام حين ولدْتُه أنه خرج من فَرْجى نارٌ ملأت الآفاق ، ثم سقطت فى ماء فخمدت ، فعلمت أنه لا يهلِك إلا بالغرق [1] .

* * *

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله [2]

---

(١) وفى رواية أخرى ذكرها الطبرى : « كان شبيب ينعى لأمه ، فيقال : قتل ، فلا تقبل ، فقيل لها : إنه غرق ، فقبلت وقالت : إنى رأيت حين ولدته أنه خرج منى شهاب نار ، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد فى نسخة (ج) ، وجاء فى آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ، ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

فهرس الخطب (*)

	صفحة
٥٢ ـ من كلامه عليه السلام فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية (١)	٣
٥٣ ـ ومن كلام له فى ذكر البيعة	٦
٥٤ ـ ومن كلام له وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين	١٢
٥٥ ـ ومن كلام له يذكر حروبه مع الرسول عليه السلام	٣٣
٥٦ ـ ومن كلام له مع أصحابه يخبر عما سيكون من شأن رجل يأمر بسبه والبراءة منه	٥٤
٥٧ ـ من كلام له كلم به الخوارج	١٢٩

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

(١) وهى تتمة الخطبة الثانية والخمسين ، وأولها فى الجزء الثالث ص ٣٣٢

فهرس الموضوعات (*)

	صفحة
اختلاف الفقهاء فى حكم الأضحية	٣ – ٥
بيعة على وأمر المتخلفين عنها	٧ – ١١
من أخبار يوم صفين	١٣ – ٣٢
فتنة عبد الله بن الحضرمى بالبصرة	٣٤ – ٥٣
مسألة كلامية فى الأمر بالشىء مع العلم بأنه لا يقع	٥٥ ، ٥٦
فصل فيما روى من سب معاوية وحزبه لعلى	٥٦ – ٦٣
فصل فى ذكر الأحاديث الموضوعة فى ذم على	٦٣ – ٧٣
فصل فى ذكر المنحرفين عن على	٧٤ – ١١٠
فصل فى معنى قول على : « فسبونى فإنه لى زكاة »	١١١ – ١١٢
فصل فى اختلاف الرأى فى معنى السب والبراءة	١١٣ ، ١١٤
فصل فى معنى قول على : « إنى ولدت على الفطرة »	١١٤ – ١١٦
فصل فيما قيل من سبق على إلى الإسلام	١١٦ – ١٢٥
فصل فيما قيل من سبق على إلى الهجرة	١٢٥ – ١٢٨
أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم	
عروة بن حدير	١٣٢
نجدة بن عويمر الحنفى	١٣٢ – ١٣٤
المستورد بن سعد التيمى	١٣٤
حوثرة الأسدى	١٣٤ – ١٣٥
قريب بن مرة وزحاف الطائى	١٣٥ ، ١٣٦
نافع بن الأزرق الحنفى	١٣٦ – ١٤١
عبد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعى	١٤١ – ١٤٤
الزبير بن على السليطى وظهور أمر المهلب	١٤٤ – ١٦٧
قطرى بن الفجاءة المازنى	١٦٧ – ٢٠٣
عبد ربه الصغير	٢٠٤ – ٢١٢
طرف من أخبار المهلب	٢١٣ – ٢١٥
شبيب بن يزيد الشيبانى	٢٢٥
دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج	٢٣٢ – ٢٧٨

(*) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .